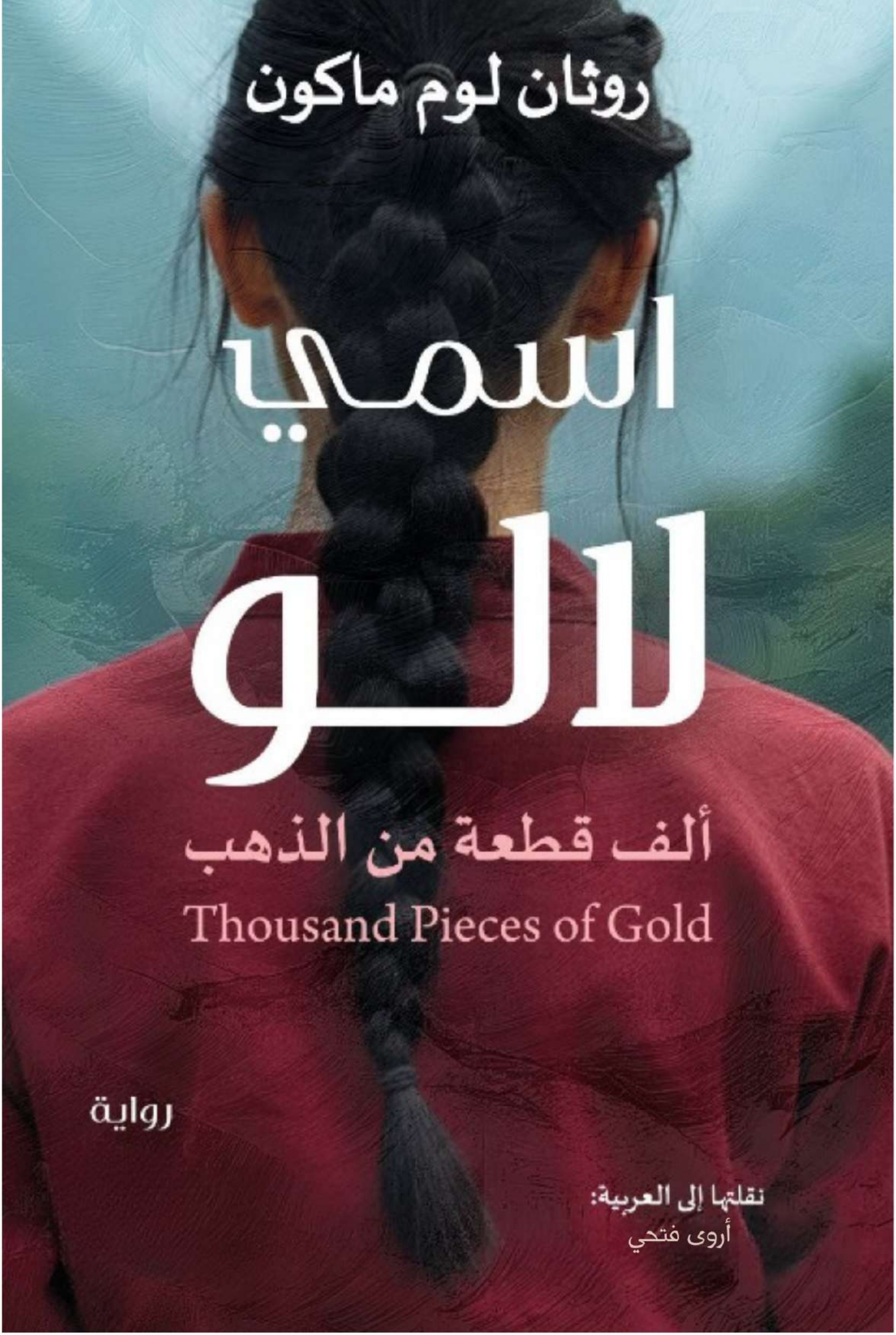


روثان لوم ماكون

اسمي لالو

ألف قطعة من الذهب

Thousand Pieces of Gold

رواية

نقلتها إلى العربية:
أروى فتحي

Thousand Pieces of Gold

Ruthanne Lum McCunn

ألف قطعة من الذهب

روثان لوم ماكون

ترجمة

أروى فتحي

لا يوجد تاريخ،

بل قصص خيالية بدرجات متفاوتة من الحقيقة.

— فولتير

مقدمة المؤلفة

في عائلة والدتي الكبيرة والممتدة في هونغ كونغ، كنت أشعر بالحب والتقدير عندما كنت أُدعى بـ«ألف قطعة من الذهب»، وهو مصطلح صيني يُستخدم للتعبير عن المودة للبنات. لكن عندما لاحظت المعاملة التفضيلية التي يحظى بها الأبناء، وجدت المصطلح مثيرًا للسخرية. وعندما كنت أحلم بأن أصبح كاتبة، تخيلت أن كتابي الأول سيكون... ألف قطعة من الذهب، قصة جدتي الكبرى الحبيبة، التي وُلدت في شمال الصين وبيعت كعبدة خلال اضطرابات تمرد تاي بينغ.

بحلول الوقت الذي بدأت فيه الكتابة بجدية، كنت أعيش في أمريكا لأكثر من عقد من الزمان. أصبحت اهتماماتي تتجه بشكل متزايد نحو ما وراء المحيط الهادئ، وعندما صادفت بولي بيميس الأسطورية من ولاية أيداهو، والتي بدأت حياتها باسم لالو ناثوي في شمال الصين، شعرت بارتباط فوري بها.

لكن لكتابة كتاب عنها، كان عليّ أن أبحث في حياتها، ولم يكن لدي أي تدريب، وخبرة قليلة جدًا.

«لا تقلقي»، طمأنني أحد العرافين. «إنها تمسك بيدك».

روثان لوم ماكون

سان فرانسيسكو، 2015

الجزء الأول

١٨٦٥-١٨٧٢

Part One



1865–1872

الفصل الأول

كانت الأمسية تبدو عادية مثل كل يوم.

في الفناء، بين المراحيض وحفرة السماد، انحنت لالو فوق حوض خشبي، تفرك قدور العشاء وصحونه. وفي الزاوية المقابلة، عند باب المطبخ، اتكأ أبوها على جدارٍ آجريٍّ آيلٍ للسقوط، ضفيرته ملفوفة بإتقان فوق وجهٍ لوّنته الشمس، وغليونه يتصاعد ببطء. وعلى مقعدٍ واطئ إلى جواره، كانت أمها تُرضِع الصغير، فيما كان آكاي، أخوها الأصغر، يعبث بالأرض الصلبة تحت قدميها، يخُطّ فيها أحرفًا جديدة، مزهوًّا بما يصنع. غير أن لالو، وهي تفرك وتشطف بأسرع ما تطيقه أصابعها، كانت تعلم يقينًا أن شيئًا في هذا المساء ليس ككل مساء. فقد كان عدد الأطباق والقدور التي تغسلها أكبر من المعتاد، والعشاء الشهي ما زال طعمه عالقًا على جوانب فمها. كانت على يقين أن معدتها لن تعرف الجوع في العام المقبل، وشعرت بحالة الترقّب الخافت الذي يشتركون فيه جميعًا. فقد كان الحصاد استثنائيًّا، الأفضل في سنوات لالو الثلاث عشرة كلها. داخل البيت، كان الرَّف المعلّق فوق السرير الآجُرّي قد انحنى تحت ثقل البطاطا الحلوة المخزونة. كما كانت الجرار الفخارية الضخمة في المطبخ تغصّ بالخضر المملّحة. وجميع السلال فائضة بشرائح الفاصولياء اليابسة واللفت. كانت حزم من عروش الفول السوداني والبطاطا الحلوة، وسنابل الدخن، تغطي نصف المطبخ في أكداس أعلى من قامة لالو.

وأحسن ما في الأمر، ذلك الذي في مخبئهم خلف الموقد...

وثبت لالو على قدميها، مفزعة الدجاجات التي كانت تنقر وتخمش الأرض حولها، فانطلقت في صياح عالٍ. لوهلةٍ تمايلت على قدميها الصغيرتين الملفوفتين، طول كل منهما أربع بوصات لا أكثر. ثم ما لبثت أن استعادت توازنها، أعادت الأطباق والقدور إلى رفها في المطبخ، أفرغت ماء الغسيل في المصرف المفتوح خلف المراحيض، وجلست على المقعد في مواجهة أبيها. قالت: «بابا، نسيم الخريف بارد. لا بدّ أن الوقت تأخر».

ابتسمت أمها، ولمعَت عينا أبيها وهو يسحب نفسًا عميقًا، ثم يدفع الدخان خارجًا من أذنيه في نفثات صغيرة. ضحكت لالو، لكنها لم تَدَع نفسها تُشتَّت، فقالت: «انظر، أول نجمة ظهرت، وأسمع أزيز البعوض».

غمزت آكاي، فانطلق يدور حولهما في دوائر مجنونة، وذراعاه تدوران كالمروحتين. ارتبك الرضيع آفا، من الحركة والصخب المفاجيء وانقطع عن الرضاعة، ناظرًا حوله في حيرة. خطفتْه لالو بين يديها، واستدارت به حول أبيها، تهدهده وتدندن وتلوّح به حتى تحوّل عبوسه المرتبك إلى ضحكات مبتهجة.

وضع أبوها غليونه وهو يضحك. قال: «كفى، كفى». ولوّح لآكاي بيده في مزاح. «لندخل الآن».

دخلت لالو، وهي تقذف الطفل في الهواء في انتصارٍ مرح، خلف أبيها وأمها وأخيها إلى المطبخ.

قال آكاي: «دعوني أنا أحفر».

ناولته أمه المغرفة المعدنية. قالت: «انتبه. لا تكسر الوعاء».

هزّت لالو الطفل لتسليه، ونقلت ثقلها من قدم إلى أخرى. قالت: «ماذا لو أن أحدهم سرقه ونحن في ساحة الدّراس؟».
وَضعت أمها يدًا على فم لالو. قالت: «إياك أن تقولي مثل هذا الكلام».
تمتمت لالو من خلف أصابع أمها: «إذًا أين هو؟».
أشرف أبوها فوق كتف آكاي. قال: «إلى اليسار قليلًا. أحسنت. الآن إلى أعلى بعض الشيء».
صاح آكاي: «أشعر به».ثم نهض، وجهه محمرّ، مخطّط بالسخام، وهو يحتضن في فخر الوعاء المخبأ المليء بالقطع المعدنية.
قالت لالو: «دعني أعدّه أنا».
قال آكاي: «لا، أنا. أنا أذهب إلى المدرسة، وأنتِ لا تذهبين».
قالت: «لكنني أكبر منك».
قالت أمهما: «شش. لا خصام ولا دموع، حتى لا تجلبوا النحس». وأخذت الوعاء من آكاي. ثم قالت: «إذا أردتما لأسرتكما ثورًا كبيرًا، وبغلًا قويًا، وحمارين، وثلاثة أو أربعة بيوت جيدة، وقطعًا كثيرة واسعة من الأرض، فعليكما أن تتعلما العمل بجدّ مثل أبيكما. هذه النقود جناها بمهارته وتعبه.
وهو من سيعدّها».
ناولت الوعاء لزوجها، بينما وجهها يشعّ فخرًا وسعادة. راحت يداه البنيّتان الكبيرتان، اللتان أَلِفتا مقبض المحراث، تضطربان قليلًا وهما تتناولان القطع النحاسية، يعدّها واحدةً بعد أخرى، ويرتبها في أكوامٍ من عشر قطع. وعلى حين غرة، مدّ الرضيع آفا يده وأسقط الأكوام.

قالت أمه: «لا، لا». وأخذته من بين ذراعي لالو. «هذه النقود ليست للعب. سنستخدمها لنشتري مُوَين[1] آخرين من الأرض».

قال آكاي: «وبقرة أيضًا، حتى أذهب إلى المرعى مع الأولاد الآخرين؟».

ضحكت أمه وقالت: «نعم، وبقرة أيضًا. ولكن ليس من أجل أن تذهب إلى المرعى. فالفلاح الذي يملك اثني عشر موًّا من الأرض لا ينبغي أن يستعير بقرة للحرث».

سألت لالو «أحقًا يا بابا؟ لدينا مال يكفي للأرض والبقرة معًا؟»

قبض الأب على العملات بكفيه المفتوحتين كمن يختبر وزنها، بينما عيناه تلمعان ببريق محموم قال: «لن نشتري أرضًا ولا بقرة.. ليس بعد. بهذا المال، سأستأجر كل ما يمكنني من أرض وأزرع قمحًا شتويًا، والمال الذي سنجنيه سيجعلنا من الأثرياء».

شهقت لالو، فوحدهم كبار الملاك الذين يقوون على تحمل الخسارة هم من يزرعون القمح الشتوي.

اشتد ضم الأم لآفا حتى بدأ يبكي، وهمست: « لا يمكن أن تكون جادًا».

«ولم لا؟»

«لأن هذا جنون! لقد شددنا الأحزمة، وادخرنا أربع سنوات لنوفر المال، والآن تريد أن تقامر به!»

---

[1] مو: فدان. المترجم

ضمت لالو شقيقها آكاي الذي بدأ ينتحب، وتراجعا معًا للوراء، بينما كان صوت أبيها يعلو فوق عويل الرضيع.قال: «أربع سنوات من الكد والحرمان لنشتري فدانين وبقرة صغيرة! وقبلها ست سنوات لفدان واحد! وسنتان لحمار! القمح الشتوي هو أفضل محصول على الإطلاق؛ حصاد واحد ناجح وسنشتري خمسة أو ستة فدادين، وعلى رأسهم ثورًا».

«وماذا لو بار المحصول؟»

«لن يبور، أشعر بالحظ يحالفني».

«هذا ما يقوله المقامرون في الحانات بينما تتسول نساؤهم وأطفالهم في الشوارع بخرق بالية!». جذبت آكاي من يد لالو ورفعته هو والرضيع الباكي أمام والدهما: «فكر في أبنائك.. ماذا ستترك لهم؟»

قال حاسمًا: «المزرعة شأني أنا، لا شأنك أنتِ. ولن أسمع كلمة أخرى في هذا الأمر».

ومنذ تلك الليلة، لم يجرؤ أحدٌ منهم على التحدّث عمّا يفعله أبوها أو تشين، أجيره الجديد، كل يوم في الحقول. غير أنّ لالو كان يخيل إليها أنّ القرويين، في الحوانيت، وعند جدران السدّ، والآبار، وفي الحقول، لا يتحدّثون إلا عن هذا الأمر. حتى هنا، على ضفة النهر، حيث جاءت لتغسل حفاضات الطفل المتّسخة، كانت تسمع أصواتهم تتسرّب من الساحة التي يجتمعون فيها للتدخين، ونسج معاطف المطر القشّية، وجدْل السلال، وإصلاح أدواتهم. ولم يكن ثمّة مهربٌ من أحاديثهم.

قال أحدهم: «هل سمعتم بما فعل ناثوي؟».

«أتعني ذلك الأحمق الذي استأجر كل تلك الأرض ليزرع قمح الشتاء؟»

«لقد أنفق كل مدّخراته، بل ورهن مزرعته أيضًا».

ضربت لالو الخِرق على الصخور، راجية أن تطغى صفعات القماش المبلل على أصواتهم.

قال صوت ثالث: «أيُّ مغفل يغامر بمزرعته في مقامرة كهذه؟»

أجابه آخر: «من يدري؟ ربما فكرته هي الصواب. لقد اخضرّت حقوله بالفعل ببذورٍ نابتة».

«نعم، ومطر الأمس كان مثاليًا. ليس غزيرًا، لكنه وفير. تمامًا كما تحتاج الشتلات لتنمو قبل أول ثلج».

«لكن ماذا لو لم يهطل مطر كهذا؟ إن ظلّ الجو جافًا، ولم تنمُ الشتلات بما يكفي قبل أول ثلج؟»

«أو ماذا لو نمَت، ولم يأتِ الثلج أصلًا؟»

«أو لو لم يكن الثلج كافيًا ليغطي القمح ويحميه حتى الربيع؟»

«أو هطل مطر بارد ممزوج بالجليد، من ذلك النوع الذي يقتل الشتلات العارية من الحماية؟»

هجمت الاحتمالات السيئة على لالو الواحد تلو الآخر، فتراجعت إلى الوراء على عقبيها، وشعرت فجأة بالشلل نفسه الذي قبض على قلبها يوم قصّ أبوها حكاية قو جُو، الابن البار.

قال أبوها يومها: «كان قو جو فقيرًا. شديد الفقر، لا يقدر على إطعام أمه وزوجته وطفله. فقال لزوجته: الطفل يأكل الطعام الذي تحتاجه أمي. تعالي نقتل الطفل، فبإمكاننا أن نُنجب غيره، أمّا إن ماتت أمي، فكيف نعوّضها؟ لم تجرؤ زوجته على معارضته، وبدأ قو جو يحفر قبرًا. وفجأة اصطدمت معوله بجرّة مدفونة عميقًا في الأرض، تحطمت، وانهمرت منها مئات القطع الذهبية، هدية من السماء لغوه جو الابن البار».

سألت لالو يومها: «وماذا لو لم يكن هناك ذهب؟»

قال أبوها: «كان هناك ذهب. أكثر من كافٍ لبقية حياتهم».

ألحّت: «لكن ماذا لو لم يكن؟ هل كان سيقتل طفله؟»

قالت أمها: «إنها حكاية من حكايات البرّ بالوالدين الأربعة والعشرين، لتعلّمنا أن علينا إكرام والدينا وبذل كل ما نستطيع لإسعادهم وتيسير حياتهم».

قالت لالو: «وهل كنت ستقتلني؟»

وضع أبوها السلة نصف المنسوجة جانبًا، وقرص خدّها قائلًا: «بالطبع لا. ألستِ «قَيّانجِن»[2]، ألف قطعة من الذهب خاصتي؟»

ثم داعبها حتى ضحكت وهي تجيب: «نعم، نعم، نعم».

---

[2] قَيّانجِن: كنز. المترجم.

ألقت لالو بقطعة القماش التي عصرَتها للتو في الماء المثلّج. شعرت أنها حمقاء. ما شأن تلك الحكاية القديمة بما يحدث الآن؟ وعلى أي حال، ألم يعترف المزارعون للتو بأن والدها قد يكون على حق؟ وأنه قد ينجح؟

ارتفع صوت أحد المزارعين فوق أصوات الآخرين: «أتفهّم أن ناثوي يخاطر بمدخراته، لكن أن يرهن مزرعته أيضًا!»

قال آخر بسخرية: «من حسن الحظ أن ابنته جميلة جدًا».

«ممم. إنها في السن المناسبة تمامًا لتجلب ثمنًا جيدًا».

ردّ ثالث: «لا تكن سخيفًا. ناثوي لن يبيعها. عندما ماتت ابنته الكبرى بالجدري، ناح عليها كما لو كانت ابنًا ذكرًا».

وأضاف آخر: «وعندما خسر بان جميع خنازيره العام الماضي وأراد بيع أصغر بناته ليشتري أنثى خنزير جديدة للتكاثر ،حاول ناثوي إقناعه بالعدول عن ذلك».

«لا، لن يبيع لالو أبدًا... كنزه، ألف قطعة من ذهبه».

«وهل كنتم تظنون يومًا أنه سيخاطر بكل ما يملك من أجل محصول قمح الشتاء؟»

الفصل الثاني

استمرت العاصفة الشتوية، التي عصفت لما يقرب من أسبوع، في هزّ الورق الذي يغطي النوافذ. أما المطر، الذي تسلل عنوةً عبر السقف المصنوع من القش وأغصان الصنوبر، فقد حفر في الأرضية الترابية بركًا طينية صغيرة. وراح اللهب يتراقص مرتعشًا في المصباح الوحيد، الذي لم يكن سوى طبق يكاد يخلو من زيت الفاصوليا، ملقيًا بظلال غريبة.

جلست لالو على «الكانغ[3]» الذي يملأ نصف الغرفة، وأخذت ترتجف. عيناها حمراوان دامعتان من الدخان المتسرِّب عبر الأنفاق التي تصل موقد المطبخ بالمدخنة، فأسقطت الإبرة والثوب من بين أصابعها، وفركت جفنيها بقبضتيها. في الجهة المقابلة، كانت أمها جاثيةً على ركبتيها، صلبةً كأنها حجر، أمام المذبح الأحمر المذهَّب للإلهة قوانيين، إلهة الرحمة.
تساءلت لالو في سرّها: أيمكن للإلهة حقًا أن تُنقذ قمح أبي؟
قبل قليل، حين كانت أمّها تشعل عودًا آخر من البخور، تجرّأت لالو وقالت إن قريتهم صغيرةٌ جدًّا وبعيدةٌ في الشمال، إلى حدٍّ لا تبلُغ معه صلواتُهم آذانَ الآلهة. فما كان من أمّها إلا أن طرقت جبهتها بالأرض الطينيّة، منتحبةً بصوتٍ عالٍ تستعطف السماء أن تتغافل عن كلام ابنتها التي كان ينبغي لها أن تعرف إن آلهة السماء عليمةٌ بكل شيء، حتى بما يقع في أبعد أركان الصين.

---

[3] الكانغ»؛ سرير من الطوب المسخَّن.المترجم

ثم استدارت إلى لالو وقالت: «نحن نعيش من نِعَم السماء، وقوانيين تعرف ذلك. ألم تكن هي التي أشفقَت على قوم الهان يوم كانوا يعيشون على الصيد والالتقاط؟ لمّا رأتهم يهلكون جوعًا لأن سنابل الأرز كانت خاوية، تسلّلت خفيةً إلى الحقول، وعصرَت ثدييها حتى سال لبنها في آذان الأرز. وحين كادت على النهاية راحت تضغط بقوةٍ أكبر حتى اختلط اللبن بالدم، ومع هذا لم تتوقف حتى امتلأت كلّ سنبلة».

تمدّدت لالو على السرير، حريصةً ألّا تُوقِظَ أخويها الصغيرين النائمين عن يمينها ويسارها. لو كانت إلهةً مثل قوانيين، لفعلت ذلك كلَّه بحركةٍ واحدة من معصمها؛ لملأت سنابل الأرز الخاوية، وأوقفت هذه العاصفة في الحال، وأعادَت زرع حقول القمح التي جرفها الماء أو مزّقتها الريح. ثم لجعلت حصاد القمح من الوفرة بحيث يصبح أبوها أغنى رجلٍ في القرية كلّها. لا، ليس القرية وحدها، بل المقاطعة بأكملها. انشقّ البابُ فجأة، فاندفع إعصارٌ من الريح والمطر وأطفأ آخرَ بصيصٍ من الضوء. في العتمة سمعت لالو أمّها تنهض وتنسلّ، رشيقةً متمكّنة كقطٍّ يعرف طريقه في الليل، إلى المطبخ. أحسّت برشّة ماء بارد، حين هزّ أبوها عباءة المطر المصنوعة من القش، تاركًا إيّاها تسقط على الأرض الموحلة بخريرٍ ثقيل. اختلطت رائحة الثياب المبتلّة بالعبير اللاذع للبخور. شمّت لالو رائحةً أخرى؛ رائحة خمر «كاوليانغ» المغليّة، تلك التي يقدّمها أبوها لأسلافه في أيام الأعياد، وتلك نفسها التي يحتسيها المقامرون الخاسرون لينسوا ما فقدوا.

رجعت أمّها، فاشتعلت الغرفةُ نورًا. رمشت لالو. رأت أباها واقفًا في وسط الغرفة، الماءُ يقطُر من ثيابه، ضفيرته الطويلة محلولة، معطفه المبطن وسرواله غارقان في الطين، عالقٌ بهما قمحٌ مقطوعٌ وأغصانٌ مهشَّمة وأوراقٌ ميتة. قال بصوتٍ عميق كأنما يخرج من بئر: «كل شيء ضاع».

ردّدَت الأمُّ كمن لا يصدّق: «ضاع؟».

«أجل، كل شيء. حتى ما خصصتُه لضريبة الأرض».

هَمَست الأم بصوت مرتعش: «وماذا سنفعل؟».

من تحت اللحاف، رأت لالو أنّ همسة أمّها الخائفة أوقعت في نفس أبيها من الهلع ما أوقعَته فيها هي نفسها؛ فمنذ أن تَذكر، لم ترى على أمّها ظلّ تردّدٍ، كانت دائما على يقين أنّهم سينجون بطريقةٍ ما.

قبل سنوات، حين غادر أبوها إلى منشوريا، يحلم أن يعود مثل الشيخ يانغ وحزامه ممتلئٌ ذهبًا، كانت أمّها هي التي أقنعت لالو بأنّه سيعود، مع أنّ كلَّ زقاقٍ في القرية كان يضمُّ بيتًا واحدًا على الأقلّ اختفى منه زوج أو أب أو ابن في ذلك الشمال المتوحش، ولم يرجع قطّ. ثم، في سنة المجاعة التي تلت عودته، وقد رجع رثَّ الثياب مكسورًا، كانت أمّها تهدّئ أمعاءهم الخاوية بكُراتٍ صغيرة من عجينٍ مخمَّر تنتفخ في بطونهم فتُوهمهم بالشبع. وحين استدانوا قطيعًا من الدجاج للفقس وسرقه اللصوص عن آخره، اكتفت بقرص وجناتهم الواجمة وقالت: «السماء وهبتنا الحياة، والسماء ستهبنا القوت. سنتدبّر الأمر».

في كل محنة، كانت «سنتدبّر الأمر» التي تُطلقها أمّها بثقةٍ راسخة هي الجسر الذي يعبرون عليه. فلماذا سكتت الآن؟

همسَت لالو: «ماما؟».

في لحظةٍ خاطفة التقت عينا الأمّ بعيني ابنتها، وقبل أن تعود إلى موضعها أمام المذبح وتخرّ ساجدة، فهمت لالو سبب الصمت.

في المرّات السابقة، كانوا، بطريقةٍ ما، يوفّقون إلى جمع ضريبةِ الأرض. هذه المرّة، مع ثقل الرهون على مزرعتهم، ومع الحقول الإضافيّة التي استأجرها أبوها، لن يستطيعوا ذلك. إلا إذا... ماذا قال الفلّاحون؟

«من حسن الحظ أن ابنته جميلة». «في السنّ المناسبة لتجلب ثمنًا طيبًا».

أبوها سيبيعها. وأمّها، مثل زوجة ڤُو جو، لن تجرؤ على الاعتراض؛ لأنّ عجزه عن دفع الضريبة يعني السجن، وسجنه يعني جوع الجميع.

كلّ ما تربّت عليه لالو من فضائل المرأة الأربع كان يقول لها إن عليها أن تقبل بما كُتب؛ أن تباع لتعيش الأسرة. ومع ذلك، كان عقلها يركض كفأرٍ محاصر يبحث عن ثغرةٍ في الجدار. لا بدّ من طريقٍ آخر.

خرجت من تحت اللحاف على مهل. قالت برجاءٍ لا يكاد يُسمَع:

«يمكننا أن نبيع الحمار».

تنهد أبوها تنهيدةً ثقيلة: «أنت لا تعرفين عمّا تتكلمين».

قالت، متشبثةً بالخيط الأخير: «وإن لم يكفِ، تقترض الباقي من شي».

زمجر: «من شيّ سلاخ الجلد؟ وكيف أسدّد لذلك المِمصِّ لدماء الناس؟».

ابتلعت ريقها. كانت تقاتل من أجل حياتها، وهو يعرف ذلك؛ ولهذا يسمح لها بالكلام. قالت: «يمكنك أن تصرِّف تشين العامل».

«مع كل هذه الحقول التي استأجرتُها؟ مستحيل».

«آكاي يترك المدرسة ويساعدك».

قال بحدةٍ مشوبة بالعجز: «هو في الثامنة فقط، لا يصلح إلا لأعمال الصبيان».

هبطت لالو عن السرير، ووقفت أمام أبيها مباشرة. قالت: «أنا لستُ صغيرة. سأعمل معك».

مسّد أبوها الخصلات المنفلتة على جبينها، لمستُه ملأى بالأسى. قال: «يا ألف قطعة من الذهب، أنت تعرفين أنّ النساء في هذه الناحية لا يخرجن إلى الحقول. هذا من عمل الأبناء».

قالت: «ولكنهن يخرجن وقت الحصاد».

ردّ بصوتٍ أثقل من الطين: «ذاك أمرٌ آخر. وحدهم الأبناء يُصبحون فلاحين».

«لن أكون فلاّحة، بل مساعدتك فقط، إلى أن يكبر آكاي».

قال، كأنما يُحاكِم نفسه: «سنصبح أضحوكة القرية كلها».

همست، وقد سبقت كلماتُها لسانَها: «نحن كذلك بالفعل».

نادِمةً، دفنت رأسَها في صدر أبيها. انتشر ماءُ ثيابه المغمورة بالمطر على ثوبها، باردًا قاسيًا، لكنها لم تشعر إلا بخفقان قلبه العنيف تحت خدِّها.

قالت بصوت مكسورٌ بين الرجاء والخوف: «بابا، أتوسّل إليك. دعني أساعدك. لا أريد أن أُساق...». توقّفت؛ عجزت عن لفظ كلمة «أُباع»، فتمتمت أخيرًا: «لا أريد أن أرحل».

ارتجفت العضلات فوق فكيه المشدودين، وساد لحظةً طويلةً لم يُسمَع فيها غير عواء الريح وهسيس المطر. قال: «وماذا عن[4] لوتسك الذهبي؟».

خفضت لالو بصرها إلى قدميها. عامين كاملين، كانت أمها تلفّ شريطة القماش البيضاء الطويلة حول كل قدم، تشدّها دورةً بعد دورة، تطوي أصابعها تحت باطنها، ثم تدفع القدم إلى الوراء حتى تحوّلت إلى قوسٍ صغير. لم تغدُ رقيقةً صغيرة مثل أقدام بنات الأسر الغنيّة اللواتي لا يُطالِبن بالمشي أصلًا، لكنها صارت عديمة الجدوى لأيّ عملٍ شاق.

اقتربت الأمّ ووقفت إلى جانب ابنتها. قالت في هدوءٍ حاسم: «سأفكّها».

تلعثم الأب: «وهل هذا ممكن؟».

قالت: «سنجعله ممكنًا».

4 اللوتس الذهبية: عادة قديمة انتشرت في الصين لقرون، تقوم على ربط أقدام الفتيات منذ الطفولة المبكرة ربطًا قاسيًا ومؤلمًا، بهدف إيقاف نمو القدم وإبقائها صغيرة جدًا، دلالة على الأنوثة والرُقيّ. المترجم.

في تلك الليلة، في سكونِ الفجر الذي يسبق انطفاء العاصفة، زحفت لالو تحت اللحاف، ومدّت يدها تتحسس قدميها الصغيرتين، لا أكبر من فرخي عصفور وليد. تذكّرت على نحوٍ باهت زمنًا كانت فيه خطوتها أوسع من بضع بوصات مهذّبة، كانت تهرول عبر المرعى، تطارد الريح بطائرة ورقية.

تُراها تُصبح مرة أخرى قدمين كبيرتين قويتين؟

أحاطت بهما بكفّيها، كما أحاطت في الربيع الماضي بذلك العصفور العاري الريش الذي وجدته يرتجف.يومها قال لها أبوها إن موتَه محتوم، وإن عليها أن تُغرقه لتختصر عذابه. فأطاعت، وغمرته في وعاء الماء. انفتح منقاره وانغلق بلا صوت وهو يُصارع الهواء، وكانت جناحاه العاريان يخبطان بيأسٍ في قبضتيها. أفلَتته، ولكنه كان قد فات أوانُه؛ لم يستطع أن يرتفع فوق سطح الماء، وشيئًا فشيئًا تحوّلت ارتجافاته إلى رجفاتٍ ضعيفة، حتى هدأت تموّجات الماء واستوى ساكنًا كالثلج.

تساءلت، وهي تضمّ قدمَيها إلى صدرها: أترى فات الأوان عليها هي أيضًا؟

الفصل الثالث

«لالو.»

استدعاها صوت أبيها.

اعتدلت لالو من بين صفوف الدخن التي كانت تُرَقِّق نباتاتها، جذبت سترتها الملتصقة ببدنها من عرق النهار، ومسحت جبينها بكمّها. ظلّت بكفها على عينيها من وهج شمس العصر، وحدّقت نحو أبيها.

قال وهو يشير إليها: «احملي حُزمة الحطب التي جمعها آكاي إلى أمّك.»

قال آكاي متحمّسًا: «أنا آخذها يا بابا.»

رفض الأب في حدّة لطيفة: «لا، يجب أن نفرغ من هذه القطعة اليوم.»

في كلّ يوم كان أبوها يخترع عذرًا جديدًا ليبعث بها إلى البيت مبكّرًا، كي لا تخالط سائر الفلّاحين عند انصرافهم من الحقول، وكانت لالو تعلم أنّ من العبث أن تعرض أن تبقى في مكان أخيها. ومع ذلك جرّبت حظّها:

«آكاي متعب، وأنا ما زلت قوية.»

أجابها في اقتضاب: «أمّك بحاجة إليك.»

«حسنًا، يا أبتاه.»

ربّتت لالو على خدّ أخيها الصغير في حنوّ، ثم وضعت محراثها على العربة ذات العجلة الواحدة، ورفعت فوقه حزمة الحطب، ودفعت العربة هابطة من سفح الحقول المدرّجة نحو القرية.

امتدّ أمامها بساط من الحقول، رقعة رقعة؛ خضراء وبنيّة وصفراء، تغصّ بالفلّاحين وأبنائهم والأُجراء الذين يعملون معهم. عند الضفاف المظلَّلة بالصفصاف كانت النساء يغسلن الثياب في مياه السواقي، وعلى الجسر الترابي جلس العجائز مسندين ظهورهم إلى السدّ، يغتسلون بالشمس، يتبادلون الحكايات ويرقبون أحفادهم وهم يلعبون عند أقدامهم. كانت لالو تسمع ضحكات الصغار، ونداءات الباعة الجائلين ينادون ببضاعتهم، ومع كلّ هبّة هواء تصلها رائحة الدخان المتصاعد من عنقود البيوت الطينيّة.
غير أنّ ما لا يُرى هو الذي كان يفضح حقيقة القرية كما هي. البقر والبغال والحمير مخبوءة بعناية خوف غارات اللصوص. وجباه الزوجات مقطّبة وهنّ يقدّرن نصيب كلّ وجبة من الزاد الشحيح، علّ الطعام المدخّر بشق الأنفس يكفي حتّى موسم الحصاد. وعُقَدٌ من التوتّر تتصلّب في ظهور الفلّاحين السمراء من شمس الحقول، وهم يدركون أنّ كلّ جهدهم يمكن أن يُجتاح في لحظة، ويصبح هباءً منثورًا بطوفان أو قحط أو غارة لصوص أو سرب جراد.

منذ أن تعلّمت لالو المشي وهي تعمل؛ أوّل الأمر كانت تتبع محرات أبيها لتسقط حبّات فول الصويا في الأخاديد، ثم حين كان يغرس فسائل البطاطا الحلوة كانت تملأ الحفر بالماء وتطمر التربة حول الفسائل حتى لا يَبقى ظاهرًا سوى ورقة واحدة. أمّا في مواسم الحصاد فكانت تنظّف البطاطا الحلوة لأمّها لتقطّعها وتجفّفها، وتلتقط حبّات الفول السوداني من عروقها.

وحتى خلال السنتين اللتين قُيِّد فيهما قدماها للربط، حين عجزت عن المشي، لم تعرف الكسل؛ تعلّمت الخياطة والغزل والنسج. وبعد أن صارت قدماها «لَوتَسًا» صغيرتين بطول أربع بوصات، فلم يُسمح لها بعد ذلك بالعمل في الحقول، ساعدت أمّها في أعمال البيت، عدا أيّام الحصاد؛ إذ كانت تنضمّ إلى النساء والفتيات في درس القمح والدخن، وقطف الفول السوداني، وتجهيز البطاطا الحلوة واللفت والكرنب وغير ذلك من الخضروات للتخزين. كانت تظنّ أنّ العمل كأجيرة لأبيها لن يكون أشدّ من ذلك، فاكتشفت خطأها.

حاولت أمّها أن تجعل فكّ الرباط عن قدمي لالو أهون ما يمكن؛ راحت ترخي العصابات شيئًا فشيئًا، وتُنقِع القدَمين، وتدلّكهما، وتحشو القطن بين الأصابع لتعود فتتمدد، ولكن الأصابع لم تَنبسط على استقامتها قبل موسم الحرث.

كانت تعضّ شفتيها كاظمة الألم بينما تحمل دلاء السماد الثقيلة إلى الحقول حتى تورّمت قدماها، ثم، إذ لم يكن عند أبيها حجرٌ يُدحرَج لتسوية الأرض كي تجد الشتلات الصغيرة تربة صلبة تستقرّ فيها، راحت تدكّ التراب بقدميها المنتفختين. وفي الليل، حين تحلّ الرباط المرتخي، كانت رائحة اللحم المتفسِّخ تكاد تصيبها بالغثيان، فتزهد في الطعام. ولكن أرض محصول الفول السوداني كانت بحاجة إلى تسوية وتصلّب، والحوائط الترابيّة كان لا بدّ من رفعها لفسائل البطاطا الحلوة، وحديقة الخضار كان عليها أن تُخطّط. ثم تأتي مرحلة تنقية الشتلات الصغيرة وترقيقها من الزائد، ويظلّ الماء لا ينقطع؛ لا بدّ من حمله على الدوام من النهر إلى الحقول.

وحين اقتربت أمّها، وقد أثقلها الحَمل من جديد، من ميعاد الوضع، أضيفت أعمال البيت كلها إلى نصيب لالو، فهذه الأعمال كما كان أبواها يقولان لا تليق بآكاي، الابن الذكر.

الآن، وقد خبرت لالو أنّ أصابع قدميها لن تستلقي أبدًا استلقاءً تامًّا، كانت القروح قد تحوّلت إلى قَسَوات؛ وسيرها، وإن ظلّ مائلاً متمايلاً، لم يعد يورثها إلاّ شعورًا بالرضا في سنتها الثانية في الحقول. كانت تُصغي بكلّ جوارحها حين يشرح لها أبوها كيف تُسمّد الأرض كما ينبغي، وكيف تُزرع فسيلة البطاطا الحلوة زرعًا صحيحًا، ويملؤها الفخر حين يأتمنها شيئًا فشيئًا على الأعمال التي تحتاج إلى يد خبيرة واعية. بل كان يدهمها أحيانًا إحساس بالذنب لأنّها تكاد تفرح في سرّها بفشل القمح، لشدّة حبّها لكلّ ما يتعلّق بالزراعة: إعداد الأرض، والغرس، والتربية الحريصة للنبات...

«هسّ...»

انتفضت لالو. قفز آكاي من وراء تلّة إحدى القبور، وتسلّق العربة ذات العجلة الواحدة، واستدار كرةً صغيرة خلف حزمة الحطب.

قالت لالو باستغراب: «ما هذا...؟»

أجابها وهو يهمس في لهفة: «هربت من الحقل واستدرت من بين الحقول قبل أن ينتبه بابا. خذيني من خلف المعبد كي لا يراني.»

قالت زاجرة، وفي صوتها قلق حقيقي: «الأفضل أن تعود سريعًا قبل أن يفتقدك.»

تدلّل آكاي متجهّمًا: «لا أجد وقتًا ألعب فيه مع أصدقائي أبدًا.»

حاولت لالو أن تقسو في ملامته، غير أنّ وجهه الصغير المبتلّ عرقًا، المخطّط بالتراب، وشفتاه المتدلّيتان كفّتا ميزان، جعلا طرفَي فمها يرتعشان ابتسامة.
قالت: «بابا سيغضب غضبًا شديدًا.»
ردّ في ثقة: «أنت تستطيعين أن تُرضيه، كما تفعلين دائمًا.»
ضحكت، وهي تدرك أنّ أخاها الصغير انتصر عليها مرّة أخرى. «حسنًا، تمسّك جيّدًا.» قالت ذلك، ثم اندفعت هابطة السفح في عدْوِها المتمايل الغريب، والعربة ذات العجلة الواحدة تتقافز فوق الحُفَر صاخبة، وجديلتها الغليظة الطويلة تمتدّ خلفها كذيل حصان.

اندفعت لالو إلى داخل الدار مبهورة الأنفاس، ما زالت نشوة الجري تسري في عروقها. عند الموقد، كان وجه أمّها محمّرًا يلمع بالبخار المتصاعد من القدور، فقطعت الأغنية الشعبية التي كانت تدندن بها لآدا، الرضيع المربوط إلى ظهرها، وسألت: «هل رأيتِ آكاي خلف المعبد؟»
دافعت لالو سريعًا: «إنه متعب.»
زوّدت أمّها النار بحزم من أعواد الغَاوْليانغ، وقالت: «ولكنه ليس متعبًا حين يتعلّق الأمر باللعب مع أصدقائه. إنتِ تدلّلينه.»
دخل آفا مترنّحًا من الفناء، يجرّ قدميه بخطواته الأولى، وجذب طرف بنطال لالو وهو يقول: «ماما عندها مفاجأة لكِ.» رفعت لالو أخاها الصغير عاليًا وعانقته، وقرصت ساقيه اللتين تبرزان من البنطال المشقوق عند الخلف، وقالت مازحة: «همم، إنت تسمن، تسمن بما يكفي لنأكلك.» ثم التقطت قضمة هازلة في فخذِه.

ركلها بقدميه وهو يلحّ: «تعالي انظري! تعالي.»
أنزلته على الأرض. «نرى ماذا؟»
قال في زهو طفولي: «هنا، انظري.»
جرّها إلى الفناء وأشار إلى الطاولة الخشبيّة المنصوبة لاثنين، وقال منتشيًا: «من الآن فصاعدًا ستأكلين مع بابا. هكذا قالت ماما.»
كان أبو لالو، شأنه شأن سائر الرجال، يُطعَم أوّلًا قبل زوجته وأطفاله، ويُجعل له أفضل ما في الطعام. وحين كانت لالو صغيرة وسألت عن السبب، أجابتها أمّها: «الرجال أعمدة البيت، ونحن نعتمد عليهم في حياتنا، فلا بدّ أن يُطعَموا جيدًا.» والآن، ها هي لالو تُدعَى إلى المائدة معه أوّلًا!
امتلأت عيناها بالدموع. لم يعد يعنيها ما يقوله الفلّاحون عن أبيها، إنّه يقلب السماء والأرض رأسًا على عقب إذ يسمح لابنته أن تعمل إلى جواره في الحقل، ولا ما تهمسه نساؤهم لأمّها: «ابنتك وجهها لا بأس به، ولكن قدميها الكبيرتين تثيران السخرية.» ولا أنّ أصدقاء آكاي يلقّبونها «سمكة شبوط على أقدام رنجة»، وأن صديقاتها يتحاشينها. أبواها يفهمانها، وهذا يكفي.
قال آفا مستغربًا: «ما بالكِ؟ ألستِ مسرورة؟»
فقالت أمّهما: «دعْ أختك وشأنها.» ثم التفتت إلى لالو: «هلمي، ادخلي، عندي شيء أريكِ إيّاه قبل أن يعود أبوكِ.»
تقدّم آفا بخطوات طفل ذي شأن، تسبقه كرامته الصغيرة، نحو الطاولة.
سحبت أمّهما مقعدًا من تحتها وأجلسته عليه قائلة:
«ابقَ هنا، واحرس المخلّل والسمك المملّح من الذباب.»

كانت لالو لا تزال تدور في دوّامة من الفخر والفرح وهي تتبع أمّها إلى داخل الغرفة. مدّت الأمّ يدها إلى صندوق الملابس وأخرجت صديرية صغيرة ضيّقة، من النوع الذي ترتديه النساء تحت الثياب لتسوية الصدر.

قالت وهي تناولها لها: «لقد حِكتها لكِ.»

احمرّ وجه لالو خجلًا: «لا أحتاجها بعد.»

قالت الأمّ في حسم: «أنتِ في الرابعة عشرة، أصبحتِ امرأة. انظري كيف يلتصق الرداء الخارجي المتعرق بجسدك.أتريدين أن يصفكِ الناس بالفسق؟»

رفعت لالو الصديرية أمامها، وقاستها بعين قلقة: «إنها صغيرة.»

قالت الأم: «جرّبيها.»

«الآن؟»

«الآن.»

استدارت لالو إلى الحائط، قلبها يخفق بحرارة الحياء. فكّت أزرار سترتها القطنيّة الفضفاضة، ونزعتها، ثم شرعت تجاهد لتُدخل جسدها في الصديريّة الضيّقة التي خاطتها أمّها.

لهثت قائلة: «لا أستطيع التنفّس.»

قالت أمّها وهي تشدّ أطرافها وتسوّيها: «هراء. إنها مناسبة تمامًا.»

قالت لالو في ضيق صادق: «كيف سألوِّح بالفأس في الحقل؟»

تنفّست الأمّ في حرج ممزوج بالحسرة: «القرية على حقّ. كان ينبغي أن نبيعكِ.»

شهقت لالو: «لا يا ماما، لا تقولي ذلك.»

وكأنّها ما تزال طفلة، سحبت الأمّ سترتها الخارجيّة وألبستتها إيّاها فوق الصديرية، وقالت وهي توبّخها برفق: «ألا تفهمين أنني أقول هذا لخيرك أنتِ، لا لخيرنا؟ لو كنّا قد بعناكِ لاخترنا لكِ سيّدة طَيّبة، غير بعيدة عنّا، وكنتِ الآن تقومين بعمل النساء المحترمات في بيتٍ ميسور، لا بهذا العمل المرّ الشاق.»

احتجّت لالو بحرارة: «ولكنني أحبّ العمل في الحقول.»

قالت الأمّ في إصرار: «وحين تبلغين سنّ الزواج، كانت سيدتكَ ستجد لكِ زوجًا صالحًا، ثم تعود حريتك إليكِ. أمّا الآن فلا أنتِ أفعى ولا تنينًا؛ أنتِ امرأة، ولكنّك تعملين عمل الرجال، عمل الأجير. من سيرضى بكِ زوجةً لابنه؟»

قالت لالو: «لا يهمّني. أنا سعيدة، حقًّا سعيدة.»

قالت الأم في مرارة حكيمة: «أنتِ امرأة، ينبغي أن تنجبي أبناءً، لا أن تزرعي الخضروات.»

«سأفعل، ما إن يكبر آكاي بما يكفي ليحمل معكُم العبء حقًّا.»

هزّت الأمّ رأسها وقالت: «ليت الأمر بهذه البساطة. أما نسيتِ المثل؟ «المرأة عريضة القدمين تبقى بلا زواج، فلا أحد يرغب فيها.»

تلعثمت لالو: «لكنّكِ قلتِ إنك ستعيدين ربط قدميّ.»

قالت الأمّ: «سأفعل، ولكن القدمين قد فُسدتا. لن يعود لهما ذلك الاعوجاج الكامل ولا ذلك الصِغَر. ثم إن الأمر ليس أمر قدمين فحسب؛ أنتِ تفعلين ما لم تفعله امرأة في هذه القرية، ولا في هذا اللواء كله، واسمكِ على كلّ لسان من ألسنة النمّامات. أي امرأة عفيفة وقورة تقبل أن تصير مثل هذه الفتاة كَنّة لها؟»

الفصل الرابع

خمس سنوات من الكدح في الحقول منحت لالو عينّيْ فلاح متمرّس.
لذا أدركت بمجرد أن شرعت بنثر البطاطا الحلوة على أرضية المطبخ أن الشيخ يانغ قد خدعهم. ثلاث سلال من بطاطا صغيرة شائهة، نصفها عفِن، مقابل حمار معافى يعمل بلا كلل!
ولكن، مع مطلع العام الثالث من الجفاف، والدَّين ما زال يخنق المزرعة، وكل ما يملكونه إما بيع أو نُهب على أيدي قطاع الطرق، لم يكن ثمة سبيل آخر للحصول على درنات البذار اللازمة لزراعة الربيع.
شرعت بمرارة تُصنف البطاطا إلى كومين؛ الأفضل منها للبذار، والبقية لتسد رمقهم وتعينهم على قوتهم القائم على الجذور الجافة والحساء المائي الهزيل.
في الخارج، كانت الطبول الهادرة تدوي كالرعد، وعرفت لالو من غير أن تخرج، أن وجهاء القرية يحملون تمثال ملك التنين مرة أخرى إلى الحقول ليُروه الأرض، التي هشّمها قيظ الشمس الغاضبة فشقّقها.
على مدى ربيعين وصيفين، وقفوا عاجزين يراقبون النهر وهو ينكمش إلى مجرى ضحل، ثم إلى خيطٍ ماء واهن، فيضطرون إلى الحفر أعمق فأعمق بحثًا عن الماء. وفي العام الماضي، حين بدأت الدلاء الخشبية تغوص في قاع النهر فلا تخرج إلا بالطين، حمل شيوخ القرية ملك التنين إلى الحقول ليعرضوا عليه الزروع القزمة، ذات الأوراقها المشوّهة الملتوية.

كان الرجال والفتيان، بأكاليل من العشبِ الخشن على رؤوسهم، يتبعونهم وهم يقرعون الطبول ويرفعون الراياتِ المنقوشة بصلوات المطر.
لم يُرسل ملك التنين مطرًا آنذاك. فما الذي جعلهم يظنون أنه سيفعل الآن؟

قرص الجوع أحشاء لالو، حاولت تدليكها براحتيّ يديها، فما زادها ذلك إلا إلحاحًا. التقطت حبّة بطاطا أخرى وفحصتها. آثار أسنان الجرذان واضحة فيها. اثنان، ثلاثة مواضع. لو أخذت قضمة صغيرة، مجرّد قضمة، فمن ذا الذي سيعلم؟ ارتفعت الثمرة إلى فمها المفتوح كأن يدًا خفيّة ترفعها، لكن قبل أن تغرس أسنانها فيها سقطت قطرة لعاب حارّة على قشرتها، فلطّختها ببقعة داكنة بلون الدم. انتزعت البطاطا من يدها وقذفتها إلى الأرض. كيف راودتها نفسها أن تسدّ جوعها، وسائر أهل بيتها يتضوّرون جوعًا؟

نهضت وفتحت الباب. لفحها قيظٌ جافّ كاللطمة، فاتكأت مترنّحة على القائم الخشبي. شرائط التهاني الحمراء والسوداء الباهتة من رأس السنة، اللاصقة على العتبة، تفتّتت تحت ثقلها وتهشّمت إلى غبار يابس، فقفزت منتصبة على الفور، حمدًا لأن أمّها لم تكن حاضرة لترى هذا الفأل السيّئ.

تكيّفت عيناها مع العتمة الملتهبة خارجًا، فرأت أباها وآكاي وعددًا من الفلاحين ينفصلون عن مؤخرة الموكب العائد إلى المعبد. كانت تعرف أنّها لن تُسمح لها بالانضمام إليهم، لكن ربما استطاعت أن تقترب بما يكفي لتلتقط ما سيدور بينهم من حديث. أيٌّ شيءٍ أهون من ملازمة البطاطا التي لا يجوز لها أن تأكلها. أغلقت الباب بعنف، وسارت في إثرهم.

أحاطت بها الحرارة كما يلتفّ لحافٌ شتويٌّ سميك، وكانت قدماها، وهما تجرّان الخطى، تثيران غيومًا من الغبار تسدّ أنفها وتُدمع عينيها. ولما دنت من المعبد كان العرق قد لصق شعرها وثيابها بجسدها. تذكّرت وجه أمّها حين اقترح آفا ذات مرة أن يَسقوا الحقول بعصر العرق من ملابسهم المشبعة. يومها ضحكت لالو حتى دمعت، أمّا الآن، وهي تقرفص خلف جدار المعبد، فلم يحرّك الخاطر في شفتيها ابتسامة. فالوضع أخطر من أي مزحة.

سمعت أباها يقول: «علينا أن نذهب إلى النهر الرئيسي لنستقي الماء».
احتج الشيخ يانغ: «لكنه خلف الجبل، مسيرة نصف يوم!»
أصر والدها في حزم: «لا مفرّ غيره».
رد يانغ ساخرًا: «ما أكثر ما عندك من أفكار».
ضحك أحدهم متهكماً: «نعم، كما في مسألة قمح الشتاء!»
وأضاف آخر «وكما في تشغيل فتاةٍ كالرجال!»
انفجر المزارعون في قهقهة صاخبة، متعطشون لأي شيء يخرجهم من كآبتهم، قبل أن يقاطعهم صوت آخر:
«هذه المرة ناتوي محقّ، لم يعد بوسعنا الانتظار والتعلق بالأمل أكثر من ذلك».
«ربما أمكننا أن نحاول الذهاب إلى النهر الكبير». قال أحدهم مترددًا.
«ماذا عن قطاع الطرق؟»

شعرت لالو بالعرق البارد يغمرها. لطالما كانت القرية مهددة من قبل قطاع الطرق، لكنهم تكاثروا كالجراد منذ أن حلّ الجفاف، وأصبحت الغارات أكثر تواترًا. كان كثير من هؤلاء اللصوص عمالاً سابقين، عاشوا وعملوا في القرية. يعرفون مواطن المال والغلّة ومواضع إخفائها، ولا يتورّعون عن شيء.

سأل أبوها: «لماذا يهاجموننا؟ لن نحمل سوى الدلاء».

رد الشيخ يانغ مقترحًا: «قد يختطفون أحدنا لطلب فدية».

«ومن ذا يملك مالًا للفدية، غيرك؟»

«حين اكتشفوا أن آل بان أفقر من أن يدفعوا فدية أبيهم، أجبروا العجوز على حفر قبره بيده، ثم هشّموا رأسه بالمعول».

«ولما أبطأ شي في دفع الفدية عن ابنه، قاموا بقطع أذن الصبي».

«ما يقلقني هو النساء والأطفال. إذا تُرِكوا وحدهم، فلا ندري ماذا سنجد حين نعود».

«يمكننا أن نتناوب على الذهاب. وبهذه الطريقة، سيكون هناك دائمًا رجال في القرية».

عارض أبوها: «وجود الرجال وحده لا يكفي، يجب أن نقاتلهم»

«ألم ترَ ما حدث لـ وو السمين؟»

عم الصمت المكان، فقد انقض وو السمين على أحد اللصوص، فما كان من الآخر إلا أن قطع رأسه بضربة واحدة. تدحرج الرأس في مجرى الزقاق، ليصطدم بالمنعطفات الحادة، ويتناثر دمه على جدران الأفنية، إلى أن انقض عليه قاطع طريق آخر وانتشله، غرز فيه رمحًا، ثم نصب الرمح في الأرض.

بقي الفم فاغرًا، والأسنان البيضاء الكبيرة تلمع في ظلمة الفجر الخافتة، وجديلته الملطّخة بالدم تتمايل ببطء ذهابًا وإيابًا، إنذارًا لكل من تسوّل له نفسه المقاومة.

كسر والد لالو الصمت قائلًا: «حاول وو السمين قتالهم بمفرده. يجب أن ننظم أنفسنا في فرق ونحرس الدروب والأزقة».
«ألم تكن فكرتك أنت أيضًا أن نستعين بالجنود؟ كانوا أسوأ من اللصوص».
قال آخر: «أولئك الذين نزلوا في بيوتنا أكلوا كل ما استطعنا إنقاذه من أيدي قطاع الطرق».
«وكنت أخشى أن أترك زوجتي وبناتي وحدهن ولو لحظة واحدة طوال إقامتهم!»
صرخ يانغ: «أنت وأفكارك المجنونة جلبت علينا كل هذا الشؤم!»
قال أبوها في سخرية هادئة: «لا تكن أحمقًا إلى هذا الحد».
رد الشيخ: «انظروا من يجرؤ على وصفنا بالحمقى!»
وفي تلك اللحظة، دوت صرخة وحشية حادة، أشد هولًا من أي شيء سمعته لالو على الإطلاق، انقضت على جموع المزارعين كشرارة البرق، تلاها عويلٌ أشدّ حدّة كدويّ الرعد. رفعت لالو رأسها، كانت سحابة كثيفة بلون الطين تهوي من سفح الجبل نحو القرية.

صاح أحدهم: «قطاع طرق!»

تفرق المزارعون في كل اتجاه، يركضون نحو منازلهم ومخابئهم.
حاولت لالو اللحاق بهم، لكن ساقيها الواهنتين من شهور الجوع، المنقبضتين من طول القرفصاء، لم تطاوعاها إلا عرجًا. وخز الغبار الثائر عينيها وخدش حلقها وهي تكافح، تغطّي وجهها بكفيها وتتابع المسير عمياء.
ضربة خاطفة أطاحت بها أرضًا. زحفت إلى ركبتيها، فرأت الحصان الذي كان يسد طريقها. كان الفحل الضخم الجميل الذي اشتراه أبو آقاو في عام الحصاد الوفير. كم أحبت قوته وجماله آنذاك! أما الآن كان يرتجف ويئن فوقها كالمهر المفزوع. وبدلًا من عينيه البنيتين الجميلتين، لم يكن هناك سوى ثقبين داميين، في أحدهما غُرزت إبرة طويلة من تلك التي تُستخدم في صناعة الأحذية.
اندفع آقاو يمسك بالرسن، كان الحصان يدور بجنون، صرخ «ساعديني!»
شهقت لالو: «كيف استطعت؟»
بكى الفتى: «كان عليّ فعل ذلك! اللصوص لا يأخذون إلا الخيول الجيدة.. هكذا سيفقد بصره، لكنه سيبقى لنا!»
زجره أبوه وهو يلهث محاولًا تطويق الحيوان: «يا أحمق! ألم أقل لك أن تربطه جيّدًا؟» ثم قفز، انتزع الإبرة، وألقاها أرضًا وهي تقطر دمًا. صرخ الحصان وانتفض قائمًا، وحوافره تدقّ لحنًا هستيريًّا على جدران الفناء.
حاولت لالو أن تتدحرج بعيدًا، لكن الحُفر الدامية جذبتها وشدّتها إلى مكانها.
قال آقاو وهو يشدّها من ذراعها: «هيا بنا، قطاع الطرق وصلوا إلى مشارف القرية.»

الفصل الخامس

أعاد الصخبُ الذي استعر داخل البيت لالو إلى واقعها. كانت أمها تحمل طفلها الرضيع على ظهرها، وهي تقذف حبات البطاطا الحلوة في سلة، بينما تجر آدا المتشبث بذيل ثوبها وهو يعوي. أما آفا فكان يتبعهم، تارةً يحاول لفت انتباه أمه، وتارةً يحاول مضغ حبة بطاطا سقطت منها.

قال أبوهم بلهجة حاسمة: «لا وقت لتهريب الصغار. ستختبئون جميعًا في حفرة السماد».

احتجت لالو وهي تُعين أمها على جمع البطاطا في هلع: «لا يوجد مكان».

وأضافت الأم بفزع: «ماذا لو بكى الأطفال؟»

قال وهو يدفعهم إلى الفناء: «عليكم التأكد من ألا يفعلوا».

كانت الذبابات تطنّ بجنونٍ حين ساعد آكاي أمّه والرضيع على النزول إلى الحفرة. ناولها آدا وآفا، ثم ألقى إليها لالو وسلّة البطاطا. وأخيرًا دسّ آكاي نفسه في الفتحة المكتظة. كانت القمامة وروث الحيوانات يتحرّكان حول كواحلهم كطينٍ حيّ، والذباب يزحف داخل آذانهم وأنوفهم ثم يخرج.

«رائحة نتنة» تأفف آفا.

قالت الأم «لهذا يصلح للاختباء. يا آكاي، أنت طويل جدًا. انحني».

«لا مكان». تمتم آكاي

«تحركوا للوراء حتى يتمكن آكاي من الجلوس القرفصاء».

قهقه آفا «إنه يجلس في الوحل».

همست الأم بقسوة: «اخفض صوتك، وإلا سرقك اللصوص إلى الأبد».
وتابعت: «لالو، ضعي سلة البطاطا على آكاي كي تحملي آدا».
تلعثمت لالو: «مهلًا، سأفقد توازني»
انزلقت السلة، وتدحرجت حبات البطاطا في الوحل العكر. ارتفع الذباب من القاع في دوامات صاخبة، مما تسبب في طنين الذبابات التي تعلوها وارتطامها بالأجسام المتلاصقة.
صرخ آكاي بحدة: «قلتُ لكِ انتظري».
انفجر آفا منتحبًا: «هذه هي السلة الوحيدة التي أحضرناها. ماذا سنأكل؟»
ربتت عليه الأم: «لا بأس، سننتشلهم ونغسلهم».
شهق آفا: «لن آكل قاذورات». وبدأ آدا بالبكاء أيضا.
همست الأمّ، بصوت أجشّ: «اصمتوا... ستجعلون الرضيع يبكي، وصدّقوني: إن عثروا علينا سيكون الطعام آخر همكم».
تذمر آفا: «لكنني جائع».
«وأنا أيضًا» أنّ آدا.
قالت لالو كمن يلقي بطوق نجاة: «اسمعوا. إذا وعدتم بالكفّ عن البكاء، فسأحضر السلة الأخرى». هدأ الأطفال في الحال.
قالت الأم: «لا وقت. أسمعهم يحطمون الأبواب بالفعل».
عاد الصغار إلى الشهيق.
«سأذهب أنا» تنهد آكاي وحاول أن ينهض.
قالت لالو وهي ترفع نفسها خارج الحفرة: «أنت عالق».
ثم انحنت تحذرهم: «تذكروا: الصمت وإلا لن أعود».

اندفعت عبر الفناء إلى البيت. كان أبوها يضع آخر حبات البطاطا في السلة.
صاح بها: «ماذا تفعلين؟»
قالت لاهثة: «البطاطا التي كانت لدينا سقطت في الروث».
ثم ازداد الصخب في الخارج. مدت يدها إلى السلة وقالت: «ها هي، سآخذها معي».
قال: «لا. يجب أن يبقى لدينا ما نقدّمه لقطاع الطرق وإلّا قلبوا المكان رأسًا على عقب».
«الأطفال يبكون... دعني آخذ القليل ليهدأوا».
جمع قبضتين من البطاطا وألقاهما في مئزر سترتها. استدارت لتفرّ...
ضربةٌ مدوّية! اهتزّ الباب وتناثر الغبار وألياف القش فوقها وفوق أبيها..
زأر صوت أعلى من حوافر الخيول، وتكسر الخشب، والصراخ المرعب.
«افتح الباب!»
قال أبوها: «اسرعي... خلف الموقد».
اندفعت لالو مسرعةً، تناثرت حبات البطاطا على الأرض بينما كانت تحشر نفسها في الشق الضيق. ومن خلال صدع صغير، رأت الباب ينفجر، ويدخل لص بخطوات واسعة، يركل العارضة الخشبية المتشظية.
«ما الذي تخفيه؟» سأل مزمجرًا.
قال أبوها وهو يدفع السلة نحوه: «لا شيء. انظر... لقد جمعت لك البطاطا الحلوة».
هوى السكين على السلة فشقّها من يد الأب، وتناثرت حبات البطاطا على الأرض. «أتجرؤ على إهانتي بسلة واحدة!»

«هذا كل ما تبقى».

صرخ: «كاذب».

انكمشت لالو على الحائط، بينما دفع الرجل أباها جانبًا. ومضى يحطم القدور، ويكسر الأواني الفخارية، ويقلب السلال، ثم سار بخطى واسعة متتبعًا أثر السماد حتى وصل إلى خلف الموقد حيث تختبيء. انتزعتها يدان خشنان من مكمنها وطرحتاها أرضًا.

انحنى أبوها ليعينها: «هذه ابنتي».

ركله الرجل حتى طار إلى طرف الغرفة. «أعرف.» قالها وهو يجرّ لالو من الأرض. راحت ترفس وتضرب بقبضتيها، لكنه غلبها بسهولة؛ حشر ساقيها بين ساقيه، وثبّت ذراعيها إلى جنبه، وضغطها على صدره كأنها غنيمة. غرزت أسنانها في ذراعه. ضحك، وانتزع ذراعه، ثم قبض على فكّيها بين أصابعه وأجبرها أن تواجهه. حدّقت فيه بتحدّ، وعقدت أنفها اشمئزازًا من رائحة ثومٍ فاسد تنبعث من فمه. لمعت عيناه الصغيرتان الحادتان: «لاتعرفينني، أليس كذلك؟»

كان الصوت مألوفًا بشكل مقلق. دققت أكثر في الوجه الأسمر الداكن الذي ارتفع فوقها. عينان سوداوان وأنف طويل غائران في جلد دهني مليئ بالندوب. وشعيرات سوداء خشنة تصنع شاربًا ولحية هزيلة تخفي شفاهًا ملتوية مشوهة. لو حُلق جبينه، وجُمع شعره في جديلة مرتبة، وأُزيل الشارب واللحية... لكان صورةً من تشين، عامل أبيها القديم، الذي عمِل عندهم أجيرًا في عام قمح الشتاء.

همست: «تشين».

زأر ضاحكًا: «ذكيّة... وشرسة أيضًا!»
نهض الأب وصاح: «دعها!»
قال تشين ببرود: «احذر كلامك. لستُ عاملَك بعد اليوم.»
تقدم الأب نحوه بقبضتين مشدودتين.
ابتسم تشين بازدراء: «لا داعي لأن تُظهر شجاعةً حمقاء. صفارةٌ واحدة... صيحةٌ واحدة... وسيتدفّق رجالي من ذلك الباب فيسحقونك سحقًا... هكذا». وبينما يجرّ لالو أخذ يدهس البطاطا الحلوة حتى غطت الأرضية ببقع حمراء صدئة.
انفجرت دموع لالو غضبًا: «كيف تفعل هذا الشيء الفظيع... وأنت فلاح؟»
قال بصوت بارد وحاد كنصل السكين التي يحملها: «بكل سهولة. لم أكن فلاحًا قط، كنتُ أجيرًا، يُستغنى عنه في الشدائد. أما الآن فأنا زعيم لقطاع الطرق، سيدًا لخمسين رجلاً».
لمحت لالو بطرف عينيها أباها يمد يده خلسة نحو المنجل. وفي اللحظة نفسها، أطاح تشين به بعيدًا.
قال وهو يقترب بفمه من أذنها: «ألا تفهم،؟ صفارة واحدة.. صرخة.. وستكون زوجتك وأطفالك في وضع أسوأ من الموت. تذكر، أنا أعرف أماكن اختبائك».
ثم ركل أقرب كومة روث بحركة ذات مغزى، وأردف: «حتى لو لم أكن أعرفها، فقد ترك ثعلبك الصغير أثرًا يمكن للأعمى أن يتبعه».
هوى أبوها على ركبتيه «أرجوك، أتوسل إليك. دعها تذهب».
فأجابه تشين «لا تقلق، سأدفع لك ثمن هذه الثعلبة الصغيرة».
شهقت لالو.

قال أبوها: «ليست للبيع». لكن كتفيه المتراخيتين كشفتا عن هزيمته.

تصلبت لالو، رافضة الاستسلام بسهولة. لقد أقنعت أبوها بالسماح لها بالعمل في الحقول، ويمكنها إقناع تشين بعدم أخذها.

قالت: «فكر في زوجتك وأطفالك».

لامست شفرة سكين تشين رقبتها عندما سحب رأسها للخلف بقوة من ضفيرتها. «وهل فكر أبوكِ بهم حين حرمني مصدر رزقي؟»

عضت لالو شفتها. كان عليها ألا تذكر عائلته، لكن فات الأوان للتراجع.

قالت: «هناك مزارعون آخرون يمكنك العمل معهم».

«ليس منذ الجفاف».

«ونحن نعاني من الجوع أيضًا. الأطفال الصغار مغطون بالقروح وبطونهم منتفخة كالأسماك الميتة».

ردّ بمرارة: «لكنكم أحياء. زوجتي وأولادي ماتوا.. من الجوع».

«لم أكن أعلم».

«بالطبع!» صاح تشين بحدة. «من يهتم بعامل بسيط؟»

ثم انفجر ضاحكًا ضحكًا، ونثارُ ريقه يرشّ وجهها: «أتظنين زعيمَ قطاع الطرق يمكن أن يكون رقيق القلب؟ حين جاء الجفاف، انضممتُ إليهم وهاجمتُ قريتي. بعتُ أطفالي... ووهبتُ زوجتي لرجالي ليفعلوا بها ما يشاؤون. لهذا جعلوني زعيمًا.»

أمسكها من ذراعيها وراح يتفحّصها كما يفعل فلاحٌ قبل شراء دابّة: «وجهٌ حسن. أسنانٌ بيضاء وشعرٌ لامع. لكن... يا لكِ من كبيرة القدمين! بيوت المتعة في شنغهاي تُحب الأقدام المربوطة والجلد الأبيض الناعم. وأنتِ مسوَّدة بالشمس.» ثم ابتسم ابتسامةً شهوانية: «لكن رجالي لن يبالوا بذلك. تصلحين زوجةً مشتركة لهم. زوجتي صمدت أسبوعًا... أمّا أنتِ فقوية المراس. أظنّك تصمدين شهرًا.»

ثم دنا بلحيته الخشنة من خدّها ودلّكها به: «أو لعلني أُبقيك لنفسي».

سمعت لالو أنين أبيها. صرت على أسنانها، مصممة على عدم إظهار خوفها.

رفع تشين رأسه وصاح: «تشوو».

ملأ فجوة الباب رجل من أتباعه، قصير القامة ممتلئ الجسم.

قال تشين: «هاتِ كيسين بذار».

وبعد لحظات، عاد تشوو بكيسين صغيرين لا يزيدان على قبضتي لالو. أخذ تشين الكيسين وقال: «اجمع الرجال وأحضر حصاني.»

قذف كيسًا أمام أبيها، فانشقّ وتناثرت حبوب فول الصويا أرضًا.

حدّقت لالو في أبيها، تتوسّله بصمتٍ ألّا يلتقطها. مدّ يده... تردّد... ثم رفع عينيه إلى لالو، وفيهما رجاءُ أن تفهم. أدارَت وجهها بعنف، والدمعة تختنق في حلقها. ومن خلفها، سمعته يخطف الكيس ويجمع البذار المتناثر.

توسّل الأب: «كيسان... كيسان من البذار. إنها تستحق كيسين.»

ضحك تشين بازدراء، وألقى بالحقيبة الأخرى أرضًا، ثم حمل لالو على كتفه كما لو كانت ذبيحة، ومضى.

الفصل السادس

امتطى قطاعُ الطرق جيادهم في صفٍّ واحد، صامتين؛ تارةً يدعون الخيل تمشي على مهل، وتارةً يطوون الطريق خَبَبًا، ثم بلا سببَ واضح ينهالون عليها ضربًا حتى تنطلق عَدْوًا. كانت عينا لالو تلسعان وتذرفان من غبارٍ أصفرَ رماديٍّ خَشِنٍ يدور حولهم كدوّامة. كانت محشورةً بين جسدِ تشين وبين قَبَّةِ السرج الخشبي، أخذت سراويلها تحتكّ كالحجر الرمليّ بين فخذيها، حيث انسلخ لحمُهما الطريّ وتمادى الجرحُ من طول الرحلة. مالت إلى الأمام، يقرص طوقُ ثوبها عنقَها قرصًا مؤلمًا، عند الموضع الذي خدشه فيه نصلُ تشين. صفعها غصنٌ طويلٌ واطئ. ثم تعثّر الجواد، فصعد في عمودِ فقارها لهبٌ خاطف. عضّت شفتها حتى ذاقت الدم.

وبعد زمنٍ ظنت أنها لن تقوى على احتمال العذاب لحظة أخرى، توقّفوا. ترجّل تشين، فتهاوت لالو على السرج من فرط الراحة. ومن خلفها، سمعتُ بقية الرجال يترجّلون، وأصوات أغصانٍ تُكسَر، وشجيراتٍ تُجرّ على الأرض.

غير أنّ ما أشعرها بخزيٍ أعمق من القيود، غطرستهم حين تركوها فوق ظهر الجواد، غير موثقةٍ ولا محروسةٍ حراسةً ثقيلة، كأنها إن شاءت تستطيع أن تركض بحصانها إلى حيث تشاء. كان في ذلك تأكيدٌ فادح لما تعرفه سلفًا: الهروب مستحيل.

في وقت سابق، كانت قد حاولت أن تحفظ معالم الطريق ما دام في الضوء بقية، وما داموا يمرّون بأرضٍ تعرفها، استطاعت أن تُعلّق بصرها على صخورٍ ذات نتوءاتٍ غريبة، وعلى شجرٍ بعينه، وعلى ذُرىً مألوفة. أمّا بعد أن دخلوا أرضًا لا تُشبه ما عرفت، ثم انطبق الشفقُ ليلًا، فقد انقطع الأمل. ثم لو أنها أفلتت، وعثرت على طريق العودة... هل يجرؤ أبواها على استقبالها؟

فهي لم تُختطف. بل بِيعَت. صارت ملكًا لتشين.

اشتعل وميض من الضوء، تلاه لهيب متأجج أضاء الظلام، فرأت أعمدةً مكسورة لهيكلٍ مُتهدّم. وعلى البُعد اشتعلت نارٌ ثانية، ثم ما لبثت بعد ثوانٍ أن تلألأت ثالثة عند الأفق. أهو طقسٌ لصوصيٌّ غريب للشكر؟ وإذا كان كذلك فأين قربانهم؟

ارتجفت حين أطلق تشين ورجاله زئيرًا وانقضّوا نحوها، ووجوههم في الضوء المرتجف شاحبةٌ شبحية. نكزت كعبها في جنب الجواد؛ فانتفض قائمًا، ثم شعرت بنفسها تُقذَف في العتمة.

احتواها الإغماءُ بدفئه حلوًا مطمئنًّا، كما تحتويها ذراعا أمّها. غير أنّ صياحًا خشنًا كان ينخس أطراف وعيها. قاومت الافاقة، غير راغبة في التفريط بتلك السكينة التي سالت في أطرافها المعذّبة. حتى أجبرتها صفعاتٌ لاذعة ولكماتٌ فجّة على فتح عينيها، فانتُزعت من ظلمة الرحمة انتزاعًا.

توقّعت أن ترى دائرةً من الوجوه... فلم تجد سوى وجهٍ واحد: وجه تشين. كان الآخرون قد امتطوا جيادهم بالفعل، متململين، متعجّلين الرحيل. فشعرت لالو بارتياح ساذج: كان اللصوص يندفعون نحو خيولهم، لا نحوها. ولم تكن النيران شعيرةً دينية، بل مناراتٍ تهديهم في الليل.

صرخ تشين وهو يقذفها من فوق السرج.: «أيتها العاهرة الغبية، كدتِ تؤذين حصاني! لو لم يكن رجالي بحاجة إلى امرأة، لكنتُ قتلتكِ».
إذن، لقد قرر بالفعل أن يعطيها لرجاله، فكرت لالو بفتور. ماذا قال؟ «يمكنك أن تكوني زوجة مشتركة لهم. زوجتي لم تصمد سوى أسبوع. لكنك قوية المراس. أظنك ستصمدين شهرًا على الأقل». ماذا كان يقصد؟
تذكرت بشكل مبهم ليلة من طفولتها استيقظت فيها على أصوات غريبة مكتومة قادمة من غرفة والديها. فزعةً، قفزت من سريرها وركضت نحوهما. من المدخل، رأت ظلال جسد والدها الضخم يرتفع وينخفض وهو يلهث، ملتصقًا بأمها التي كانت مستلقية على السرير، وتئن، ثم أطلقت صرخة قصيرة وحادة كصرخة طائر جريح.
صعدت لالو مسرعة إلى السرير، وهي تضرب والدها بقبضتيها وتبكي: «اترك أمي وشأنها». أمسكت أمها بذراعيها وأمرتها بالعودة إلى سريرها. صرخت لالو: «لكنه كان يؤذيكِ». أبعدتها أمها قائلة: «أنتِ أصغر من أن تفهمي».
والآن، بعد سنوات، لا زالت لا تفهم الأمر تمامًا. أدركت بشكل غامض أن ما يفعله الناس ليلًا لا يختلف كثيرًا عن تزاوج الحيوانات. لم يتحدث أحد عن الأمر صراحةً، غير أن من حصيلة الهمسات المتراكمة عبر السنين، شعرت أنه أمر مقبول إذا حدث بين الزوج والزوجة، ومخزٍ ومريع إذا لم يكن الرجل والمرأة متزوجين.

ومع ذلك، كان الأمر يحدث في أماكن تُعرف ببيوت المتعة، وأثناء غارات قطاع الطرق، وأحيانًا مع وجود جنود متمركزين في القرية. وذات مرة، سمعت والدتها وبعض صديقاتها يتهامسن عن جارة اختفت فجأة لأنها ألحقت العار بنفسها. احمر وجه لالو خجلًا، متذكرة تلك المرة التي راقبت فيها كلبين ملتصقين معًا، كان الذكر قد اعتلى الأنثى. ارتجفت بشدة، لكنها لم تمت. هل ماتت زوجة تشين لأنهم كانوا خمسين رجلًا، وليس رجلاً واحدًا؟ إذن كيف تنجو النساء في بيوت المتعة؟ لا بد أنهن يمارسن الجنس مع أكثر من ذلك. هل هناك شيء يفعله قطاع الطرق يزيد الأمر سوءًا؟ تذكرت حين استغل أحد قطاع الطرق زوجة بان، فانتحرت شنقًا. آنذاك، أجمع الكل على أنها فعلت الصواب، وبنى زوجها ضريحًا تخليدًا لشجاعتها وفضيلتها. هل عليها أن تقدم على الانتحار؟ هل هذا ما فعلته زوجة تشين؟ فلماذا انتظرت أسبوعًا إذن؟ ولماذا ظن تشين أن بإمكانها أن تصمد شهرًا؟

أدركت أهمية ترتيب الأمور ومحاولة فهمها، لكن رأسها كان ينبض من الاهتزازات المتواصلة، حلقها جاف، يتوق للماء، وجسدها منهك يميل إلى النوم. كما كانت أصوات الليل الغريبة مصدرًا لإزعاج إضافي.

أرهفت السمع، هل هناك حيوان بري يقتحم الأدغال؟ أم أكثر من واحد؟ من شدة الصخب، بدا الأمر وكأنه قطيع. رفعت نظرها إلى تشين، كان الظلام حالكًا فلم تستطع رؤية أكثر من ظلّه، لكنه بدا غير مكترث، تاركًا الخيول المتعبة تسير على مهل.

فجأة، اندفعت ظلال داكنة وتعالت صيحات حماسية بينما كان قطاع الطرق يرحبون برفاقهم الذين تُرِكوا لإضاءة المشاعل. تشبثت لالو بمقبض السيف.

«لماذا استغرقتم كل هذا الوقت؟»

«ظننا أن الشيطان اصطادكم».

«فإذا أنتم تأسرون إلهة»

«بل هي أشبه بعاهرة!»

دَوَّت أصواتهم في سكون الليل كدوي الرعد. صرخ تشين فوق الجلبة: «صمتًا حتى نبلغ المعسكر!»

انقطع لغطُهم في الحال، ولم يبقَ في الفضاء إلا طَرْقُ الحوافر المنتظم كطبولٍ بعيدة، ثرثرةُ الزيز، وطنينُ البعوض، بينما هم يتّجهون نحو المنارة الثالثة.

كانت لالو قد ظنّت أن النار الثالثة هي علامة المعسكر، فإذا هي ليست كذلك. ومرةً أخرى انفجرت الحماسة حين حيّا اللصوصُ بعضُهم بعضًا، ومرةً أخرى أمرهم تشين بالصمت. أدهشها مقدارُ طاعتهم له؛ أمرُه نافذٌ لا يُراجَع. ولو أنه قرّر أن يحتفظ بها لنفسه، أفلا يجرؤ أحدٌ على الاعتراض أو العصيان؟ ألن يكون ذلك على فظاعته أهونَ من أن تُرمى كقطعةِ لحمٍ إلى قطيع من الوحوشِ الجائعة؟ ثم إذا أخذها تشين لنفسه... أما يصيران زوجًا وزوجة؟ انتفضت معدتُها على صورة ذلك الشيخ القبيح عريسًا. ولكن ألم تقل أمّها إنّ بيتًا كريمًا لن يرضاها كنّة؟ ولهذا، وهي في الثامنة عشرة، بقيت بين قريناتها اللواتي صرن أمهات، بلا زواج: فائضةً عن الحاجة، غير مرغوب فيها.

فضلًا عن ذلك، حسن المطالع لا يهب دائمًا حسن المعاش. فالسماسرة يكذبون، والناس جميعًا يعرفون فتياتٍ حَلِمنَ أنّ الهودج الأحمر يحملهن إلى بيوتٍ ثريّةٍ وأزواجٍ فتيةٍ وسيمين، فإذا بهنّ وقد وقعن ضحية خداع.
كيف سيعاملها تشين؟ في شتاء إقامته عندهم عاملًا عند أبيها، ما كان يعود من السوق إلا ومعه حلوى لها ولأخيها آكاي. وفي المساءات كان كثيرًا ما ينحت لهما حيواناتٍ صغيرة من الخشب، أو يفتل من القشّ كراتٍ دقيقة، وفي الوقت نفسه يأسرهما بحكاياتٍ عجيبة عن محاربين جبابرة وأشباحٍ ثائرة. لكنه تغيّر؛ باع أبناءه، وكان سببًا في هلاك زوجته. ومع ذلك كانت أمّها تقول: «إن كانت المرأة فطنةً، ساقت الرجل إلى مرادها.» فهل تستطيع كسب قلب تشين ، وإغرائه بأن يكون لطيفًا ؟
ابتلعت لالو ريقها بصعوبة، ثم اتكأت إلى الخلف بنعومة ودلال، وأسندت ظهرها إلى صدر تشين. رفعت وجهها إليه هامسة: «دعني لك.»
انزلقت يده تحت سترتها، تفك أزرار صدرية ملابسها الداخلية الضيقة بمهارة خبيرة. داعب ثدييها. تيبست غريزيًا، وحاولت جاهدة الاسترخاء، لكنها شعرت بقشعريرة وحمرة ساخنة تسري في جسدها . ورغم نفورها، أجبرت جسدها على البقاء ملتصقًا به. قام تشين بلي حلمة ثديها بقسوة، قال وهو يسحب يده: «أنا لست سهل الانخداع بسهولة أيتها الأخت الصغيرة».
انسالت دموع الإذلال على خدي لالو. أرادت تصرخ: أنا فلاحة، لست عاهرة. لكن صوتًا داخليًا همس لها: إذن تصرفي كفلاحة. عندما يقضي قطاع الطرق أو الحشرات أو الأمراض أو الأمطار أو الجفاف على محصول، لا ينهار الفلاح ويبكي كطفل خائب بل يعود إلى البداية: يُسمّد، ويحرث، ويُعيد البذر.

وحتى الآن، بعد أن دخل القحط عامه الثالث، لم يتوان فلاحو قريتها؛ يفتّشون عن سبيلٍ لإنقاذ الأرض والأهل. فهل تكون أقلّ منهم صبرًا؟
البذار التي جناها أبوها كثمن بيعها ستنقذ الأرضَ، وتَكفُل لأمّها وإخوتها النجاة من الجوع. أما الآن فعليها أن تُنقذ نفسها. ستجد طريقة للهرب. ليس إلى قريتها، فهي تعلم أنها لن تستطيع العودة إلى ديارها مرة أخرى، بل إلى بلدة كبيرة أو مدينة حيث لن يعثر عليها قطاع الطرق أبدا.

الفصل السابع

استيقظت لالو شاعرة بالألم وقد تَيبَّس جسدُها ، تمطّت. فاصطدمت ذراعاها وساقاها بحوافّ حادّة. فتحت عينيها في حيرة؛ فإذا بها محشورة بين أكياسٍ وصناديقَ وسلالٍ وتوابيتَ خشبية. مدت يدها لتزيحها، ثم جمُدت في مكانها إذ تزاحمت في رأسها وقائعُ الأمس: الغارة، وبيعُها، وعجزُها عن استرضاء تشين، ووصولُهم الصاخب إلى المعسكر، ثم أمرُ تشين أن تُلقى مع سائر الغنائم في هذه الغرفة الطويلة الخالية من النوافذ.

تذكّرت كيف قاومت النعاس، والغرفة تضيق برجالٍ يتدافعون ويتشاتمون، وكلٌّ يتكلم في آنٍ واحد وسط كلابُ المعسكر الغليظة المظهر. ثم تحول النباح والصياح إلى أصواتِ طعامٍ يُلتهم. وأخيرًا الرائحة المعذِبة لطعام اللصوص التى أرغمتها على الاستسلام لإعيائها هربًا من نفسها. كم من الوقت نامت؟ أهي وحدها؟ رفعت جسدها بحذرٍ لتُبصر ما وراء الصناديق والتوابيت التي تطوّقها.

خلف ستار من الدخان الحلو الخانق، رأت رجالًا شبه عراة ممدّدين اثنين اثنين على مصاطب نومٍ طويلة، عن يمينها وعن يسارها. كانوا يستلقون متقابلين، وتحت كلّ زوجٍ منهم مصباحٌ صغير خافت من زيت الفول السوداني، تُظلله قبعة ورقية نصفُها ساتر. فوق اللهب يمسك كل رجلٍ غليونًا خشبيًا طويلًا رفيعًا، وفي رأسه كتلةٌ تَفور فَوَرانًا خفيفًا. كلما تقلّصت الكتل البنية الداكنة أعادوا تشكيلها مخاريطَ صغيرة، ثم استأنفوا التدخين.

تسارع نبضُ لالو. كانوا غارقين في غلايينهم، لا يلتفتون إليها أكثر مما يلتفتون إلى الكلاب التي تقرض العظام الباقية. قالت في نفسها: هذه فرصتي. جالت عيناها على الجدران المسوّدة بالدخان تبحث عن باب، فوجدته خلفها إلى اليسار، لا يبعد أكثر من خمس خطوات. بلا حارس.

همّت تتسلّق الصناديق، غير أنّ لمعةً ذهبيةً أوقفتها. انحنت تلتقطها، فإذا هي حرفٌ مرسوم على صندوقٍ جلدي أحمر. دفعتها خيبةٌ سريعة إلى متابعة الطريق، ثم ادركت انها تعرف ذلك الحرفان، وإن كانت لا تقرأ، فقد عرفهما الناس كلهم: «الفرح المزدوج»، علامة الأعراس. وهذا صندوقُ عروس... وصندوق العروس يعني حُليًّا، والحُليّ هي زادُها إن أرادت أن تُساوم على الطعامِ أو الهرب.

قرفصت إلى جوار الصندوق. كان مقفلًا بقفلٍ نحاسي. وبحركةٍ خاطفة نزعت قرطها النحاسي من شحمة أذنها اليسرى، وفردته كسِنٍّ دقيقة، وأخذت تنقب به في لسان القفل. غير أن ضوء المصابيح المُظلَّلة والدخان، جعلا الرؤية عَسِرة؛ فتخبّطت أصابعها. انزلق القفل في كفّيها المتعَرِقَتين. مسحت يديها بثوبها، ثم غاصت بالقرط أعمق. عَلِق السلك بالداخل. جذبته؛ لم يستجب. لوته وجذبته ثانيةً، لكن الطرف المستقيم كان قصيرًا رقيقًا لا يُمسَك. خفق رأسُها وجفّ فمُها، انحنت، وأمسكت طرف السلك بأسنانها وشدّت بكل قوتها. أخيرًا، انفلّت السلك، وانفتح القفل. وفي اللحظة نفسها قذفها الاندفاع إلى سلةٍ انقلبت، فتبعثرت حبات الفول السوداني بخشخشةٍ جافة عالية. لم يرفع اللصوص رؤوسهم عن غلايينهم، لكن الكلاب تقاطرت تشمّ الفولَ السوداني وتشُمّها.

حبست لالو أنفاسها حتى عادَت الكلاب إلى عظامها، ثم رفعت الغطاء.
امتلأ الصندوق بالحرير والساتان. عروسُ ثريّة. جسّت الجوانب والقاع بحثًا عن حُليّ... لا شيء. أيكون بحثها أهدر وقتًا لا يُعوَّض؟ كلا. لا بد من حُليّ. إن لم تكن هنا فهناك في صندوقٍ آخر، وإلا بقيت عارية اليدين، فريسةً للمحتالين كما هي فريسةٌ لهؤلاء اللصوص. بحثت من جديد في كومة السترات والتنانير، تلقي قطعة تلو الأخرى حتى أصبح الصندوق فارغًا. لا شيء. سقطت إلى الخلف. فوخزها شيء حاد عبر سروالها القطني الرقيق. التقطت ما وخزها في فتور وألقته في الصندوق الفارغ، فلمع ببريق أصفر. ذهب! قرط ذهبي.
التقطته بسرعة، وبدأت تتحسس الملابس بجنون بحثًا عن قرينه. كانت تقذف الملابس عشوائيًا عائدة إلى الصندوق، حين اصطدمت أصابعها بشيء بارد مستدير. سوار من اليشم، ثم دبوس شعر فضي، ثم القرط الثاني، وثلاثة أزرار من اليشم. ارتجفت من الارتياح، علّقت السوار والأزرار والقرطين والدبوس بخِطاطيف في باطن حزام سروالها العريض. أسدلت سترتها فوق مخبئها، وألقت نظرةً أخيرة على اللصوص، ثم اتجهت إلى الباب.
ذكرها وهن ساقيها وتقلصات معدتها الخاوية أنها لم تأكل شيئًا منذ العصيدة المائية صباح أمس. دفعت الفكرة بعيدًا: عليها أن تخرج الآن مادامت الفرصة سانحة... ثم تأكل حين تأمن. زحفت إلى الأمام، تتوكأ على الصناديق ممتنة لصلابتها. تكاثف أمام بصرها ضبابٌ من نقطٍ سوداء وحمراء حتى صار ستارًا أسود مصمتًا. هزّت رأسها بضيق؛ تراجع السواد لحظة، ثم عاد يشتدّ. لسعتها دموعُ القهر. لا مفر... لا بد من لقمةٍ الآن..

جثت على الأرض تبحث عن بقايا تلتقطها من غير أن تُهيّج الكلاب. وحين لمست أصابعها حافةَ وعاءٍ، سال لعابها. رفعت الوعاء إلى شفتيها، ودفعت إلى حلقها فتاتَ لحمِ خنزيرٍ وعصيدةَ دخنٍ متجمّدة، تبتلع قبل أن تمضغ، ثم تزدرد مزيدًا.

وفجأةً انتُزع الوعاء من يديها. ظنّت أول الأمر أن وحشًا من الكلاب خطفه، لكنّ مخالب عظمية كانت تقبض عليه. أكان ذاك الشعر الطويل الأشعث واللحية الملبّدة يخفيان رجلًا؟ حدّقت مقزَّزةً وعاجزةً عن الحركة في المخلوق الذي يلعق الوعاء حتى فرغ، ثم زحف على أربعٍ وهو يجرّ سلسلةً وثِقلًا من حديد، يشقّان أثرًا عميقًا في التراب.

«هل يعجبكِ دُبنا؟»

التفتت لالو مذعورة. كان رجلًا ضئيل البنية غائر العينين يقفز بخفة من منصة النوم بجانبها. منذ متى يراقبها؟ هل خمن أنها تحاول الهرب؟ اقترب.

قالت لنفسها: ألهِيه بالكلام... بالكلام. قالت وهي تُمسك صوتها لئلا يرتجف: «ليس دبًّا... بل رجل».

ضحك: «كان رجلًا يومًا ما... أما الآن فهو دبّنا منذ سنين. يسلّينا برقصه وحيله في شتاءاتٍ طويلة حين يحبسنا الثلج. لكن لن نحتاجه بعد اليوم ما دمنا قد ظفرنا بكِ.»

تكلّفت لالو ضحكةً باهتة. «أنا؟»

«أجرينا القرعة لنرى من ينالك أولًا. ولسوءُ حظّي أني الثالث والأربعون» ثم وثب فجذبها إليه. «إلا إذا...»

انفجر الباب. وصرخ رجل: «جنود!»

وأثناء تدافع اللصوص الهائج، وجدت لالو نفسها مقيدة في قبضة رجلٍ متوسطِ القامة، في منتصف العمر، له شاربٌ رمادي طويل متدلٍّ.
غرست كعبيها في التراب وتوسلت: «اتركني اذهب!»
رفعها عن الأرض وقال بغلظة: «صدقيني، أنتِ معنا أفضل حالًا مما لو كنتِ مع الجنود».
عادت، مرةً أخرى، محصورة بين اللص الذي كان يمسك بها وقَبَّة السرج. كانت تُصغي إلى تقرير الكشّافين: الجنود في كل مكان، وهؤلاء «أبناء السلاحف»—كما وصفوهم—يبدون عازمين على الإقامة.
قال تشين: «لن تطول هذه الحملة التطهيرية، لا تطول أبدًا».
سأله نائبه: «وأين نبيت حتى يرحلوا؟».
رد تشين: «عصابات «غاو» و«ما»، لديهم مخيمات قريبة، نلوذ بهما».
وأضاف رجلٌ طويل نحيل: «ومعسكر «وو» ليس ببعيد».
قال تشين: «خُذْ رجالًا معك واستطلع الحال عندهم.» ثم أشار إلى غابة كثيفةٍ تبعد نحو نصف لي[5]: «سننتظرك هناك».
آوتهم الأشجار من وهج شمس العصر الحارّة، لكنها لم تحمهم من أسراب البعوض وذباب الخيل. كانت الخيول، ومناخرها ترتعش، تهزّ رؤوسها وتجلد ذيولها في الهواء، غير أنّ أعناقها وسيقانها وبطونها سرعان ما امتلأت بلدغات مؤلمة. شعرت لالو بانتفاخاتٍ ترتفع حيثما انكشف جلدها. صفعت وخدشت حتى غدت أصابعها لزجة بالدم، لكن الحِكّة وطنين الحشرات المزعج لم يتوقّفا.

---

[5] لي :Li وحدة قياس= ٢٥٠ متر. المترجم

راحت تتفحّص اللصوص، تتساءل إن كان بوسعها أن تزحف مبتعدةً من دون أن يلحظها أحد. كانت بقع الدم وبقايا الحشرات المسحوقة تنتشر على ظهورهم ووجوههم، التي تلألأت بفقاعاتٍ كبيرة من العرق. أخذوا يشتمون ويصفعون أنفسهم بغضب.

قال أحدهم مقترحًا: «نُشعل نارًا فتتخلّص من هذه الديدان الماصّة للدم».

«وتجلب الجنود علينا كالدود!»

«إن لم يكونوا صُمًّا، أيها الأحمق، فسيسمعون صهيل الخيول وضرب حوافرها».

«لكن الدخان يُرى من مسافة أبعد».

«قد يحسبونه دخان معسكرٍ للجنود».

«وإن جاؤوا؟ أَنُقَدِّم لهم نبيذًا حارًّا؟»

استدار تشين إلى الرجل الذي قبض على لالو عندما داهمهم الجنود:

«دينغ... أوقد نارًا».

تذمر دينغ: «الحر لا يطاق».

قفزت لالو واقفة، ستطمئن شكوك دينغ إن قامت بجمع الأغصان من مكان قريب، ثم تبتعد أكثر فأكثر حتى تختبئ في الغابة. قالت: «سأساعدك».

ركلها تشين أرضًا: «لتطيري من القفص وتفسدي متعتنا؟» ضحك الرجال.

ارتمى فوقها رجل بدين: «ما رأيكِ في تذوق لحم البجع؟» سخر وهو يمزق أزرار سترتها.

قاومت لالو، لكنها كانت عاجزة أمام ضخامته. غرزت أطراف الحلي الحادة المخبأة في حزامها بطنها، وشعرت بانتفاخ صلب يضغط على فخذها.

لهثت: «ابتعد عني!»

ابتسم بخبث وأصابعه الخشنة تنهش لحمها «وأفوتُ فرصة افتراس عذراء؟»

صرخ دينغ: «هيه يا تشُوُو! ابتعد عنها. رقمي قبلَ رقمك!»

وأضاف آخر: «ورقمي أنا كذلك!»

انقضّ الرجلان على تشُوُو وجذباه عنها.

قال دينغ بسخرية «جوه، هو صاحب الرقم الأدنى، فهو قبلك».

احتج تشُوُو: «لكن جوه مع الكشّافين. لنُعد القرعة».

ضحك دينغ بتهكم «وأضحي برقمي الأدنى؟ مستحيل. أنت تخشى أنها حين تصل إليك تصير كالبطاطا الحلوة، أكثر مما يحتمله أمثالك ممن خصاهم بحجم البعوض!»

وثب تشُوُو إلى قدميه وهجم على دينغ: «سأقتلع لسانك، يا ابن العاهرة!»، قفز تشين بينهما: «أشعلوا النار قبل أن تنزف الخيول حتى الموت. القرعة ستبقى كما هي».

عاد الكشّافون عند الغروب. وقبل أن يترجّلوا عن خيولهم، عرفت لالو من ملامح وجوههم أنّ الأمر وخيم. خفق في صدرها بصيصُ أملٍ صغير؛ فإن كان الخبر سيّئًا على اللصوص، فلعلّه يكون خيرًا لها.

قال جوه: «لقد قُضي علينا. مخيم «وو» مهجور، و«ما» يسوق رجاله نحو منغوليا، أما عصابة «غاو»، فالمساكين بوغتوا وجميعهم قتلى».

حسم تشين الأمر: «نختبئ في شنغهاي».

قال نائبُه: «ماذا سنفعل والجنود ينتشرون في كل ناحية، لا غارات ولا نهب. من أين نأكل؟»

رد تشين دون تردد :«سنبيع العاهرة».

ودون توقف للنقاش أو الجدال ،تابع تشين قائلا: «ستقل احتمالية القبضعلينا إذا سافرنا في مجموعات أصغر».

ثم مضى يقسّم الرجال إلى جماعاتٍ أصغر، ويُعيّن لكلّ جماعةٍ قائدًا.

همس دينغ لـ لالو: «تعالي هنا أيتها الأخت الصغيرة».

لم تتحرك.

كرر بإلحاحٍ أشد: «تعالي... اركبي معي. أستطيع مساعدتك.»

أحكمت لالو قبضتها على سترتها الممزقة «مثلما ساعدتني بجلبك لي هنا؟»

قال وهو يلين صوته: «لا بد أن تثقي بي. سنسير أيامًا قبل أن نبلغ شنغهاي، وستحتاجين إلى حامٍ... كما احتجتِني قبل قليل حين هجم عليك تشُوُو.»

نعم... لقد أعانها بالفعل يوم وثب عليها تشُوُو، ثم ظل قريبًا منها ينتظر عودة الكشّافين. حسبته يراقبها لئلا تهرب. أم الآن...؟

قال تشين: «العاهرة تركب معي».
جذبها دينغ نحوه وقال متملقًا: «وفِّر على نفسك العناء، سأحرص على ألا تضيع حقيبة ذهبنا الصغيرة».
ضحك تشين محذرًا: «ولا تتلف!»
أومأ دينغ: «ولا تتلف.» ثم سحب لالو إلى الشجرة حيث حصانه ينتظر.

الفصل الثامن

شقّوا طريقهم بعناء في دروب وعرة، يتبعون مسالك الغزلان الضيقة التي تمتد فوق الحواف وعلى سفوح الجبال، صعودًا لا ينقضي وهبوطًا لا ينتهي، يتفادون القرى والحصون والمعسكرات. ولم يكونوا يبرحون السير إلا إذا بلغ الإعياء من الخيل مبلغًا لا يُطاق. وبينما كانت الخيول ترعى، كان اللصوص المتعبون المرهقون الجائعون يُفرغون ضيقهم في مضايقة لالو. فإذا غلظت أيديهم أو همّوا أن يجبروها على ما لا تريد، تصدّى لهم دينغ وردعهم، مذكّرًا إيّاهم بأنّ مصائرهم معلّقة بها، وبالثمن الذي ستجلبه لهم.

كان دينغ أيضًا هو الذي ظفر برقعةٍ من شِباكٍ خشنة يقيها لسع البعوض، وهو الذي ضمن لها نصيبًا من الطعام الذي ينتزعونه من حطّابين وفلاحين مذعورين في القرى النائية. دينغ... أهو صديق يرى فيها إنسانةً لها كرامة؟ أم عدوٌّ يحرس مصلحته، يصونها كما يصون المالكُ ملكه؟ كان عليها أن تعرف.

بين تواتر الليلٌ والنهارٌ، والنعاسٌ المختلسٌ في فُتات اللحظات، تاهت الأيام من بين يدي لالو، وانتابها خوفٌ ملحّ أن يبلغوا شنغهاي قبل أن تجد فرصةً لمخاطبة دينغ من غير أن تُلتقط كلماتها. غير أنّ الفرصة جاءت أخيرًا، في ظهيرةٍ لافحة القيظ، وهم يصعدون واديًا ضيّقًا اختنق بعشبٍ سيفيٍّ حادّ، وشجيراتٍ شوكية، وعرائش متشابكة؛ إذ تخلّف جواد دينغ، وقد أثقلته الحمولة.

انتظرت بلهفةٍ أن يتّسع ما بينها وبين بقية السرب، حتى إذا اتسعت المسافة، انفرجت في صدرها راحةٌ ممزوجةٌ بالتوتر، واندفعت الكلمات من فمها دفعةً واحدة: «لماذا أرغمتني على المجيء معكم، وقد كان بوسعي أن أهرب؟».

سألها دينغ: «ألم يدخل الجنود قريتكم قط؟»

«بلى».

«إذن تعلمين لِم لم أتركِكِ تذهبين».

خطر لها ما سمعتْه عن الجنود الذين حلّوا بقريتها. كانت يومئذٍ صغيرةً لا تثبت في ذاكرتها تفاصيل سلوكهم، لكنها تذكرت همس الفلاحين الساخط لأبيها قبيل غارة اللصوص مباشرة، وتذكرت صوت دينغ وهو يرمقها باتهامٍ: «أنتِ معنا أفضل حالًا من أن تكوني معهم». أترى الجنودَ شرًا كاللصوص؟ أم أشدّ كما يزعم دينغ؟ هزّت رأسها. ليس هذا هو المهم؛ سواءً كانوا أسوأ أو أفضل. المهم أنّ دينغ يظنّ أنه ساعدها على الهرب منهم. فهل ينقذها الآن أيضًا؟

اقترحت بحذرٍ، كمن يمدّ يده إلى نار: «كان يمكنني أن أختبئ من الجنود، ثم أهتدي إلى قريةٍ أو مدينة».

رد دينغ بسخرية وهو يحاكي نبرتها الحذرة: «فتاة مثلكِ ليس لديها فرصة واحدة من عشرة آلاف لتسافر وحدها بسلام. ولكن لنفترض أنكِ بلغتِ قرية أو بلدة من غير أن تُختطفي أو تُغتَصبي أو تُقتلي، ماذا كنتِ ستفعلين؟»

«كنت سأجد عملًا».

«عملًا بماذا؟»

فكرت لالو؛ أي عمل؟ لا أحد سيستأجرها عاملة في الحقل، وأصابعها التي اعتادت المعول لم تعد تجيد الإبرة، ولم تتعلم الطبخ قط. ماذا بقي؟ الأطفال. كانت تحب رعاية إخوتها، وكانت بارعة في التعامل معهم، وكانت قادرة على انتزاع ابتسامة منهم عندما يعجز الآخرون عن ذلك.

قالت: «مربية.. كنت سأعمل مربية لعائلة ثرية».

قال دينغ بصبر: «وقبل أن تعي ما يحدث، ستجدين الحياة قد استقرّت في جوفك من ربّ الدار أو أحد الخدم»

احمر وجه لالو خجلًا: «لقد أحسن والداي تهذيبي».

قال دينغ بهدوء: «ليس الأمر تهذيبًا. لن يكون لديكِ خيار، تمامًا كما لم يكن لي أو لغيري خيار في أن نصبح لصوصًا. وعندما يُكتشف أمر حملكِ، ستكونين أنتِ الملامة وتُطردين للشارع. ماذا ستفعلين حينها؟»

تجاهلت لالو سؤاله وسألت مذهولة: «كيف تقول إنه لم يكن لك خيارٌ حين صرتَ لصّاً؟ أنتَ متعلم... يتبدّى ذلك من أسلوب كلامك، ومن أدبك. فيك تهذيبٌ ورقّة... لست كالباقين. ولا كأنا».

تردد قليلًا ثم قال: «كنتُ قاضيًا».

صمت لفترة قبل أن يكمل بصوت مثقل بالحزن والغضب: «تبدّل مفاجئ في الوضع السياسي أجبرني على الفرار للنجاة بحياتي. أرسلتُ زوجتي وأطفالي لأهلها طلبًا للأمان، وانضممت للصوص سعيًا للثأر».

«قاضٍ!» التفتت لالو نحوه بدهشة «هل يعرف تشين؟»

«بالطبع».

«ألا يخاف مما قد تفعله إذا عدتَ قاضيًا».

ضحك دينغ بمرارة: «الماء إذا انسكب لا يُجمع».
قالت بإلحاح: «ماذا بعد أن تنال ثأرك؟»
رد دينغ بقسوة: «أتظنين أنني مختلف عنهم؟ لستُ كذلك. تشين، تشوو، جوه.. كلنا سواء. خارجون عن القانون، ولن نكون أبدًا أي شيء آخر».
ثم لان صوته: «يا لالو، أعلم أن أبواكِ لم يربياكِ لتُباعي لدار هوى، كما لم يربني والداي لأكون لصًا لكن ليس أمامنا خيار سوى اتباع الاقدار التي خطّتها لنا السماء».
لم تجبه لالو. ثبتت عيناها إلى الأمام، والكلمات تنحسر في صدرها كالموج إذا ارتدّ. غير أنها، وهي تصعد الدرب الحاد نحو الربوة، حيث ينتظر تشين والآخرون، عقدت في سرّها عهدًا لا رجعة فيه: لن تقبل أبدًا الطريق الذي يزعم دينغ أنّ السماء خطّته لها.

انتظرت حتى أرخى الليلُ سدولَه على المعسكر النائم، راجيةً أن يطمس شخير اللصوص، وصهيل الخيل المتقطع، طقطقةَ الحصى المتكسر تحت قدميها. تسللت بمحاذاة الكشّافين القائمين على الحراسة. ومضت بطيئةً، حذرةً، تفتل الطريق فتلاً حتى انتهت إلى قمة الوادي الضيق الذي كابدته الخيل قبل ساعاتٍ بصعوبة. ولما بلغته كان القمر قد ارتفع، فكسا الأعشاب اليابسة والشجيرات المغبرة طلاءً لؤلؤياً أبيض. أغمضت عينيها لحظة، وتمتمت بصلاة إلى «قوانيين»، الرحيمة، ثم بدأت الهبوط.

غير أنّ الدرب كان أشدّ انحدارًا وخطورةً مما حفظته ذاكرتها. تمشي حينًا وتزحف حينًا، قابضةً بيدٍ على الحليّ المخبأة في حزامها، تمدّ الأخرى لتتّكئ وتستند. غير أن الأشواك مزّقت راحةَ يدها، كتمت صرختها، ثم تراجعت فجأة، فانزلقت وسقطت.

وخزت شظايا الحصى سروالها القطنيّ الرقيق، امتلأ فمها ومنخريها وعينيها بالغبار والأوساخ، فاختنقت بينما تتدحرج على المنحدر السحيق. وبدون وعي تشبثت بشجيرة، فتعلقت أصابعها بعيدان هشّة انكسرت تحت ثقلها. تسلّخت جوانب كفّيها وساقيها. ثم شعرت بكاحلها يعلق في حفرة، غرست قدميها في محاولة يائسة لانتزاع صخرةً قريبة. فكاد الجهد يخلع ذراعيها من مفاصلهما، حتى ارتدت جانبًا، فارتطم رأسها بحجر صخريّ عظيم، وانحشرت كتفها اليمنى ووركها في شقّ صخري.

أذهلتها الصدمة، فاستلقت بلا حراك تتنفس بصعوبة. شيئًا فشيئًا تلاشى الظلام، وتفاقمت آلام العضلات الممزقة واللحم المكدوم. تناهى إلى سمعها همهمات مكتومة. فوقها، عند حافة الوادي، توزّعت مشاعلُ الصنوبر القِطِرانيّ تومض كنجومٍ ساقطة، مُعلنة أن البحثٍ عنها قد بدأ.

مالت إلى الخلف، فإذا بالصخر الصلب يتلاشى إلى فراغٍ أسود، وسقطت مرةً أخرى، لتهوي في مستنقع طريّ كريه الرائحة.

أدركت أنه سقطت في كهفٌ... أم وكرٌ؟ انتفضت في رأسها حكاياتٌ سمعتها عن أطفالٍ اختطفتهم النمور. هبتّ واقفةً. مدت يديها أمامها تتلمّس الطريق، وتتعثر نحو بصيص الضوء الذي سقطت منه.

لامست أصابعها الجدار. فتلوّت ألماً، أمالت ثقلها على كفّيها الملتهبتين، تستدل بالجدار وتستعين به بينما تخطو نحو خيط الضوء.
شعرت بأجساد صغيرة رخوة تتلوّى تحتها، وسمعت طحنًا غريبًا كأنه صرير مئات الأسنان الدقيقة. أطبقت فكيها كي لا تصرخ، وانخفضت قرفصاء. زحف القشعرير على جلدها، وكادت تتقيأ حين امتزجت رائحة الروث النتنة بنتن الخوف. مسحت أجنحةٌ شبحية وجهَها وعنقَها. أهي أرواح؟ إذن ماذا قد تكون تلك الكائنات المتكدّسة على الجدران؟
من خلال الشقّ كان ضوء القمر يستدعيها، يعدها بالنجاة من هذا الفخّ البشع. جرّت نفسها نحوه. غير أن قشعريرةً عنيفة كانت تعصف بجسدها المحموم المبلل بالعرق، فتُبطئها. ثم، بغتةً، انطفأ خيط الضوء في هدير أجنحةٍ خافقة، وإذا هي محبوسةٌ في ظلامٍ كامل. عندها انفجرت بالبكاء، وسقطت بلا حول فوق أرض الكهف الملطخة بالوحل.
وكما اختفى الضوء فجأةً، عاد فجأةً؛ رأت خفاشٌ مرسومٌ كظلٍّ أسود في الشعاع الأبيض الشاحب. خفاش... رمزُ الحظ السعيد. أهي إشارةٌ من الآلهة؟ هبّت أجنحةٌ أخرى تروح وتجيء، تسدّ الفتحة. خفافيش! إنّه كهفُ خفافيش! اجتاحها الارتياحُ وانفجرت بضحكات مكتومة. تخيّلت وجوه إخوتها وهي تروي لهم الحكاية؛ كيف سيقهقهون! لكنّ أحدًا منهم، بالطبع، لن يسمعها.
كانت قد وعدتهم: «كونوا هادئين وإلا فلن أعود». تُراهم ظنّوا أنها اختفت بسببهم؟ أم أخبرهم أبوها بأنه باعها لقاءَ البذار؟

«لا بد أن تكون العاهرةُ في مكانٍ قريب».
انكمشت لالو كأن صفعة هوت على صدغها. كيف اقترب اللصوص بهذه السرعة؟ لم تُزِح عينيها عن الفتحة الوحيدة التي يمكنهم النفاذ منها، تراجعت القهقرى، تمشي كسرطانٍ نحو أقصى أعماق الكهف. كانت أطرافها المخدوشةً، الموجوعةً من الركوبِ الطويل ومن عثرتها الأخيرة، تصرخ احتجاجًا، لكنها لم تجرؤ على التوقّف. أخذت ترتجف، وتنزلق، وتشدّ نفسها شدّاً، حتى خرّت على ركبتيها، زحفت إلى أن اصطدمت بصخرةٍ صمّاء.
هناك، ملتصقةً بالصخر الذي لا يلين، ضمّت ركبتيها الموحلتين إلى صدرها وهمست: «قد يفتشون أيامًا ولن يعثروا عليّ هنا».
راحت تكرر الجملة مرارًا وتكرارًا، كما تفعل راهبة بوذية وهي تدير سبحتها. ومع الوقت، سحرتها همساتها المتتابعة، ارتخت ذراعاها المشدودتان، وراحت في نومٍ عميق.

أيقظها صريرٌ حادّ نافذ، وخفقُ أجنحةٍ هائج. فركت عينيها. خلال نومها استحال ضوء القمر عند فتحة الكهف إلى شعاعٍ ذهبي. ثم أدركت أن ذلك الشعاع الذهبي ليس ضوء الشمس، بل شعلة صنوبرٍ.
تسمّرت في مكانها، تحدّق، اقترب اللهب حتى أضاء فوقها إضاءةً أغشت عينيها، ثم سمعت دينغ يقول: «أما فهمتِ؟ لا يمكنك الهروب من قَدَرِكِ».

الفصل التاسع

توقف سائق العربة فجأة، فاندفع تشين ولالو إلى الأمام بعنف.
نادى بصوت أجش: «دار المتعة السماوية».
ترجلت لالو إلى الشارع الحارّ المترب، امتد أمامها جدار هائل، بارتفاع قامة رجلين، رفعت بصرها إلى شظايا الزجاج الحادة المغروسة في قمته.
تساءلت؛ هل وضعت لصدّ اللصوص؟ أم لمنع السجينات من الهرب؟
نهرها تشين وهو يقودها نحو منزل حارس البوابة: «هيا، هيا، توقفي عن التحديق كقروية غِرّة».
تقدمت مثقلة بنظرات الحارس، كما أثقلت عليها السترةُ البنفسجية الفاقعة، والسروالُ المشمشي، وطبقاتُ المساحيق التي ألزمها بها تشين.
قال تشين متبجحًا: «دجاجة صغيرة جديدة جاهزة للنتف».
ابتسم الحارس بخبث، ثم فتح بابًا جانبيًا صغيرًا. قال: «ستُسَرّ المدام بها».
لم تسعد لالو بما انكشف لعينيها من مروجٌ خضراء فسيحة تتناثر فيها حدائقُ الصخر، وبركُ اللوتس المحاطة بالصفصاف الباكي في رشاقةٍ مهيبة، والدارٌ الرئيسةٌ الباهرةٌ ذات الدرابزين الخشبيّ المحفور، والأعمدةٍ القِرْمزيّة، والسقفٍ المطليٍّ بالزجاج الأخضر؛ بل أحكم عليها الخوف. كانت تعلم أنّ دينغ سُرَّ إذ أقنع تشين بإحضارها هنا؛ فقد همس لها، في آخر تواطؤٍ: «أعرف من أيّام عملي كقاض، أن هذا البيت لا يخدم إلا السادة الأثرياء المشهورين المهذّبين.افعلي ما يُؤمر به، وحاولي الإرضاء، ولن يطول بك المقام حتى تُشترَي وتُثبَّتي مُحظيّةً، بل لعلّكِ تؤخذين زوجةً ثانية في دارٍ ثريّة».

غير أن لالو كانت تُخفي خطةً أخرى، تقوم على جعل ثمنُها متدنيًا ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

انحنت كأن ألماً فاجأها، أدخلت يدها تحت سترتها، تتحسّس الانتفاخ الذي تُخفي فيه الحُليَّ عند حزامها، تستوثق من وجوده. غير أنه بدا لها ضئيلًا بائسًا أمام بهرج «دار المتعة السماوية».

صاح تشين بخشونة: «أسرعي».

أنزلت لالو يديها من خصرها وأشارت إلى قدميها: «هذه الأحذية أضيق مما أحتمل».

قبض تشين على ياقتها بعنف، فصاحت: «أنت تفسد سترتي الجديدة!»

حدّقها شزرًا وزجرها محذرًا بينما يدفعها عبر البوابة: «لا تعبثي مع التنين... حركة واحدة خاطئة وستتمنين لو أنكِ لم تولدي قط».

قادتهما خادمة متغطرسة، متجاوزة كلاب الحراسة الشرسة، إلى بهو بارد غارق في الظلال. ذو جدران مكسوة بالخشب، سقف مزخرف، وفوانيس زجاجية ملونة، وأرضية مغطاة بسجاد سميك يخنق وقعَ الخطى.

كل ذلك أكدّ أسوأ مخاوف لالو. وإذ خاب أملها، سمحت لتشين أن يدفعها لتجلس خلف مقعد من خشب الأبنوس الأسود، محفورٍ باتقان شديد.

قال تشين يلقنّها: «تذكّري الآن: عندما تبتسمين، لا تُظهري أسنانكِ. إذا طلبت منكِ المدام أن تمشي، فخذي خطوات صغيرة متأنية حتى لا تلاحظ أقدامكِ الكبيرة. إذا قدمت لنا طعامًا، فلا تلتهميه بنهم، بل تناولي لقيمات رقيقة صغيرة».

خرجت امرأة في منتصف العمر، طويلة القامة، أنيقة الملبس، من خلف ستارة مزدوجة من الحرير المطرّز. سألت بفتور لاذع: «ألهذا الحد هي جاهلة حتى تحتاج تلقينًا في اللحظة الأخيرة؟»

«لا، لا، حاشا وكلا»، قال تشين وهو يستدير ليواجهها وينحني.

التفتت المدام إلى لالو وقالت: «اخرجي من وراء الكرسي كي أراكِ».

تشجعت لالو بابتسامة المرأة الدافئة، فخرجت بثقة.

همس تشين من بين أسنانه: «خطوات صغيرة».

قالت المدام: «قدماكِ غير مربوطتين.. لماذا؟»

«كنتُ...»

قاطعها تشين فورًا: «أؤكد لكِ أنهما رُبطتا من قبل ويمكن ربطهما مجددًا بسهولة». ثم تحت نظرة المدام الجليدية، خفت صوته حتى تلاشى.

قالت المدام بحدة: «أنا سألت الفتاة».

أوضحت لالو «كنتُ مطلوبة للعمل في الحقول».

تقدمت المدام نحو طاولة مستديرة مطلية بالورنيش، تتوسط كرسيين من خشب الأبنوس. غمست قطعة قماش مربعة في إناء ماء معطر. عصرت القماش بأصابعها الطويلة المدببة، ومسحت وجه لالو تزيل آثار الحمرة والصبغة ومسحوق الأرز، فيما كان تشين يحوم في قلق.

تمعنت وقالت المدام أخيرًا: «الفتاة تبدو ميتة جوعًا».

قال تشين بسرعة: «نحن من الشمال، نعاني من مجاعة بسبب الجفاف الشديد. ولأكون صريحًا، والدا الفتاة، أخي وزوجته، توفيا جوعًا. منذ أن

تبنيناها أنا وزوجتي، ونحن نقدم لها ما نستطيع، لكننا فقراء بدورنا، ولهذا نضطر لبيعها رغم ما يسببه لنا ذلك من لوعة وحزن».

قالت المدام: «وفّر عليّ حكاياتك الخيالية.»

أخذ تشين ينحني وتراجع حتى حطّ على طرف المقعد المقابل،

جلست المدام ثم تناولت غليونها الفضي، فتحت علبةَ التبغ. وبملقطين صغيرين من فضة التقطت قُبَيْضةً من التبغ، ودستها في الحجرة، ثم أشعلت، وأخذت نفَسَين على مهل، وأفرغت التبغ المحترق... وأعادت الكرّة.

شعرت لالو ببارقة أمل وهي تراقبها، فقد رأت أباها يتصرف بهذا البرود نفسه حين يريد بخس ثمن ما يشتري. تظاهرت بتسوية سترتها وربّتت على مخبئها الصغير. إن كانت السيدةُ حاذقةً في المساومة، فلعلّ تلك الحُليّ تكفي لفداء حريتها. تململ تشين، وفغر فاه وأطبقه كسمكةٍ علِقت في شبكةٍ تبحث عن هواء. مسح وجهه بظاهر يديه وأكمامه. ثم انفجر أخيرًا:

«هي نحيلةٌ نعم... لكن ذلك يزيدها رهافةً، كخزفٍ نفيس».

قالت المدام بجفاف: «زبائنُنا لا يهتمون بالخزف، بل باللحم والدم».

«أوه، ستجدين وفرة من كليهما.. وفي المواضع المناسبة أيضًا».

«إذًا... فهي ليست بِكرًا؟».

تلعثم تشين مذعورًا: «أوه لا، لم أقصد التلميح... أوه، كيف يخطر ببالك...؟ بل هي بِكر، يقينًا. كانت زوجة أخي امرأة تقيّة، وقد تربت الفتاة تربية صارمة».

«كلكم تقولون ذلك، لكن كيف أسترد مالي إن لم تكن؟»

«سأعطيكِ عنواني في المدينة».

«لقد قلتِ للتو إنك من الشمال».

«اسمعي، إن كنتِ لا تريدين الفتاة، فقولي ذلك ببساطة. هناك الكثير من المدامات اللواتي سيرغبن بها»، قال تشين بانفعال.

وضعت المدام غليونها جانبًا: «ربما، غير أن لا واحدة منهن يمكنها دفع الثمن الذي أستطيع دفعه. أليس هذا هو سبب وجودك هنا؟»

«أطلب ثمانين ألفًا نقدًا»

صرخت لالو وقد أفزعها الرقم: «أعطيتَ أبي حقيبتين من البذار لا تساويان أكثر من خيطٍ صغيرٍ من النقود!» وثب تشين من مقعده وصفع لالو.

قالت المدام بهدوء: «أنت تُتلف بضاعتك، ثم إن السعر الذي تطلبه مضحك. فحتى الإلهة لا تُباع بهذا القدر».

استطال تشين في وقفته، وربّت بسبابته على صدره المنتفخ. وقال: «أنا أعرف كم تأخذون لليلةٍ واحدةٍ مع بِكر».

تجعد جبين المدام في اشمئزاز بالكاد تُخفيه، وقالت ببرودةٍ قاطعة:

«هذا ليس من البيوت التي ترتادها. بِكرًا كانت أم لا، لا يمكننا أن نقدم لضيوفنا فلاحة ساذجة يمكن الحصول عليها مجانًا من حجرات الخدم. قبل أن نُقدِّم «ابنة أختك» بوصفها «ابنة المسرات»، ستحتاج إلى وقت ومال ينفق عليها لتعليمها الغناء والرقص وجميع فنون مهنتها الجديدة»

ثم صمتت للحظة وأتبعت: «أعرض خمسة عشر ألفًا نقدًا».

اندفع تشين كالاعصار نحو الباب قائلاً: «هيا بنا.. لنذهب».

أعملت لالو ذهنها في سرعة، إذا ذهبت مع تشين، فسيأخذها على الأرجح إلى مدام قذرة فجة كصاحبة النُّزل التي باتا عندها الليلة الماضية. سيكون ثمن البيع أقل، وهو مبلغ قد تغطيه قطع حليها الصغيرة، لكن هل تستطيع الوثوق بتلك المرأة ألا تسرقها؟

تأملت وجه المدام الجامد؛ كانت عيناها تلمعان كإبر حادة، ومع ذلك كانت لمستها رقيقة، وحديثها برغم شدّته كان لطيفًا. قد تكون قاسية، لكنها ستكون عادلة.

هزها تشين بعنف: «هيا بنا».ترددت.

غاصت أصابعه في كتفيها: «تحركي».

«لا، لن أفعل»

«أنتِ ملكي، تفعلين ما آمرك».

وكأنهما لم ينطقا حرفاً، قالت السيدة بهدوء: «عشرون ألفاً».

رد تشين قائلاً: «سبعون ألفًا»

«خمسة وعشرون ألفًا»

«ستون ألفًا»

قالت السيدة، وهي تُدير السهم إلى قلب حجته: «قلتَ بنفسك إن في الشمال مجاعة. قريبًا ستُباع فتياتٌ مثلها بثلاثة أو أربعة آلاف نقدًا... وربما بكيسٍ واحدٍ من البذار».

قال: «خمسون ألفًا».

قالت: «ثلاثون ألفًا. هذا هو عرضي الأخير».

أفلت تشين كتفي لالو، وقال متبرّمًا: «حسنًا... كأنني أهبها لكِ بالمجان».

مدّت المدام يدها إلى الصندوق الحديديّ بجانبها، وأخذت تعدّ خيوطَ النقود. وبينما هو لا يزال متذمرًا، خطفها من يدها وخرج.
ما إن أُغلق الباب خلفه، حتى أخرجت لالو أقراطها الذهبية والفضية، وسوار اليشم، وزرّ اليشم من تحت سترتها. وسط فخامة البهو، بدت الأقراط باهتة، واليشم أقل خضرة. فركتها بملابسها الجديدة ورفعتها أمام المدام.
قالت: «أريد أن أشتري نفسي».
نهضت المدام. وقالت بينما تُرشد لالو إلى المقعد الأسود المقابل: «اجلسي».
رفعت لالو المجوهرات: «إذا لم يكن ذلك كافيًا، سأعمل على سداد المبلغ المتبقي».
أحكمت السيدة قبضتها على يديّ لالو، وأغلقت أصابعها على الحليّ، ثم أنزلت قبضتيها برفقٍ إلى حجرها. وقالت: «احتفظي بحُليّك؛ قد تحتاجين إليها يومًا».
تجهم وجهُ لالو، وقالت بحرقة: «إذا كانت لا تشتري حريتي، فأي نفع لها؟»
مرّ في ملامح السيدة ومضُ ألمٍ خاطف. ثم سألت: «الرجل الذي باعك كان يناديكِ لالو... أهذا اسمك؟».
أومأت لالو مقطّبة.
«لكنه ليس عمكِ» هزت لالو رأسها.
سألت المدام: «كيف انتهى أمرُ رجلٍ ليس عمك إلى أن يبيعك؟»
فردت لالو أصابعها، حدقت في المجوهرات التي اعتقدت أنها سفينة نجاتها، وفي بقع الدم حيث اخترقت أطراف الأقراط الحادة راحتيها. إذا لم تفلح الحلي البراقة في شراء حريتها، فربما تنجح قصتها. اختارت كلماتها بعناية،

روت كيف انتزعها تشين من أبيها، وكيف حاولت الفرار، وكيف أُمسكت، وكيف تلقت الضرب.
في الصمت الذي تلا، سمعت في ناحيةٍ من الدار أوتارَ عودٍ تُنتزع برفق. كان اللحن بطيئًا نائحًا، ينهمر كقطرات الدمع. أتُرى ستسمح لها السيدة بالذهاب؟ أم ستسمعها فتاة أخرى تبُاع في وهي تعزف؟
سألتها المدام فجأة: «هل تعرفين الغاق؟»
أجابت لالو في حيرة: «إنه طائر يأكل السمك».
«هل رأيتِ كيف يستخدمها الصيادون لصيد السمك؟»
«يضعون حلقات حول أعناق الطيور حتى تتمكن من اصطياد السمك دون ابتلاعه. ولكن ماذا...؟»
قطعتها المدام «أنا كطائر الغاق، لدي شخص أعمل لديه. لقد رأيتني أدفع ثمنك، لكنكِ لستِ ملكي أفعل بكِ ما أشاء».
كافحت لالو دموعها. هل قامرت مثل أبيها وخسرت؟
قالت بانكسار: «لا أفهم».
أشارت المدام بأصابعها المزينة بالخواتم إلى الستائر الحريرية الغنية، وأطباق الفاكهة، والمزهريات العتيقة، وحُليّ اليشب والعاج المنحوتة التي ملأت المكان. وقالت: «كل هذا ثمرة جهدي، ولكنه ليس ملكي، تمامًا كما أن السمك الذي يصطاده الغاق ليس ملكه. أنا أعمل لدى مسؤول رفيع المستوى يهبني حمايةً أحتاج إليها كي أعيش. لكنكِ محظوظة لأن تشين جاء بكِ إلى هنا اليوم».

قفزت لالو من كرسيها «أتعنينَ أنكِ ستسمحين لي بشراء نفسي؟»
قالت المدام: «يا لالو، فيكِ قوة عظيمة.. لا تهدرِيها في محاربة المستحيل».
وأشارت إلى لفافة معلقة على الجدار: «انظري إلى ذلك الخيزران: قويّ، لكنه ينحني للريح... وكذا ينبغي لك أن تتعلمي»..
صاحت لالو «إذن لماذا قلتِ إنني محظوظة؟»
«عادةً، لا يمكنني شراء فتاة هزيلة، ذات بشرة داكنة وقدمين كقوارب التنين، لكن اليوم لدي مشترٍ خاص لا يبالي بهذه الأمور، شخص سيأخذكِ إلى أمريكا».

الجزء الثاني

١٨٧٢

Part Two



1871

الفصل العاشر

كان مستودع الجمارك في سان فرانسيسكو خافت الإضاءة مثل قاع السفينة، غير أن الفوانيس لم تكن تتأرجح، وهواؤه رغم عفونته من تزاحم الأجساد غير المغسولة، لم يكن يفوح برائحة القيء أو الفضلات البشرية. وإذا كان هناك شيئًا قد تغير، فهو الصياح الصادر عن مئات الأصوات الذي ازداد صخبًا، غير أنّ في الصياح حياةً ولهفة، وفي الهرولة وراء الأمتعة والأقرباء والأصحاب توقُّعًا فرحًا مشعّاً.

بينما كانت لالو تنتظر دورها للمثول أمام ضابط الجمارك، شعرت بعدوى هذا الحماس المتوتر. سرت في جسدها رعدة قوية بارقة مثل البرق، وهي الرعدة نفسها التي شعرت بها حين أخبرتها المدام في شنغهاي أنها ذاهبة إلى أمريكا، حيث جبال الذهب التي تقع في الطرف الآخر من المحيط الهادىء العظيم.

قالت المدام يومها: «لم أذهب إليها قطّ، لكن لي ما—المرأة التي اشتريتُك لها—تقول إنّ الذهب هناك في كل مكان: في الطرقات، وفي التلال والجبال، وفي الأنهار والوديان... ذهبٌ ينتظر من يلتقطه...».

همست لنفسها مُتجاهلة بقية نصائح المدام: الذهب سيجعلني غنية.. غنية جدًا، لدرجة ألا يجرؤ أحد، ولا حتى الشيخ يانغ، على قول كلمة ضدي حين أعود إلى الديار.

احتضنت صورة أبويها وإخوتها في أعماقها، وتخيّلت وجوههم حين تضع في يد أبيها ذهبًا يجعله أغنى رجال القرية. تخيّلت فخرَهم بها: «قَيّانجِن» البيت، ألفَ قطعةٍ من الذهب.

تشبثت بهذه الصورة كأنها تميمة حظ، تشبثت بها حين سلمتها المدام إلى «لي ما»، تلك المرأة الحادة سليطة اللسان، التي ستقودها إلى جبال الذهب. وتشبثت بها خلال الرحلة الطويلة، حين كان حديث الرجال عن الذهب هو الوقود الوحيد لحلمها بالعودة.

وها هي الآن، أخذت تطوي وتفرد الأوراق المزورة التي أعطتها إياها لي ما. فشياطين جبال الذهب، يريدون الاحتفاظ بذهبهم لأنفسهم، ولكي تنال حق النزول إلى البرّ، لا بدّ أن تتقن تمثيلَ دور زوجةِ تاجرٍ من سان فرانسيسكو. طوال أسابيع الرحلة التي اكتظوا فيها في قاع السفينة، أجبرت لي ما، لالو والفتيات الخمس الآخرين، على حفظ الرواية المطابقة لما في أوراقهن المزورة، محذرة إياهن بصرامة «اجتازي فحص الجمارك، وستعودين للصين غنية يضرب بكِ المثل ويحسدكِ الجميع. اخفقي، وستجدين نفسكِ في سجن الشياطين، تُعذبين بفنون لا يعلمها إلا هم»

هل هناك تعذيب أشدَّ مما ذاقته؟ تذكّرت لالو حرًّاً خانقًا بلا هواء ولا ظلّ، وعطشًا يطبق على الحنجرة حتى يخنق الكلام، ويجعل لسانها يتعثّر وهي تروي ما لقّنته لي ما، فتُجازى بقرصاتٍ مؤلمة وخطبٍ طويلة رتيبة. تذكّرت وحدةً موجعة صنعتها الغربة، ورفضُ لي ما السماح للفتيات بالحديث فيما بينهن. تذكّرت السقوطَ المُبرِّح كلّما تمايلت السفينة، فترميها عن الرّفّ الضيّق الذي اتخذته فراشًا، وارتطامها بخشب الهيكل الصلب، الذي مزّق أحشاءها.

ثم تذكّرت فترات الانتظار الطويلة السوداء، وهي تحبس أنفاسها حين يُدفع غطاء السفينة مرتين في اليوم، فتدخل شقّةُ ضوءٍ، ونفحةُ هواءٍ مالحٍ محمل برائحة البحر. وتذكّرت كيف كانت تجاهد لتقضم الخبز اليابس الحامض، وتبلع المِرقَ الرديء الذي يُنزَّل إليهن كما تُنزَّل العلفُ للخنازير في حظيرة.
هزّت رأسها، عدّلت سترتها وسوّت شعرها. انتهى ذلك كله، صار وراءها. الماضي لم يكن سوى كابوس. أصبحت الآن في أمريكا، في جبال الذهب. وقريبًا، حالما تجمع ما يكفي من الذهب، ستعود إلى الديار.
«التالي».
دُفعت لالو أمام ضابط الجمارك. لم تكن قد دنت من رجل أبيض من قبل، فحدقت مأخوذة في ذلك الكائن الذي يرتفع فوقها. بشرته بيضاء كالطباشير، كوجه ممثل طُلي ليؤدي دور الشرير، لكنها لم تكن ناعمة بل مغطاة بشعر ذهبي خشن، وحين ينفتح فمه وينطبق، لا يخرج منه كلام مفهوم، بل هدير لا معنى له. وإلى جانبه، كان رجل صيني ينقل الكلام.
همست لي ما «أوراقكِ. ناوليه أوراقكِ».
قالت لالو بلهجتها الشمالية.«أوراقي؟ لقد... ».
توقفت فجأةً، وقد أصابها الرعب. كيف لها أن تكون بهذا الغباء؟ صحيح أن الكلام الجنوبي لا يزال غريبًا عليها، لكن خلال الرحلة الطويلة، علمتها لي ما اللهجة، اذ أن أكثر المهاجرين الصينيين على متن السفينة من مقاطعة «غوانغدونغ» الجنوبية، وأوراقها تزعم ذلك. وها هي قد كشفت نفسها، وأثبتت زيف أوراقها. لن يكون هناك ذهب في الطرقات، ولا عودة إلى الديار ظافرة، بل السجن والتعذيب فقط.

اختطفت لي ما الأوراق من يد لالو. وقالت للرجل الصينيّ كأنها تُسكِت زلّةً عابرة: «لا تلتفت إلى ثرثرة هذه الحمقاء. ستجد كل شيءٍ على ما يرام. هذه شهادةُ المغادرة، وهذه الورقة بعنوان زوجها هنا، في المدينة العظمى». لمع الذهبُ وهي تُسلّم الأوراق إلى الرجل الصينيّ إلى جانب موظف الشياطين. وأضافت: «زوجها تاجرٌ محترم له أن ينتقي من الحسان ما شاء، ولا أدري ما الذي يدعوه إلى استرجاع هذه البلهاء. كان الأولى أن يتركها في الصين حين رجعت لتمريض أمّه العجوز. لكنك تعرف الرجال: ما دامت المرأة تُرضي تلك العضلة تحت أحزمتهم، فلا شأن لهم بسواها».

ضحك الرجل الصينيّ، ودفع الأوراق إلى الموظف. ولمع الذهب ثانيةً. وتبادلا كلامًا بتلك اللغة الأجنبية، وعيناهما تجرّدان لالو من سترها حتى شعرت بالدنس. وأخيرًا ختم الموظف الأوراق. ثم دسّها إليها وهو يبتسم ابتسامةً ماكرة. احمرّ وجهها من الخجل، فضمت الأوراق إلى صدرها كمن يحتضن حياته، وتبعت لي ما وراء الحاجز الخشبي. لقد نجت.

صاحت لي ما، وهي تشير إلى تجمهر النساء والفتيات المنتظرات. «انظري. بعضهن لا يتجاوزنّ العاشرة أو الحادية عشرة من العمر. أطفال. ومع ذلك، أظهرنّ ذكاءً وحصافة أكثر منكِ». ثم أضافت بنبرة تحذير قاطعة: «الآن، احفظي كلماتي جيدًا. هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي أدفع فيها ذهبًا حقيقيًا لإنقاذ عنقكِ، لذا انتبهي، أفهمتِ؟»

ولكي تؤكد وعيدها، صفعت لالو على أذنيها، ثم ساقت مجموعتها معًا واتجهنّ صوب الرصيف.

شعرت لالو، المنهكة من قلة الطعام النافع والحركة، وكأن القارب لا يزال يتمايل تحت قدميها. لكنها سارت بخطى سريعة، خشيةً من إثارة عاصفة جديدة من سباب لي ما.

كانت «لي ما» تشقّ طريقها بين أكوام صناديق الخضر، وأكياس الدقيق والفاصولياء، وصفوف البراميل. فوقها صرخ النورس، وبعيدًا عن الرصيف كان هناك صهيلٌ وضربُ حوافر، وصريرُ عربات، وأصواتٌ غليظة حادّة.

غير أنّ الضباب الكثيف نفسه الذي لفّ جبال الذهب عند نزولهم أحاط بهم؛ رطوبته الباردة تتسرّب إلى العظم، وتترك على اللسان ملوحة الدمع. ابتلعت لالو خيبتها، وحدثت نفسها أنها سترى الجبال قريبًا بما يكفي. أمّا الآن فلتفتّش عن قطع الذهب التي قال الرجال إنها مبعثرة في الطرقات.

تحت وهج مصابيح الطرقات الكالح رأت روثَ الخيل، جرذانًا تنهش أكوام القمامة، وخِرَقًا وزجاجاً مكسورًا. لمع معدنٌ. أهو علبةٌ مُلقاة أم ذهب؟ انحنت لتختطفه، فلم ترَ الحجر حتى لسع خدّها. رفعت رأسها مذعورةً، فإذا بكرة من الوحل ترتطم بظهر لي ما. استدارت لي ما كالملدوغة، وصرخت في وجه لالو: «أيتها الحمقاء! كيف تجرؤين؟».

ثم انقطعت صرختها إذ تفجّرت حولها صياحُ الفتيات ونحيبهنّ. ومن خلال الضباب الثقيل تبيّنت لالو أشباحًا بيضاء، «صبيةَ الشياطين» يقذفون حجارةً وكراتِ طين، ويصيحون بكلماتٍ لا تفهمها، لكنها كانت تشعر بها كالإهانة.

صرخت لي ما وهي تلوح بقبضتها في وجوههم: «أيها الأشباح الميتة!»

فضحك الصبية وهم يركزون قذائفهم على المرأة القصيرة ذات البنية المربعة.

وبدون تفكير، التقطت لالو الحجارة التي سقطت بالقرب منها، وأخذت تقذفها عليهم بالسرعة نفسها التي يقذفونها بها. سنوات من اللعب مع إخوتها جعلتها بارعة في التصويب، وسرعان ما فرّ الصبية.

انقضت عليها لي ما: «كُفّي أيتها الحمقاء وإلا جررتِ علينا السلطة».

«هم من بدأوا».

زمجرت لي ما: «هل أنتِ غبية؟ ألا تعلمين أنك في أرض الشياطين؟ القوانين هنا وضعها الشياطين لحماية الشياطين، لا لحمايتنا. هيا بنا، لعلنا نبلغ الحي الصيني قبل أن يعودوا مع رجال الشرطة، وإلا وجدنا أنفسنا نتعفن في سجن الشياطين».

كان صراخُها يعلو وهي تدفعهن وتزاحمهن، تُسرع بهنّ صعودًا في طرقاتٍ شديدة الانحدار مرصوفةٍ بالحجارة، تجري فيها مجارٍ نتنة الرائحة، وتمرّ بعرباتٍ تجرّها خيولُ جرٍّ هائلة، ورجالٍ من شياطينٍ قذِرين متكاسلين فوق براميل مقلوبة، حتى بلغن أزقّةً ضيقة مكتظّة برجالٍ صينيين. «حيّ الصينيين». وحتى هناك لم تأذن لي ما للنساء والفتيات أن يسترحن. غير أنّ الروائحَ والأصواتَ الدافئة المألوفة هدّأت ارتباكَ لالو. حتى إنّها بالكاد شعرت بالصفعة الوداعية، التي سدّدتها لي ما وهي تسوقهنّ نزولًا في درجٍ، إلى قاعةٍ واسعة تحت الأرض، تعجّ بغيرهنّ من الشابات والفتيات.

جاءت عجوز ترتدي سروالًا وسترةً بلون أسود لامع، وهي تُشير وتُرتّب: «مَن معهنّ عقود فليتقدمن إلى هذه الجهة، ومَن بلا عقود فليصعدن إلى المنصّة».

مدت لالو أوراقها. أخذتها العجوز، ودفعتها نحو النساء اللواتي بلا عقود.

احتجت لالو محاولة استرجاع الأوراق: «لا، مكاني هناك».

نفخت العجوز بازدراء: «يا لكِ من قروية! تلك الأوراق إنما كانت لتُدخِلك البلاد. وسنستخدمها مرةً أخرى».

قالت لالو: «لكنّ لي ما قالت...».

قطعتها العجوز بحدّةٍ نافذة: «لا تجادلي، أيتها الفتاة. أنتِ من المحظوظات».

ثم أشارت إلى جماعة النساء ذوات العقود: «مصائرهن حُسمت: الدعارةُ تنتظرهن. أما أنتِ، فإن أحسنتِ اللعب، فما زال كرسيُّ العروس ممكنًا لكِ».

سرت موجات من الذعر في صفوف النساء. اخرجت احداهن ورقة من جيب داخلي وقالت: «لديّ عقد زواج! ليس كما تزعمين»

«وأنا! وأنا!» تصايحت النساء من حولها. أخذت العجوز العقد من الشابة. خشخش الورق وهي تفتحه. وقالت آمرة: «اقرئيه!»

ارتجفت شفتا الشابة: «لا أقرأ».

هزّت العجوز حلقة المفاتيح حول خصرها: «هل تقرأ أحدكن هنا؟»

تبادلت النساء النظرات بأمل. هزت بعضهن رؤوسهن. بينما التزمت أخريات الصمت. لم تكن أي منهن تجيد القراءة.

قالت العجوز: «إذن سأخبركنّ بما تنص عليه عقودكنّ». ومن دون أن تنظر إلى أيّ من الأوراق، تابعت : «هذا عقد بغاء مقابل ثمن رحلتكِ. العقد ينص على أنكِ تعهدتي بتسخير جسدك لسنوات».

أصرت الشابة: «لكن خاطبة الزواج هي من دفعت لأهلي ثمن السفر».

«يا لك من حمقاء، لقد كان ذلك قوادًا، وليس خاطبة زواج!» ثم أشارت إلى بصمة الإبهام في أسفل الورقة. «هل هذه بصمتك؟»

أومأت الشابة وهي تنتحب بصمت.

«حسنًا، أليس كلُّ شيء قد قيل؟»

قالت فتاة بجرأة «بلى، هناك ما يُقال. لقد وضعت بصمتي على أحد تلك العقود، وكنت أعلم تمامًا ما تعنيه». احمر وجهها وأضافت «لم يكن أمامي خيار».

«وماذا في ذلك؟» سألت العجوز ويداها على خاصرتيها.

«العقد يحدد عدد السنوات، خمس سنوات في حالتي، فاصبرنّ يا أخواتي، عارُنا لن يدوم إلى الأبد».

«وماذا عن أيام مرضك؟»

«ماذا تعنين؟»

«ينص العقد على أن أيام مرضك الشهرية تحتسب ضمن مدة خدمتك، أسبوعان مقابل يوم مرض واحد، وشهر كامل عن كل يوم مرض إضافي».

شهقت الفتاة: «لكن هذا يعني أنني لن أكون حرة أبدًا!»

قالت العجوز ببرودٍ كالسِّكّين: «بالضبط».

كحجر ألقي في ماء راكد، أثارت الكلمة موجة تلو أخرى من الكلام والدموع.
صاحت العجوز: «ابكين هكذا، وستكون أعينكن منتفخةً كعيون الضفادع حين يأتي مُلاّككن!».

«وما الفرق ؟»

«قالت العجوز: «الفرق أن ملامحكن قد ترفعكن إلى بيتٍ أنيق تُلبسن فيه الحريرَ والحُليّ، أو تهوين إلي ماخور قذر».

«البانيو[6]؟»

«تقريبًا، لا بد أنك رأيتِ الأبواب ذات النوافذ المحصنة المطلة على الأزقة، لكنك لم تسمعي الدجاجات في الداخل، وهي تنقر وتخدش النوافذ، محاولة اجتذاب رجل دون استدعاء شرطي. إبكي، وأظهري قبحكِ، وستكونين واحدة من تلك الدجاجات، تتقاضين خمسة وعشرون سنتًا للنظرة، خمسون للمسة، و خمسة وسبعون للفعل».

شيئاً فشيئاً خمد النشيج إلى نحيب مكتوم وراحت الفتيات الأقوى تهدهد الأضعف وتُسكتها. ثم التفتت العجوز إلى مجموعة لالو وقالت:

«والآن اصعدن إلى المنصّة كما أمرتكن»

---

[6] بانيو (Bagnio) :

كلمة قديمة المقصود بها مكان دعارة من أدنى الطبقات، تُعرض فيه النساء خلف نوافذ مُسوّرة تطل على الأزقة، يستدرجن الزبائن بالإيماءات والأصوات، مع تسعير مهين «للنظرة، للمسة، للفعل».المترجم

صعدت لالو، وسائر النساء والفتيات، مطيعاتٍ في صمت. وحين استقررن على المنصّة، بدأت العجوز تشرح:

«هنا ستقِفن غداً حين يجيء الرجال. سيكون بينهم تُجّار أثرياء، مُنقّبون، باعةٌ جوّالون مُوسرون، أصحابُ بيوتٍ، ومن يأتي للفرجة لا غير. سيفحصونكنّ بحثًا عن سلامة البدن وجمال المظهر. تجمّلن جيدًا، وابتسمن بلطف، وستنهال المزايدات سريعًا من راغبي الزوجات، ومن راغبي ملء البيوت». ثم أتبعت: «فإذا اتُّفق على الثمن، وضع المشتري المال في أيديكن. حينذاك تصير البيعة لازمة، لكنكنّ ستسلّمن المال إليّ. أفهمتن؟»

أومأت النساء والفتيات برؤوسهن. وتمتمت قلة منهن بكلمة استسلام.

أشارت العجوز إلى بعض الدلاء الموضوعة بجوار الحائط.

«هذا صابون وماء. اغتسلن جيدًا. ستعرضن عراة في المزاد».

«عراة؟»

قالت العجوز: «النساء في جبال الذهب نادرات للغاية، حتى الفتاة العادية أو القبيحة لها قيمة. لكن عندما يضطر الرجل إلى دفع عدة آلاف مقابل امرأة، فإنه يحب أن يرى بعينيه ما يشتريه».

ثم قبضت على فتاة نحيلة داكنة البشرة، ذات شفتين مضمومتين، من مؤخرة المجموعة. حدقت الفتاة بعناد، غير أن العجوز مزقت سترتها، وأشارت إلي ندوب جرح عميق من فأس، وجلد متجعد على شكل مكواة ساخنة. قالت: «انظرن جيدًا، واحذرن أي فكرة عن العصيان أو الفرار». ثم ألقت بسترة الفتاة على الأرض وأردفت: «سيكون البانيو من نصيبكِ، إن كنتِ محظوظة».

أنزلت النساء الأقرب إليها من المنصة وساقتهن نحو الدلاء: «هيا انطلقن، لقد أضعنا وقتًا كافيًا».

كانت لالو تسمع أصوات النساء والفتيات وهنّ يتهيأن للمزاد، لكنها لم تتحرك. لقد استنفدت كلَّ تركيزها كي تلتقط الكلمات بتلك اللهجة الجنوبية الغريبة، ولم تكد تبدأ في تذوّق وطأة معناها حتى أدركت أنها خُدعت.

خُدعت من قِبل المدام ذات الصوت الرقيق، والمظهر اللطيف، تلك التي لم تكن سوى غاق لا يمنح إلا لسيده. وخُدعت من لي ما، القوادة سليطة اللسان المكلفة بإيصالها إلى قاعة المزاد. وخُدِعت بأحاديث الرجال الأحرار التي لم تكن أحلامُهم لتصير أحلامَها يومًا. فجبال الذهب التي وصفوها ليست أمريكا التي ستعرفها هي. بل هذه هي أمريكا: هذا القبو الكئيب القذر، وجوه النساء الخاوية، والفتيات اللائي جُرِّدن من الأمل، والألواح الخشبية المتشظية تحت قدميها، ومنصة البيع. هذه...هي أمريكاها.

ومن خلال ضبابٍ بارد كذاك الذي لفّها عند الرصيف، أحسّت لالو بنَفَسٍ دافئ يقترب، وبمِرفقٍ قَلِق يدفعها في رفق. التفتت، فإذا هي الفتاة النحيلة الداكنة التي جعلتها العجوز عبرةً للآخرين.

قالت الفتاة: «ألم تسمعي ما قالته العجوز؟ أنتِ واحدة من المحظوظات».

ردت لالو: «المدام في شنغهاي قالت ذلك أيضًا».

أجابتها: «لكنها الحقيقة. هناك نساء حالهن أسوأ منكِ بكثير. مثل أولئك اللواتي يُهرَّبن إلى جبال الذهب مخبآت في صناديق مبطنة مكتوب عليها أدوات منزلية، أو داخل صناديق الفحم. كثيرات منهن لا ينجون من الرحلة، أو يصلن محطمات ومهشّمات لدرجة لا تسمح ببيعهن».

اقتربت الفتاة أكثر وخفضت صوتها لدرجة الهمس: «هؤلاء النساء يؤخذن مباشرة إلى «مستشفيات» تشبه تلك التي تُرسل إليها الإماء اللواتي فقدن جمالهن أو أصابهن المرض. هناك، يرقدن وحيدات في زنازين ضيقة بلا نوافذ، يمدَّدن على رفوف خشبية ينتظرن الموت جوعًا أو بأيديهن». ثم ابتهجت قليلًا وأكملت: «أما أنتِ، فقد قطعتِ الرحلة بأوراق رسمية ومع امرأة تتولّى أمرِك. أنتِ نحيلة، لكنكِ جميلة وسليمة».

زفرت لالو بمرارة: «وماذا يغّير ذلك سوى ثمني؟».

أمسكت الفتاة بيدي لالو، وشدّت عليهما بقوة لتسكن ارتجافهما، وقالت بصوت خافت: «عليكِ أن تتعلمي، كما تعلمتُ أنا، أن تتركي عقلك يحلق بعيدًا. حينئذ لن تشعري بشيء، وإذا لم تشعري، فلن يؤلمك شيء».

الفصل الحادي عشر

على منصّة المزاد أطبقت لالو جفنيها، اتّقاءً لعار عُريها ولرجالٍ يدورون حولها، يغمزونها، يجسّونها ويقرصونها. وكانت المزايداتُ تهطل كالسِّهام. ثم تساقطت في راحتيها الممدودتين قطعُ الذهب: باردةً صلبةً ثقيلةً.
أمرتها امرأةٌ بصوتٍ خشن أن ترتدي ثيابها، فعرفت لالو أنها لم تُشترَ زوجةً. لكنها لم تعد تبالي. وبتراخ، كمن يسير نائمًا، لبست سترتها وسروالها، وتبعت المرأة صعودًا على الدرج، إلى الشوارع نفسها: قذرةٍ ضيقةٍ، كما مشت فيها بالأمس. وبينما يعودون أدراجهم إلى رصيف الميناء، انعقد أنفُ لالو من نتن القمامة والروث، ومن رذاذ الوحل، غير أنها لم تعد تُحدّق في الطرقات بحثًا عن ذهبٍ موعود، ولا حاولت تفادي حجارة الصبية أو اجتناب نظرات الرجال الشياطين السكارى.
وبشكل مبهم أدركت أن المركب الذي ركبوه أصغر وأقل ازدحاماً من ذاك الذي عبر بها محيطَ السِّلم، وأن الرحلة أقصر، وأن «بورتلاند»، وجهتهم، مدينةٌ شيطانيةٌ أكثر اشراقًا وأقل عداءً. وبوعي غائم، سمعت شابًا صينيًا وسيمًا يحييهما، وشعرت به يأخذها من المرأة ويضعها على بغل.
قال إن إسمه جيم، وهو عامل نقل أرسله سيدها هونغ كينغ، لالو، ليجلب عبدته. كان معه قافلة من عشرة بغال؛ ثمانية منها محملة بالمؤن الثقيلة، واحد يمتطيه، وواحد لـلالو. وبينما كان بغلُها يهرول بمحاذاة بغله، حاول أن يستدرجها إلى الحديث. تكلّم بلطف، وبلهجة الشمال ذاتها التي تنطق بها.

غير أنّ الشرنقة الهشّة التي غزلتها حول نفسها كانت دافئةً أكثر مما تحتمل أن تُخترق بالكلام، فلم تُجبه.

بعد تسعة أيامٍ من السير في مسالك غابية كثيفة، بلغوا «لوِستون»: بلدةً غريبة مؤلفةً من خيام، وبيوتٍ مرتجلة من قماشٍ مشدود على أطرٍ خشبية، ومبانٍ حديثةٍ إلى حدّ أنّ لالو كانت تشمّ في خشبها حداثته النيِّئة.

قال جيم، وهو يقود القافلة عبر شوارع موحلةٍ محفّرة تضجّ بالنقّالين، والفرسان الذين يصرخون ويجلدون سياطهم: «كلُّ معسكرات التعدين متشابهة. شارعٌ رئيس، مغبر صيفًا وموحل أو مغطى بالثلج شتاءً. وبضعةُ حانات. صالةُ رقص. متجران أو ثلاثة. فوضى من أكواخٍ خشبية وخيام، لا بدّ فيها أن تُحفَظ الأشياء في عُلبٍ من صفيح اتّقاءً للفئران والجرذان. و«وارنز» معسكر التعدين الذي ستعيشين فيه، على هذه الشاكلة».

ثم رسم بذراعه حركةً واسعة: «كهذا. غير أنه أصغر».

بتراخٍ تبعت عينا لالو حركة يده. رأت خنازير تنبش أكوام علبٍ فارغة، وقشور بطاطا، وعظام لحمٍ بالية، وقشر بيض، وأوراق كرنب. لمحت دجاجٌ ينقُر ويصيح، يروح ويجيء على الأرصفة الخشبية بين قِدورٍ مكسورة، ومعاول، وقِدورٍ بالية، وأحذية، وسائر النفايات، فتتطاير سُحب الذباب التي تغطي كُتلاً من روثٍ خانق الرائحة، وجرذٌ يحفر في أحشاء مبعثرة لكلبٍ ميّتٍ. ومن المباني والخيام المصطفّة على جانبي الشارع كانت تنفلت موسيقى، وضحكات صاخبة، وطلقاتٌ نارية، وزجاجٌ يتحطم.

قال جيم: «تلك صالونات. متاجر نبيذ. مثل صالون سيدكِ. إلا أن متجره خالٍ من الزبائن. ولهذا السبب اشتراكِ».

ثم أضاف: «في وارنز هناك ألف وستمائة رجل؛ ألف ومائتا صيني، ونحو أربعمائة من البيض. وهناك إحدى عشرة امرأة. ثلاث منهن زوجات، واثنتان أرامل، وست عازفات على آلة الهيردي جيردي. لكن جميعهن بيضاوات. ستكونين المرأة الصينية الوحيدة، وهذا ما سيجلب الرجال، صينيين وبيضًا، من أميال بعيدة».

كالماء المغلي، أذابت كلمات جيم غلاف شرنقة لالو، فإذا هي تتخبط. أوقفت بغلها. ومن مكان ربط الخيول على حافة الممشى الخشبي، بين خيول تنتظر أسيادها بصبر، استطاعت أن ترى بوضوح الشياطين داخل الحانات. بعضهم يدخن ويشرب ببساطة، أو يتنافسون في رش تيارات من عصير التبغ البني. وآخرون يتجمعون حول طاولات القمار، أو يقفزون ويركضون كالقردة المؤدية، يطوقون بأذرعهم نساء شياطين قصيرات التنورة، مطليات بألوان زاهية، وأحذيتهن ذات الكعب العالي تدق إيقاعات على أرضيات خشبية خشنة.

أكان سيدها يتوقع منها أن ترتدي ملابس مثل أولئك النساء الشيطانيات شبه العاريات والمطليات؟ أن ترقص مع رجال شياطين مشعرين متسخين؟ وأن تضاجعهم؟ امرأة واحدة بين ألف وستمائة رجل؟

"إذا لم تشعري، فلن يؤلمك شيء". كررت كلمات الفتاة النحيلة ذات البشرة الداكنة لتُذكر نفسها. لكنها تذكرت أيضًا الألم في عيني الفتاة السوداوين المتحديتين، وجلدها المتجعد، والندوب العميقة كحقيقة غائرة لا تُمّحي.

ودون تردد، غرست لالو كعبيها في خاصرتي البغل، وحثته على الركض، فاندفع يعدو متخطيًا جيم وقطيع البغال.

انطلق بها البغل خارج البلدة، عابرًا المروج الواسعة. خاض في الجداول الضحلة فتناثر الرذاذ، تكسرت الأغصان المتدلية في بساتين الحور التي تحاذي الضفاف، ففزعت السناجب الحمراء والطيور، وفرّ غزال مذعور.
أخيرًا، تعثر البغل وهو يلهث بخوار وعينين غائرتين، وقد غطى الزبد خاصرتيه المتعرقتين. شعرت لالو بالخجل، فأبطأت خطواتها.
عندما انتظم تنفس البغل، توقفت. أرخت لجامه ليشرب من الجدول، ونظرت خلفها عبر مروج العشب الأخضر المزرق لأزهار الكاماس. لم يكن هناك أثر لقافلة البغال، ولا حتى رنين خافت لأجراس البغل القائد. رفعت بصرها نحو الشمس المتوقدة، سيهبط الظلام قبل أن تقطع بغال الشحن - المحملة كل منها بخمسمائة رطل من البضائع - نفس المسافة التي قطعها بغلها ركضًا.
لن يجرؤ جيم أبدًا على المخاطرة بتركها ليلحق بها. بإمكانها أن تمضي وحيدة، بعيدًا عن المستقبل الذي ينتظرها في حانة سيدها.
لكن إلى أين؟ العودة إلى لوِستون أو بورتلاند أو سان فرانسيسكو، تعني الأسر، وربما التشويه، أو السجن، أو العمل في الباغنيو وربما « المستشفيات». ومع ذلك، لا يمكنها البقاء هنا في البراري المفتوحة أو في الجبال المتوجة بأشجار الصنوبر. ليس لديها طعام ولا وسيلة للحصول عليه. وليس لديها أي حماية من اولئك الهمج الذين يقيمون قراهم في المساحات المفتوحة وراء مخيمات التعدين القذرة. كانوا قذرين، سودا الشعر، يرتدون خليطًا عجيبًا من الريش، وجلودٍ مرصّعة بالخرز، وقمصانٍ وسراويل شيطانية. يسكنون خيامًا تبدو كقِمعٍ مقلوب. وحين يطالبون بالخمر والحُليّ كانت أصواتهم وقحة، وطباعهم متكبرة.

ومع ذلك يبدو عليهم البؤس، عيونهم السوداء حزينة كعيون اللاجئين المشردين الذين رأتهم لالو ذات مرة يمرّون بقريتها. لكنهم كانوا مُخيفين أيضًا. يحملون أقواسًا وسهامًا، وفؤوسًا صغيرة حادّة الصقل، وأحيانًا بنادق؛ يهدّدون بموتٍ عنيف، وكلما اقترب واحدٌ منهم أحسّت لالو بالخوف الغاضب يتصاعد في صدور الشياطين البيض الذين كانت تفرّ منهم.

قالت المرأة التي اصطحبت لالو إلى بورتلاند أن الشياطين البيض ليسوا سوى أطفال كبار، عاجزين عن كبح جماح رغباتهم وشهواتهم الأنانية.

لكن لالو أدركت أنه لا يمكن الاستهانة بهم. فهم مسلحون بالبنادق والسكاكين، وكانوا لا يقلون سرعة في القتال وإطلاق النار عن قطاع الطرق الذين اختطفوها من قريتها. غير أن هؤلاء الشياطين يملكون سلطة سن القوانين، قوانين جعلت أناسًا مثل لي ما يرتجفون خوفًا، يوم ألقت لالو بالحجارة على الصبية الشياطين الذين هاجموهم.

في اليوم الأول للمسيرة مع جيم، توقف ليقرأ علامة تحذير محفورة على جذع شجرة حور مصقول. كانت النقوش تحذر من سرقات الشياطين، قاد جيم القافلة إلى أعماق الغابة، حتى وجد دربًا آخر أكثر أمانًا. وبينما كانوا يسيرون، كانت عيناه تبحثان عن المزيد من العلامات التي تحذر من الاعتداءات، وعمليات الإعدام الخارجة عن القانون. قال: «هنا، لا قانون. كل رجل هو محكمته الخاصة، ومسدسه هو القاضي والجلاد، وخاصة الجلاد».

لاحقًا، أشار إلى رعاة صينيين شياطين، كانوا يقفزون بين مواقع التنقيب للعمال الصينيين ويحرسونهم أثناء عملهم.

لكن بالنسبة إلى لالو، بدا الرعاة الصينيون كباقي الشياطين. طوال القامة، مفتولي العضلات، كثيفي الشعر، وقذرين. مثل الشياطين في حانات لوِستون، والحانة التي ستُجبر على العمل فيها.

لو استطاعت فقط جمع ما يكفي من الذهب، لتمكنت من العودة إلى ديارها. لكن الذهب الذي توقعت أن تجده في كل مكان كان مدفونًا عميقًا في الصخور الصلبة أو في جداول الأنهار الجبلية المتجمدة. ستحتاج إلى معول ومجرفة ومنخل. أنزلت يدها وتحسست خصرها. ربما تمكنها المجوهرات المخفية في حزامها من شراء الملابس اللازمة، ومع قليل من الحظ، قد تجد واديًا لم يُستخرج منه الذهب بعد. لكن بدون حماية، لن تعيش أبدًا لتأخذ الذهب الذي وجدته إلى ديارها.

كان دينغ محقًا. ليس بوسعها الهروب من قدرها.

ببطء، لفت لجامها حول مقبض السرج ونزلت حتى يتمكن البغل من الرعي بينما جلست تنتظر جيم.

حين وصل جيم إلى الجدول، كان الهلال البارد قد ارتفع عاليًا في سماء مرصعة بالنجوم. راقبته لالو، وهي ملتفة تحت غطاء السرج ولفافة النوم، تراقبه بينما يُفرغ البغال من أحمالها، ويربط اثنين منها بالأوتاد، ويطلق الباقي لترعى في العشب الليلي. من بعيد، بضفيرته الطويلة المنسدلة تحت قبعته الستيتسون، وقميصه الفلانيل الأحمر، وسرواله المخملي المدسوس في حذائه الجلدي الطويل، كان من الممكن أن تظنه شيطانًا من الرجال الشياطين. حتى أنه كان يحمل مسدسات في حزامه ويمضغ التبغ كما يفعلون. بل ويحمل اسمًا شيطانيًا مثلهم.

ومع ذلك، كان يعاملها بلطف كما لو كانت أخته الصغرى. إلى هذا اليوم، إلى اللحظة التي تكلم فيها عن وارنز، وعن الحانة التي ستعمل فيها. عندها تغير صوته. صار باردًا قاسيًا، كأنه يتعمد تجريد كلماته من الرحمة تدريجيًا.

أشعل عقد الصنوبر الذي جمعته لالو من بستان بعيد، وأعد وجبة بسيطة من الأرز والسمك المملح. تناولوا الطعام، ولم يقطع الصمت سوى صوت طقطقة عيدان الطعام، والصهيل المتقطع، وصوت تساقط القار من عقد الصنوبر.

بعد أن كنس جيم آخر حبات الأرز من وعائه، غذّى النار حتى اشتعلت كموقد هائل في هواء الليل البارد. وضعت لالو وعاءها، الذي لا يزال ممتلئًا لأكثر من نصفه على العشب، ورفعت يديها نحو اللهب، لكنه لم يستطع تبديد القشعريرة بداخلها، فارتجفت.

«لالو، أعلم أن ما قلته عن الحانة قد صدمك بشدة. والطريقة التي قلتها بها كانت قاسية. لكن عندما ترين شيطانًا، لا بد أن تواجهيه. عندها فقط يختفي الشيطان».

حدقت لالو في ألسنة اللهب الحمراء البرتقالية. «وهل ستختفي الشياطين الموجودة في الحانات؟»

«أكثر الرجال في الحانات هم منقبون عن الذهب أو عمال مناجم، رجال طيبون يقضون أسابيع، بل أحيانًا شهورًا ، بمفردهم في التلال أو الوديان والأخاديد، لذا عندما يأتون إلى المخيم، يتصرفون بشيء من الجنون. لكنهم لا يقصدون أي أذى. إنهم يحتفلون فقط أو يحاولون اغراق خيباتهم ومخاوفهم بالشراب والمقامرة».

قالت وهي تكافح دموعها الغاضبة: «الخمر، والقمار، وأنا».

قطع جيم قطعة تبغ طازجة. لبرهة، لم يُسمع سوى صوت المضغ، وعواء ذئب القيوط، الذي انفجر في نوبة نباح متقطع سريع لدرجة أن صدى الصوت الوحشي أحاط بالمخيم من كل جانب. ثم، بعد ان استقر التبغ في خده، قال: «قبل أحد عشر عامًا، عندما جئت إلى أمريكا، لم يكن لدي سوى قوتي. فبعتها لشركة تتعاقد على الأيدي العاملة. في ذلك الوقت، كان سعر الرجل الصيني السليم يتراوح بين أربع مائة وست مائة دولار، أما ذو القدرات الاستثنائية فكان ألف دولار. استغرقني الأمر ست سنوات من الغضب والمرارة لسداد ديوني، لكنني الآن رجل أملك نفسي. وستعودين سيدة نفسك مرة أخرى، أعدكِ ».

الفصل الثاني عشر

يومًا بعد يوم، بينما كانت قافلة الأمتعة تشق طريقها بصعوبة على درب الجبل الوعر، كان جيم يخبر لالو المزيد عن جبال الذهب، وعادات الشياطين، ويعلّمها الكلمات الإنجليزية التي ستحتاجها في عملها في الحانة لدى هونغ كينغ. أما في الليل، وبعد تناولهم الطعام، كان يشعل النار، ويقطع لنفسه قطعة تبغ طازجة، ثم يتحدثان عن أنفسهما.
تحدثت لالو عن منزلها، وبيعها للصوص، وحلمها بالثراء، وسوق المزاد. وحكى جيم عن موت أبيه وهو لا يزال صبيًا صغيرًا، وعن حيرته وخوفه بينما كان دفء لمسة أمه يبرد ويخفّ يومًا بعد يوم، وعيناها تزدادان خواءً، حتى جاء يوم لم تعد تتحرك على الاطلاق. قال إنه هرب حينها. لكن عينيها، الغائرتين في وجه شاحب كالكفن، لاحقتاه. فعاد ليجدها قد ماتت ودُفنت دون ابن يبكيها. فهرب مجددًا، هذه المرة إلى جبل الذهب.

بعد وقتٍ طويل من انطفاءِ النار، حين لم يبقَ سوى تفتّت الحطب إلى رماد، ورنّة جرس بغلٍ من بعيد، كانت لالو تستلقي مُسهَدة، تتذوّق حلاوة الأُلفة التي نسجها حديثهما، ووعدًا بقربٍ أعمق، وعدًا يزداد ثمنُه في قلبها مع كل ليلة يكبر فيها القمر ، وتتقلص المسافة التي تفصلها عن سيّدها شيئًا فشيئًا.

تفاقم الغيظ في صدرها عند التفكير في هونغ كينغ. لم تُبَع لتكفّر عن خسارة أبيها، فكيف تُجبَر الآن على دفع ثمن خطأ رجلٍ غريب؟ رجلٍ جشِع، عافَ الأعمالَ الحقيرة، الضئيلة الأجر المسموح بها للصينيين، وفضّل عليها المقامرة في حانةٍ الشياطين.

كانت تسمع صوت جيم في ذاكرتها وهو يقول: «إنّه عجوز، ولن يُسيء معاملتك، فأنت آخر أمله». لكنها التقطت القلق الكامن في نبرته، وعرفت أنّه غيرُ واثقٍ ممّا يقول. ومع ذلك، أدركت أن الشرف يُلزِم جيم أن يسلّمها إلى هونغ كينغ. فهو حمّالٌ مأجور، وهي بضاعتُه.

في الظلام، كانت تُصغي إلى أنفاس جيم الهادئة المنتظمة، وتستعيد وعده بأن تكون حرةً يومًا ما. كانت متيقّنة أنّه ينوي شراءها، لكن هونغ كينغ دفع فيها ألفين وخمسمئة دولار من الذهب، أكثرَ من ثمن قافلة جيم كلّها. أذلك ما جعله يعلّمها مفردات العمل في الحانات ويدربها بمهارة فائقة؟ هل الأمر مُلح ومخيف لأنّه غير قادر على تدبير ثمنها الآن؟ ولماذا يلتزم الصمت حيال هذا الأمر بينما كان يتحدث عن كل شيء آخر؟

كانت الأسئلة تنهشها كأفواهٍ جائعة، تطفو إلى السطح كلّما انتزعتها الكوابيس من نومٍ متقطّعٍ خفيف. وحين أطلت على أكواخ وارنز غيرِ المطلية بعد اثني عشر يومًا من السفر الشاق، كانت خاويةَ اليد من جواب، كما كانت في تلك الظهيرة التي دفعت فيها بَغلَتها إلى ذاك الجري اليائس عبر المروج.

قال جيم وهو يوقف القافلة: «هذه الأكواخ الأولى هي الحيّ الصيني». وأشار إلى تجمّعٍ من الأكواخ ذات الأسقف الحادّة، المنثورة في فسحةٍ صغيرة تحيط بها الجبال والغابة.

«وهناك، على الضفة الأخرى من الجدول، الحيّ الأبيض من وارنز. ستجدين حانة هونغ كينغ، هي أول حانةٍ في يسار الشارع الرئيسي. لن تخطئيها».

اتّسعت عينا لالو في هلَع. «ألن تدخل معي؟»

قال: «لن يَحسُن أن أدخل بالمؤن إلى البلدة، بينما المتاجر التي أُوصِّل لها موجودة هنا».

قالت: «لكنني جزء من بضاعتك».

اسود وجهُه كأنّ غيمةً مرّت عليه. قال: «أنت تعلمين أنّكِ أكثر من ذلك».

قالت: «إذًا ادخل معي الآن».

أجابها مذكّرًا: «أنا حمّال. أمكث في البلدة يومين، ثلاثة، ثم أغيب لثلاثة أسابيع، وربما شهر. إن أردتِ أن تبقي، فعليكِ أن تقفي على قدميكِ وحدك».

إذًا هو لا يستطيع شراءها، على الأقل ليس الآن. علقت خيبة الأمل والخوف في حلقها كعظام سمكة.

همست: «ماذا عن الليلة... في الحانة...»

قال: «سأكون هناك».

شدّت لالو لجامها فجأة ثم أرخته، فامتدّت يد جيم إلى عنان البغلة بسرعة جناح طائر. تلاقت عيناهما. قال بصوت مبحوح: «تذكّري. لكِ فيَّ صديق. دائمًا».

لم تَثِق بصوتها من فرط ارتجاف روحها، فاكتفت بأن أومأت. ثم ضغطت ركبتيها على جانبي البغلة، فانطلقت مطيعة، حوافرها تُدوّي على الخشب وهي تعبر الجسر، والصدى الخاوي يُردّد الطرقات في الفراغ المؤلم داخل صدرها.

ارتفع الغبار من الشارع الترابي غير المرصوف، المكدَّس بالقاذورات، لكنه لم يستطع أن يحجب لالو عن عيون الشياطين المتحلِّقين على الرصيف الخشبي المرتفع، سرعان ما التفّوا حولها، وأمسكوا بلجام البغلة حتى توقّفت. رفعها أحد الشياطين من على ظهرها وأنزلها إلى الأرض.

قال: «ها هي بولي».

تذكّرت لالو وصيّة جيم بأنّ رجال الشياطين لا يُعجَبون بشيءٍ في المرأة كإقدامها، فقمعت ذعرًا يتصاعد في صدرها، واعتدلت واقفةً بكل ما أوتيت من ثبات. قالت: «لالو. أنا اسمي لالو».

ضحك الرجال. «الدمية الصينية تتكلّم». ودفع أحدهم البابين المتأرجحين خلفه مناديًا: «هيه، تشارلي، ها هي بولي». خرج شيطان قصير، ملتحٍ كسائرهم لكن بلا قبّعة، يرمش بعينيه في وهج الضوء المفاجئ.

قالت، مشيرةً إلى نفسها: «لالو. اسمي لالو».

هوت قبضةٌ نحيلة عليها من الخلف، فوجدت نفسها تحدّق في وجه صيني مجعَّدٍ متشقّق كالرُقّ القديم. للحظةٍ خاطفة شعرت بالارتياح حين رأت القلنسوة الحريرية والرداء الحريري، فحسبته رجلٍ نبيل، لكن هذا الشعور تلاشى حين تكلّم. زجرها بالصينية: «العبدة لا تختار اسمها. من الآن فصاعدًا اسمك بولي. هل فهمتِ؟

عرفت لالو أنّ هذا الرجل هو هونغ كينغ، وأنّ الواجب يقضي أن تُطأطئ رأسها وتُقرّ بالموافقة. لكنها لم تستطع. اشتدّت قبضته، وغرست أظفاره الطويلة الصفراء في لحمها عبر قماش سترتها الرقيق.

قالت: «نعم، أفهم».
لوى الشعيرات النابتة على الشامة في ذقنه، ثم استدار إلى الحلقة التي تجمّعت حولهما. انفرجت شفتاه الرقيقتان الشاحبتان عن ابتسامة رضا، كاشفًا عن جذوع أسنانٍ سوداء ونفَسٍ عفن. قال بالإنجليزية الركيكة التي يفهمونها: «إذا أردتم رؤيتها، تعالوا الليلة إلى صالون هونغ كينغ».
ثم التفت إلى لالو وألقى كلمته الأخيرة: «المذاق الأول سيكون لي».

في ضوء الظهيرة الشاحب المتسرب عبر النافذة العلوية القذرة لكوخ هونغ كينغ، بدا الرجل أكثر من شيخٍ هَرِم. بدا ميتًا. كان جلده، المشدود فوق عظام هشة، بلون وملمس الشمع القديم، فمه مفتوح على اتساعه، يسيل لعابه فوق لالو التي كان يطبق عليها باحكام، فيما كانت أظافره الطويلة المصطبغة بالبني تخدش جلدها حتى الاحمرار.
لام لالو على عجزه. قال إن قدميها كبيرتان للغاية، وإن يديها خَشِنتان، حتى ليخيل إليه أنه في فراش مع رجل. وإن جهلها لا يُصدق. أكان عليه أن يُعلمها كل شيء؟ أخيرًا، تحركت شهوته بضعف، وامتطاها.
وفي بقعة الدم التي أعلنت انتصاره،
رأت لالو موتَ حلمٍ آخر.

الفصل الثالث عشر

في نفس الليلة، كانت فتاةُ الهيردي جيردي التي دفع لها هونغ كينغ لتجهّز لالو، تضعُ اللمسات الأخيرة على مساحيق التجميل، داخل الغرفة الضيقة الواقعة خلف حانة هونغ كينغ. تراجعت خطوة إلى الوراء، تتأمّل ما صنعت باعجاب. ثم قالت بانجليزية متعثرة. «جيد. الآن. الشعر».

قامت بتجعيد شعر لالو من الأمام، وفرقته من المنتصف وسحبته إلى خلف الأذنين، وجمعت أطرافه في تموجات صغيرة أعلى الرأس، ثم أشارت إليها أن تخلع سترتها، والصدرية المحكمة تحتها.

ترددت لالو، تذكرت ذلك اليوم حين قالت لها أمّها إن عليها أن ترتدي الصدرية لتُسطّح صدرها، وإلا نُعِتَت بالمرأة الفاجرة. ماذا كانت أمها ستقول لو علمت أنّ ابنتها أُكرِهت على أن ترضخ لنزوات شيخٍ هزيل في وطءٍ مُهين وعاجز؟

أغمضت عينيها تحاول أن تطرد من ذاكرتها صورة هونغ كينغ، بخصريه النحيلين العاريين، ورجولته الذابلة؛ واستحضرت صورة جيم بدلًا منه. بشرته العاجية الشاحبة فوق خط قبّعته، والذهبية الداكنة تحته. لمعة أسنانه حين يضحك. وتموّج عضلاته وهو يرفع الأحمال الثقيلة.

كل ذلك بدا مألوفًا دافئًا، لكن بعيدًا عنها الآن.

شدت عازفة آلة الهيردي جيردي صدرية لالو، سألتها: « أساعد؟»

قالت لالو: «لا.أنا أفعل».

كانت الحمالة التي حلّت محل صدريتها الصينية تخنق أنفاسها، و غاصت دعائمها المصنوعة من عظام الحوت في لحمها. تساءلت لالو: هل أجساد نساء الشياطين مخلوقة على هذا الانحناء مثل أعناق القوارير، أم أن رباط المشدّ يعمل كأقمشة ربط القدمين، يُغير شكل الجسد بعد أعوام من الألم؟
نظرت إلى الفتاة ذات الخصر المشدود مجددًا باهتمام.
ابتسمت الفتاة «خصر صغير... جميل. جيد لاصطياد زوج».
كان جيم قد أخبر لالو أنّ فتيات الهيردي جيردي في وارنز يُجلبن من ألمانيا، وأنهنّ مدينات بثمن الرحلة لسمسار، ويسدّدن دينهنّ بالعمل في الحانة، يرقصن ويُغرين الزبائن بشراء المزيد من الشراب. لكن كثيرًا ما يدفع أحد عمّال المناجم ما تبقّى من الدين، فيُعتقها لتصبح زوجةً له.
أكانت هذه الفتاة تحاول أن تقول للالو إن الخصر الدقيق، مثل الأقدام المربوطة، شرطٌ من شروط الزواج الجيّد؟ وأن الزواج ما زال ممكنًا رغم هونغ كينغ؟
سوّت الفتاة تنورة لالو الحريرية الحمراءوقالت: «فستاني طويل عليكِ، سأقصره».
قالت لالو: «لا». ثم فتحت الباب الخلفي، فدخلت رائحة الصنوبر العطرة. «اذهبي. أنا أفعل».
أخرجت الفتاة من بين ثنيات حمّالتها الصغيرة مسدسًا قصير الماسورة، أومأت بذقنها نحو الباب المؤدّي إلى الحانة من الجهة الأخرى، حيث تصلهم أصوات الأقدام تدق الأرض، وضرب الأيدي على الطاولات، وصيحات من أجل «بولي». قالت الفتاة: «أنتِ بحاجة إلى...».

حدّقت لالو في المسدس الصغير مبهوتة. أخبرها جيم إن فتيات الهيردي جيردي لسن ملزمات بمنح «خدمات إضافية»، لكنه لم يخبرها أن عليهن حمل السلاح لصدّ الإكراه.

طمأنتها لالو: «فهمت».

أغلقت الباب واتكأت عليه. كانت تأمل أن تكون هذه الغرفة الضيقة، التي لا تتّسع إلا لمدفأةٍ صغيرة منتفخة البطن، وكرسيّ، وسرير، وخزانة مرحاض، ملكًا لها وحدها، بما أنّ هونغ كينغ يعيش في كوخٍ بالحيّ الصيني. والآن تساءلت إن كان يتوقع منها أن تستضيف فيه ضيوف .

سمعت قبضةٌ على الباب الآخر للصالون تُدقّ بعنف. لم يعد في وسعها أن تُرجئ خروجها أكثر. بثلاث خطوات قطعت عرض الغرفة والتقطت حذائي الكعب العالي اللذين تركتهما الفتاة. كانا كالفستان أطول من مقاسها، فحشرت خِرَقًا في مقدمة الحذاء، ثم أدخلت قدميها بصعوبة، وأخذت تُشَبِّك صفوف الأزرار الصغيرة التي لا تنتهي. وقفت، وخطت خطوة، فتأرجحت كمن يمشي على حبل، ثم هوَت. استندت بثقلها على خزانة المرحاض لتنهض. من المرآة المعلّقة فوقها، عبست لها امرأة غريبة، مدهونة الوجه، مشعَّثة الشعر، عارية الكتفين. حدّقت لالو في الصورة. هي عبدة هونغ كينغ، من حقّه أن يستخدمها كيف شاء، لكنها لم تصر بعدُ عاهرة.

هبطت إلى الكرسي من جديد، وفكّت أزرار الحذاءين العاليين، وانزلقت قدماها في حذائها القماشيّ الناعم. أخرجت الإبريق والوعاء من خزانة المرحاض وغسلت وجهها من المساحيق الملوّنة ومسحوق الأرز. مشّطت شعرها من جديد، وأزالت تلك اللفّات السخيفة الصغيرة.

وأخيرًا، لفت شالًا من الدانتيل حول كتفيها العاريتين. نظرت إلى صورتها في المرآة.

لم تكن المرأة ذات العينين الحزينتين التي رأتها، هي نفس الفتاة التي يعرفها أهلها، لكن الوجه كان نقيًا، صادقًا.

هزت رأسها بخفة، مضت إلى الباب، ثم أدارت المقبض، واقتحمت الصالون[7].

[7] الصالون: مصطلح ظهر في القرن التاسع عشر، في مدن التعدين الأمريكية. وهو مكان عام لبيع الخمور أو بار يرتاده عمّال المناجم، الرعاة، والجنود. وغالبًا يكون مرتبطًا بالقمار، العراك، وأحيانًا الدعارة أو الاستغلال الجنسي. المترجم

دوى صوت حاد فوق هدير صاخب: «مرحبًا بولي، أين كنتِ مختبئة؟»

رفعتها ذراعان سمراوان عن الأرض: «كنتِ تنتظرينني، أليس كذلك يا فتاة الكيمونو؟«

انتزعتها أذرع أقوى ترتدي قميصًا أحمر من الفلانيل. «لا، أنا. سأجعلها ملكة حظيرة الثيران».

أجبرت لالو نفسها على الابتسام للشيطان الذي كان يحتضنها.

ثم قالت بالإنجليزية التي عَلّمها إياها جيم: « أنزلني. أنا أعمل فقط».

تمتم وهو يدفن لحيته في رقبتها: «إذن، ماذا ننتظري؟» لم تفهم لالو كلماته، لكنها شعرت بمعناها، وأحست بخشونة لحيته على جلدها. دفعت برأسه بعيدًا عنها. قالت: «أنت تفهم غلط. أنا نادلة فقط».

قال وهو يتأرجح بلالو فوق البار: «بالتأكيد، نخب أجمل وأحلى فتاة رأيناها في وارنز على الإطلاق».

وبينما كان يرفع كأسه في نخب، قفزت لالو من مكانها واختبأت خلف البار.

انحنت وهي تصغي إلى دقات قلبها اللاهثة، وصيحات الاستهجان، والصفير، وصفق الأصابع.

أنزل هونغ كينغ الميزان الصغير الذي يَزِن به رُشَفات غبار الذهب التي يدفع بها عمّالُ المناجم ثمن شرابهم. وقال حانقًا: «لم أدفع ألفين وخمس مائة دولار وفوقها تكاليف الشحن لكي تختبئي.»

خطف الشال عن كتفيها، وجرّها من ذراعها إلى أعلى. ولم تكد تقف حتى أحسّت بنفسها تُرمى من جديد فوق البار.

من خلال ضباب سجائر كثيف، حدّقت في الرجال المتكدّسين في الحانة؛ عمّال مناجم من الشياطين بلحى كثّة، يرتدون قمصان فلانيل باهتة وبنطالًا من الكوردوروي محشورًا في أحذية ثقيلة مغطاة بالطين. صينيون ناعمُو الوجوه، ببُطنٍ مشدودة داخل ستراتٍ وبنطالٍ قُطنيّ أزرق تقليدي، أو قمصانٍ صينية طويلة الأذيال، متدلية فوق بناطيل الشياطين الخشنة. مقامرون ومضاربون في معاطف حريرية زاهية وسترات ملوّنة، تتدلّى عبر بطونهم الممتلئة سلاسلُ ساعاتٍ ذهبية. مراهقون اندفعوا فجأةً إلى رجولةٍ كاذبة، يتفجّرون خارج بذلات جاهزة ضيّقة وقصيرة. كلهم كانوا شيئًا واحدًا. جائعين. كالذئاب البرّية التي تسمع عواءها في الليل. وهي فريستهم.

«يا لها من جميلة كقلب متورد!»

«دمية صغيرة، لا يزيد طولها عن مكنسة».

«أعطينا رقصة، يا دمية!»

تسمرت لالو في مكانها. صرخ شيطان: «يا زعيم الخمور، اجعلها ترقص».

نقّر هونغ كينغ على المنضدة. «لقد طلب منكِ الرجال أن ترقصي».

ألم يدرك أنها لا تستطيع؟ وأن قدميها المشوهتين لن تسمحا لها بالرقص؟

أخرج شيطان آلة هارمونيكا. «اختاري لحنًا»

وسط حشد الوجوه المرفوعة، رأت لالو وجه جيم. اجتاحها ارتياح مفاجىء، ثم خجل لاذع، كيف لها أن تنظر إليه مباشرة؟

نظرت إلى الأسفل، رفعت طرف ثوبها وأشارت إلى قدميها.

وقالت بانجليزية متكسرة: «ما كويس. ما أرقص».

قال الشيطان الذي يقف أمامها مباشرة بدهشة: «انظروا إلى تلك الأقدام الصينية!» . أمسك بقدمها وانتزع حذاءها. وفي اللحظة نفسها، قبض شيطان آخر على قدمها الثانية، بينما رفعها ثالث على سطح البار. مضغوطة بشدة بين أجسادهم، طغت رائحة ملابسهم الداخلية المتعرقة، وأنفاسهم المليئة بالخمر، على الروائح الأقل فظاظة، كمياه الصنبور الحامضة المتسربة، ودخان مصابيح الفحم.

قالت لالو وهي تركل بعنف: «انزلوني».

ضحك الشيطان الذي يحملها. ثم قذفها إلى رفيقه في الهواء: «لقد دبّت فيها الروح!»

قال الذي تلقفها: «جامحة كالحصان البري».

أخذت تضرب صدره بقبضتيها ، لكن ذلك لم يزده إلا إحكامًا على قبضته.

تلوت جاهدة لتنظر من فوق كتفه. أين جيم؟ أدركت أن رفضها النظر إليه فضح خجلها. لكنه قال إنه صديقها. دائماً. فلماذا لا يساعدها إذاً؟ وبينما كانت تُلقى إلى شيطان آخر، أدركت لالو أنه اختفى. واختفى الصينيين... جميعهم، باستثناء هونغ كينغ. وكان وجهه متوهجًا من الغضب، غضبًا منها هي، لا من الشياطين، بالتأكيد.

كانت وحيدة. تمامًا كما كانت بعد ظهر اليوم حين دخلت المخيم. تمامًا كما كانت منذ أن أخذها تشين من بيتها. بحثت بيأس عن الكلمة التي أخبرها جيم أنها قد تحتاجها. ما هي؟ تحركوا؟ لا تستطيع التذكر بسبب الرجال الذين ينهشونها. هل كانت اركضوا؟ اذهبوا؟ لا...

انصرفوا! هذه هي الكلمة!

صرخت قائلة: «انهضوا. انصرفوا .ونظفوا الغبار!»
ولكن الشياطين ضحكوا بصوتٍ أعلى...
«ضعوا الفتاة أرضًا».
كان الشيطان الذي تكلم، نحيف الصدر وعريض الكتفين، أقصر قامة وأقل ضخامة بكثير من الشيطان الذي كان يمسك لالو، ولكنه حين تقدّم، ساحبا مسدسه، انفتح له طريق، وشعرت لالو بأن القبضة الممسكة بها قد ارتخت. فانزلقت إلى الأرض.
«لا داعي للغضب يا تشارلي، نحن نمزح معها فقط».
لمحت وميضًا حادًا في عيناه الزرقاوان بلون زهر الكاماس. ارتجفت، لقد تذكرته؛ شعره الأشعث المتدرّج بين الأحمر والبُني، وبشرته الأفتح من وجوه الشياطين الأخرى، المسمرّة والمسوّدة بالشمس. كان هو الشيطان الذي استدعوه حين وصلت، ذاك الذي اشتعلت عيناه غضبًا لما زجَرها هونغ كينغ.
قال تشارلي: «كفاكم لهوًا لهذه الليلة».
ردّ أحدهم: «إنها فتاة الصيني وهو لا يمانع».
همست أصوات غاضبة مؤيدة. عبس هونغ كينغ. ألقى تشارلي كيسًا من جلد الغزال مليئًا بغبار الذهب على البار. ودعاهم قائلًا:
«تقدموا واشربوا، الخمر على حسابي».
أثناء اندفاعهم إلى الحانة، أعادها تشارلي بسرعة إلى غرفتها خلف الصالون، كان جيم ينتظر هناك.
سأل بقلق: «هل أنتِ بخير؟»
فأجابت: «نعم، لكنني لا أفهم».

ابتسم جيم: «هذا صديقي، تشارلي بيميس. إنه يملك الحانة المجاورة».
قال تشارلي: «لا بد أن أعود إلى الحانة. لكن قل لبولي أن تنادي عليّ كلما ثمل هؤلاء الحمقى وبدأوا يتصرفون بعنف، وسأكون عندها فورًا». ابتسم لـلالو ابتسامة خاطفة، ثم انزلق من الباب الخلفي.
ترجم لها جيم كلمات تشارلي، ثم شرح كيف أنه عندما رآها في ورطة، ذهب ليحضر تشارلي. «لا أحد يجرؤ على العبث معه، فهو قادر على إبقاء علبة معدنية ترقص في الهواء بمسدسه ذي الست طلقات، والجميع يعلم ذلك».
«أنت أيضاً تستطيع».
أشار جيم إلى حزامه. كان خاليًا من الحافظة والمسدسات. «ليس من الحكمة أن أحمل أسلحتي في المخيم».
«حقًا؟ ليس من الحكمة؟ كل من في الخارج يحمل مسدسًا أو اثنين على الأقل. الشياطين يحملونها. حتى عازفة الهيردي جيردي التي دفع لها هونغ كينغ لتجهزني، تحمل واحدًا. وألمحت لي أن أقتني واحد أنا أيضًا».
قاطعها جيم: «لالو، لو كنت حاولت مساعدتكِ، لما استطعت الدخول كما فعل تشارلي والقول «أنزلوها»، لكان عليّ أن أطلق النار بقصد القتل، ويمكنك أن تجزمي أنهم كانوا سيعلّقونني على شجرة، ومعي نصف دستة من الصينيين»
«لكنك قلت أن عدد الصينيين في هذا المعسكر يفوق عددالشياطين».
«الرجال البيض يملكون السلطة».
«كيف تسميهم رجالًا وهم يتصرفون كالشياطين؟» انفجرت لالو غاضبة.
«وهل تسمين هونغ كينغ الذي يستغلك كعاهرة بأنه رجل، والرجل الذي أنقذك الليلة بأنه شيطان؟»

امتلأت عينا لالو بالدموع. «كيف لي أن أوقف ذلك؟»

خفت نبرة صوته. «لالو، لقد فعلتِ ما عليك بالفعل، وستفعلين دومًا ما يلزم لتعيشي. لا عار في ذلك. أمّا تشارلي فهو رجلٌ طيّب. ثقي به، سيكون لكِ صديقًا وفيًّا».

الفصل الرابع عشر

انحصرت حياة لالو في روتين صارم يدور بين الحانة وكوخ هونغ كينغ. ورغم أنها كانت تنام في غرفتها الخاصة خلف الحانة، إلا أن هونغ كينغ حرّم عليها التحدث إلى أي شخص، باستثناء الزبائن الذين يربح منهم، وتشارلي وجيم اللذين لم يكن يجرؤ على منعهما.

غير أنّ جيم، خلال الأشهر الخمسة منذ أن دخلت لالو وارنز راكبةً البغل، لم يعد إلا أربع مرات، مجموعها اثنا عشر يومًا. كانت تعيش من أجل تلك الأيام. ومن أجل يوم حريتها.

كل ليلة، بعد أن تفرغ الحانة من روّادها، كانت تكنس بعناية الأوساخ الممزوجة ببصاق التبغ وأعقاب السيجار والرماد والبلغم عن ألواح الأرض الخشنة. ثم، في غرفتها خلف الحانة، تأخذ ما جمعته إلى جوار الموقد، وتغسله في صينية من الماء، وتُصفّي منه غبار الذهب الذي يسقط من الرجال حين يمدّون أيديهم إلى أكياسهم الصغيرة لدفع ثمن الشراب والقمار. وأحيانًا، كما اليوم، تجد حبيبةً ذهبية صغيرة.

تناولت لالو الحبيبة بدبوس شعرها كأنّه ملقط، وضمّتها إلى مخزونها. مرّت بأناملها في كومةٍ صغيرة من الذهب الخالص. في ضوء مصباح زيت الفحم، كانت القشّات الباردة تلمع كذَرّات النجوم، والحبيبات تصطكّ مرحًا وهي ترتطم بالزرّ والسوار من اليشم الراقدين في قعر الكيس الجلدي. استغرق الأمر من جيم ستة أعوام ليشتري حريته. كم من الزمن ستستغرق هي؟

«لالو».

عرفت من الطَّرْقة أنه جيم؛ فهو الوحيد الذي ما يزال يناديها بهذا الاسم. لكنها لم تكن تجرؤ على المخاطرة. على عَجَل، أخفت كيسها في وعاء المرحاض، وأغلقت باب الخزانة قبل أن تقول: «ادخل».

هَبَّت مع دخوله ريحُ أكتوبر الأول الباردة، تتطاير معها أوراق الخريف إلى الغرفة. علّق قبعته على المسمار خلف الباب وضرب قدميه بالأرض، ينفخ في كفيه المضمومتين لينفض عنهما الصقيع. دفعت لالو صندوق الخشب الذي تضع فيه نفايات الأرضية والصينية المملوءة بالماء بعيدًا عن الموقد.

أشعل جيم النار. وسألها ضاحكًا: «تنقّبين؟»

ضحكت لالو. «البيض ينقّبون في المناجم الغنية، والصينيون ينقّبون في الحقول التي فُرغت من قبل، وهونغ كينغ ينقّب في جيوب المنقّبين... وأنا أنقّب في هونغ كينغ».

ضحك جيم معها. وقال: «قبل بضع سنوات، في فيرجينيا سيتي، اشترى رجل حانة ثم أحرقها. ثم استأجر رجلين مع مهزٍّ لغربلة الذهب ليعملا في أرضه المحروقة التي اعتبرها موقعه، أما هو فوقف يحرسهما ببندقية صيد. وبعد عشرة أيام، كان قد استعاد عشرة آلاف دولار من غبار الذهب الذي تسرب عبر شقوق أرضية الحانة»

قالت: «أودّ لو أحرق هذه الحانة أنا أيضًا». ثم وضعت الكرسي أمام الموقد ليجلس عليه جيم.

جلس وقطع قطعة تبغ جديدة. «احذري. إن اكتشف هونغ كينغ أنكِ تسرقينه، فلا أحد يدري ماذا سيفعل».

اشتعلت لالو غضبًا: «في كل مرة يأخذ فيها ذلك المحتال العجوز حفنة من الذهب مقابل الشراب، يحرص على أن يظل بعضه عالقا تحت أظافره الطويلة! لكن لا تقلق، يقول تشارلي إن عدد الزبائن قد تضاعف أربع مرات منذ أن جئتِ، وإن في ما أكنسه من الأرض من غبار الذهب ما يكفي لأطَمْئِن بأن هونغ كينغ لن ينتبه إلى أنني آخذ لنفسي نصيبًا».

حرّك جيم قطعة التبغ في وجنته وقال: «تخطّطين إذن لأن تدّخري ما يكفي لتشتري حريتك ثم تعودي إلى الوطن، أليس كذلك؟».

جلست على السرير المحشو بالقش، فأصدر حفيفًا، يشبه أنينًا جافًا قلقًا. منذ اليوم الذي هربت فيه من حانات لوِستون حتى هذه اللحظة، لم يَعُد جيم يذكر لها حريتها، ومنذ سلّمها إلى هونغ كينغ كان الوعدُ الذي لم يُوفَ به رابضًا بينهما كطفلٍ وُلد ميتًا. لماذا يثير الأمر الآن؟ وكيف تجيب؟

قالت أخيرًا: «عندما عاد أبي من منغوليا، جعلني أنا وأخي نتعلم المثل القائل: رُكن نحاسي في وطن المرء، أغلى من رُكن ذهبي أو فضي في أقصى الأرض».

بصق جيم في الموقد. اصطدم لعابه بالجانب المتوهج، فأصدر فحيحًا.

قال: «هل علمكِ أيضًا، أن القمر لا يكون مكتملًا دائمًا، وأن الأزهار لا تُزهر على الدوام، وأن الرجال لا ينعمون دائمًا بلمّ شملٍ سعيد؟»

«لا، لم يفعل».

«لالو، أنتِ تتذكرين عائلتكِ كما كانت حين غادرتِهم، لكن بحلول الوقت الذي تدخرين فيه ما يكفي للعودة، سيكون إخوتكِ رجالًا بالغين، وسيكون أبوكِ وأمكِ قد أصبحا جدّين».

راحت أصابع لالو تعبث باللحاف الذي يغطي السرير. «وماذا في ذلك؟»
انحنى جيم إلى الأمام. «حين كنا في الطريق، سمعتكِ تنادين أباكِ في نومِك، ورأيت وجهكِ عندما تتسللين للخارج لتحتضني طفل السيدة سو. لم تكن ميلينا من تغنين لها أغاني الأطفال، بل أخوكِ الرضيع. وحين تنظرين إلى السماء وتستنشقين الهواء وتشعرين بالريح، تشعرين بنفسكِ في منتصف العالم من جديد، في حقول أبيك. عائلتكِ تعني لكِ كل شيء. لكنكِ ميتة بالنسبة لهم».
قفزت على قدميها: «هذا غير صحيح».
«إذن لماذا لم يردوا على الرسائل التي طلبتِ مني أن أكتبها عنكِ؟»
«لم يمضِ سوى خمسة أشهر».
أصر جيم قائلاً: «وهذا وقت كافٍ للرد».
قالت في عجلة، تتدافع من فمها الأعذار التي ظلت تردّدها في سرّها: «قد تكون الرسائل ضاعت. أو لعلهم ماتوا، أو صاروا لاجئين مشردين بلا أرض».
اقترب منها وأمسك بكتفيها، وأجبرها على النظر في وجهه قال:
«لقد باعكِ أبوكِ».
دافعت: «لم يكن لديه خيار آخر».
هزها، وصار صوته قاسيًا باردًا كالجليد الذي يغطي الأرض خارجًا:
«اعترفي بالأمر! أنتِ ميتة بالنسبة لهم».
صرخت: «لا. أنا «قَيّانجِن»، الف قطعة من الذهب، ابنتهم الغالية».
أفلت كتفيها وقال: «إن كنتِ لا تزالين تصدقين ذلك، فأنتِ أسيرة لأكاذيبكِ بقدر ما أنتِ أسيرة لهونغ كينغ».

ظلّ كلاهما زمنًا طويلًا بلا حركة ولا كلام. أخيرًا، مدّ جيم يده إلى قبعته: «جئتُ فقط لأقول وداعًا. سيتساقط الثلج قريبًا، وستُحاصَر وارنز بالثلوج. لن أعود بالحِمل إلى هنا حتى تَصفو الطريق من جديد، ربما في مايو أو يونيو».

قالت لالو بشفاه ترتعش: «كل هذه المدة؟»

قال جيم: «مع كثرة رحلاتي، أنا بالكاد أتواجد هنا. تشارلي سيعتني بكِ».

قالت: «إنه يراقبني كما يراقب راعيُ الصينيين عمّاله. إذا حدث أي شجار، أخرج من الباب مسرعةً وأنتظر في غرفته الخلفية حتى يُصلح الأمر».

توقّفت لحظة. «لكننا لا نستطيع الحديث. ليس كما نتحدّث أنت وأنا».

قال: «بهذه الطريقة لن تتجادلان».

للحظةٍ، انتابت لالو رغبة حادة في تمزيق القشرة اللامعة لجدالهما، والوصول إلى المشاعر الحقيقية والقضايا الدفينة التي كانت تجري بينهما كتياراتٍ عميقة لا اسم لها، لكنها مختلفة تمام الاختلاف عمّا تعبر به كلماتهما. غير أنها أخذت قبعة جيم وأعادت تعليقها على المسمار، واكتفت بالقول: «دعنا لا نفترق وبيننا كلمات مُرّة».

سكبت الشاي من الإبريق الموضوع على الموقد، وناولت الكوب لجيم.

قالت: «أعرف أنك على حق. لن تأتي أي رسالة».

كانت صحون صغيرة من الطعام، وأوراقُ نقودٍ روحيّة، وعيدانُ بخورٍ تتصاعد منها خيوط الدخان، مع ترابٍ مقلوبٍ طريّ، هي العلامات التي تُشير إلى قبر جيم.

جثت لالو على ركبتيها وأسندت جبينها على الأرض.

قبل ثلاثة أيام فقط كان حيًا، ثم تعثر بغله عند تلة فرينش كريك. تراءى لها الطريق المهترىء الذي سلكاه معًا: الصعود الحاد، الحواف المكسورة، الأودية المعتمة، والممرات الضيقة الكثيفة الأشجار. عظام الخيول المبيّضة في وديان بنفسجية وبقايا من سقطوا. تذكّرت كيف كان قلبها يختنق ككتلة في حلقها كلما رنّت حدوة البغل الفولاذية على الحواف الصخرية، حيث كانت عثرة واحدة تعني موتًا محتومًا. ومع ذلك، لم تستطع أن تصدّق أن جسد جيم المهشم يرقد الآن تحت التراب الرطب وأوراق الشجر المتحللة التي تجثو فوقها. كان فارسًا متمرّسًا خبيرًا حذرًا . ممتلئًا بالحياة. كان أكثر من أن يتحوّل إلى مجرّد ذكرى.

عادت بذاكرتها إلى آخر ليلة جمعتهما، وذاك الحزن القاتم الذي رأته في عينيه. تُرى، هل كانت عينا أمّه هكذا حين أخذت تنسحب رويدًا عن واقع لا تطيقه؟ وهل صارت عيناها هي كذلك، يوم راحت تهرب من حياتها القديمة؟ كانت الكلمات الغاضبة التي احتميا بها عن حديث القلب تطارِدها.

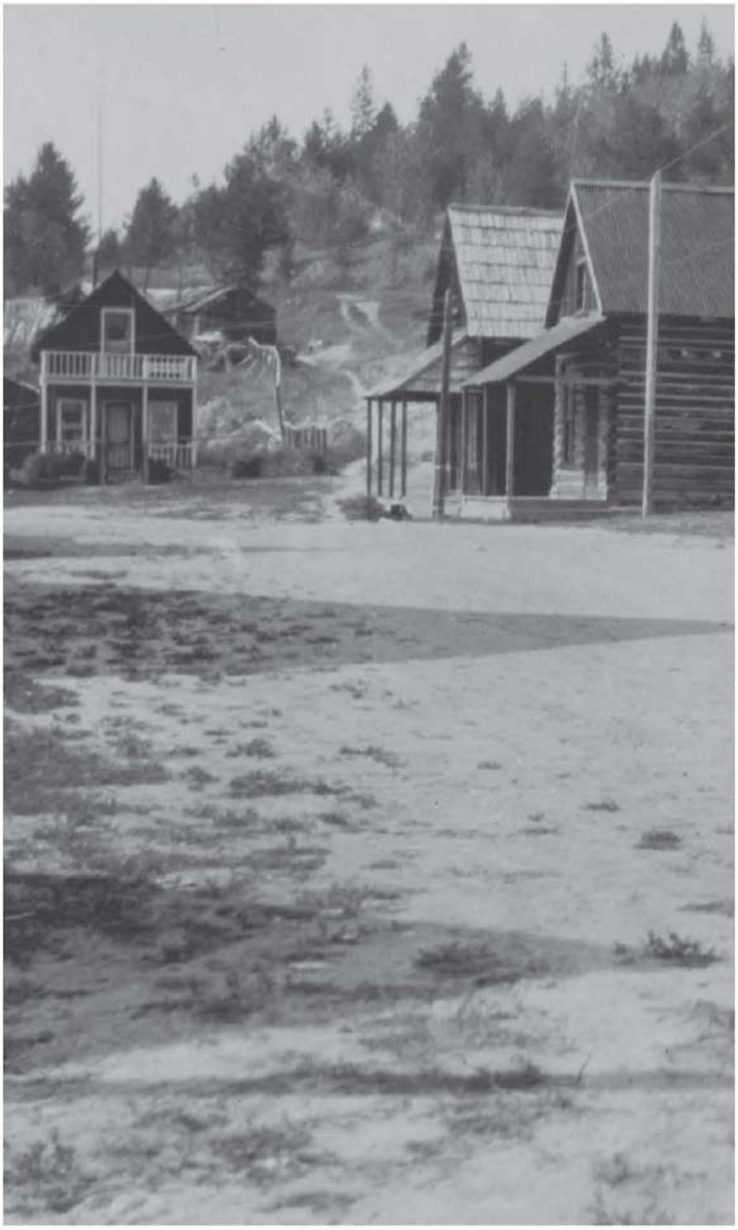
أترى، من حيث لا تدري، ساهمت في نسج كفنه؟

سمعت صوت وقع أقدام على الحصى قطع حبل أفكارها.
«برأيك، متى تظنين أن جيم سيعود ليأكل كل هذا الطعام؟»
انتفضت لالو غاضبة. كان تشارلي يعلوها ظلًا، ممسكًا بباقة من زهور أكولجيا الذابلة التي عصفت بها الريح، وباليد الأخرى كمانه.
ردت بحدة: «ومتى يأتي جيم ليشم الزهور؟»
وضع تشارلي الزهور القرمزية بجوار أطباق الطعام، واستند إلى جذع تمرّك مائل، وحشر كمانه البني الأملس بين كتفه وذقنه الملتحية.
سأل بهدوء: «إذا كان بإمكانه أن يأكل ويشرب ويشم، تظنين أنه يستطيع السماع أيضًا؟» ثم أضاف هامسًا: «من بين كل ألحاني، أظنّ هذا كان أحبّها إلى قلبه. كان يقول إنه يذكّره بالنهر قرب قريته».
لم تكن النغمة التي عزفها حزينة، لكن ما انطلقت من تحت القوس نغماتُها العالية الصافية وهي ترقص في الهواء، حتى شعرت لالو بالدموع التي كافحت لكبحها تنهمر على خديها. مسحتها بعصبية، لكن سدًّا قديمًا كان قد انهار دفعةً واحدة، فتحوّل خيط الدمع إلى سيلٍ متدفق.
دون كلمة واحدة، وضع تشارلي كمانه جانبًا وضم لالو إلى صدره. أسلمت رأسها إلى كتفه، ترتجف، وجسدها ينتفض بنحيب مرير فيما راحت تبكي.
تبكي جيم.
وتبكي لالو.
كلاهما ميت إلى الأبد في أرضٍ غريبة.

الجزء الثالث

١٨٧٥

Part Three



1875

الفصل الخامس عشر

في برودة عتمة ما قبل الفجر، كانت وارنز كلّها غارقةً في النوم. أمّا داخل صالون هونغ كينغ، فكانت مصابيح زيت الكيروسين تتّقد بكلّ ما فيها من لهب، وقفت بولي، ووجهها وثوبها مبلّلان بالعرق، تفتّش عن شيءٍ آخر يمكن أن تنظّفه أو تغسله أو تفركه.

كان البار مصقولًا إلى حدّ بات أملسًا كأنه حلبة تزلج، يلمع ببريق داكن. بينما تألقت القناني، وأوعية السيجار المرصوصة، وتلألأت الأكواب على الرفوف. وانعكست صورتها المشوهة في اللمعة النحاسية لقضيب القدمين المحيط بقاعدة البار. كانت المناشف التي يستخدمها الزبائن لمسح الرغوة عن شواربهم ولحاهم مكوية ومطوية على حافة المنضدة. وبجوار النوافذ الجانبية والأمامية للصالون، اصطفت أربع طاولات قمار باستقامة بينما الكراسي مدسوسة تحت أغطية اللباد الأخضر الممشطة كأنها جديدة.

أمّا الموقد الحديدي، الذي أُعيد طلاؤه بالسواد حديثًا، فكان يلمع في قلب الغرفة، بينما امتلأت الصناديق الخشبية العميقة، التي يبصق فيها الرجال، بنشارة خشبٍ جديدة.

لا تزال رائحة الويسكي والتبغ البائتة عالقة في المكان، تتشبّث بالجدران، وبملابس بولي وجلِدها، كأنها وَسْمٌ لا يُمحى. غير أنّه لم يبقَ شيءٌ يمكن تنظيفه. لم يبقَ ما يشغلها عن مواجهة كلمات الرجل الأسود.

«أنتِ لستِ عبدة يا عزيزتي. لا يوجد عبيد في أمريكا، ليس منذ عشر سنوات».

كان ينبغي لتلك الكلمات أن تملأ قلبها بالفرح. إلا أنّ ما اعتمل فيها كان شعورًا بالخيانة، شعورًا حادًّا عميقًا موجعًا، كالشعور الذي مزّقها يوم التقط أبوها أكياس البذار عن الأرض. فإذا كان الرجل الأسود محقًّا، وإن لم تكن عبدةً حقًّا، ولم تكن ملكًا لهونغ كينغ، فلماذا لم يُخبرها تشارلي؟

ساقاها، اللتان كانتا قبل لحظاتٍ مشحونتين بطاقةٍ لا تهدأ، انحلّتا فجأة، فانتزعت كرسيًّا بعصبية، فاصطدمت بأكوام رقاقات اللعب المتكدِّسة في وسط المائدة وبدّدتها. أعادت بولي ترتيبها تلقائيًّا، ثم هوت جالسةً على الكرسيّ، منهارةً.

قد تفهم صمت الصينيين. فالمخلصون لهونغ كينغ لن ينطقوا، والآخرون إمّا يجهلون، وإمّا لا يجرؤون. ويمكنها أيضًا أن تفهم كيف لا يتدخّل الرجال والنساء البيض فلا مصلحة لهم في ذلك. أمّا تشارلي؟ فهو دائم المطالعة للكتب والصحف، ولا بدَّ أنه يعرف القانون. بل إنّ المنقِّبين أنفسهم كانوا يستدعونه أحيانًا للفصل في النزاعات الصغيرة، لأنّ علمه وسمعته في النزاهة جعلت أحكامه موثوقة، وإن أزعجت البعض. ومع ذلك، ظلّ ساكتًا عن هذه الحقيقة. لماذا؟

لقد وثقت به، وأسلمت نفسها له؛ أوّل الأمر لأنه كان طيّبًا رقيقًا وهي وحيدة خائفة، ثم لأنها آمنت أنه يهتم بها حقًّا. فإذا به يخونها.

انفرج الباب، ودخل تشارلي. وقع خطواته بدا غريبًا، عاليًا على غير العادة في ذلك السكون. قال وهو يتقدّم نحوها: «عندما لم تأتِ، ظننتكِ ذهبتِ إلى الحي الصيني. ثم رأيت الأضواء فشعرت بالقلق».

رفعت وجهها إليه، وعيناها محتقنتان بنيران الألم. «لماذا لم تخبرني أنني لست عبدة، وأنني لستُ ملكًا لهونغ كينغ؟»

شعرت بولي بثقل اللحظة. تردد تشارلي قبل أن يرد:

«من قال إنكِ لستِ كذلك؟»

قالت بتلعثم، وقد تعثرت إنجليزيتها تحت وطأة الانفعال: «رجل أسود جاء إلى الحانة الليلة. أخبرني أن قومه أتوا من أفريقيا. مثلي، خُطفوا من قريتهم وجُلبوا إلى هنا، لكن رجلًا يُدعى لينكولن شن حربًا فأطلق سراحهم. هو حر، وأنا حرة».

أجابها تشارلي وهو يسحب كرسيًا: «قامت الحرب الأهلية لتحرير السود. أما بالنسبة للصينيين فالأمر أكثر تعقيدًا من ذلك».

أخرج كيس التبغ وغليونه، حشا الحُجرة، كبسها، أشعلها، وأخذ منها نفسًا عميقًا. انسابت سحابة الدخان بينهما. قال: «قبل سنوات، تم سن قوانين خاصة في كاليفورنيا لحظر المزادات والعقود التي تجعل منكِ عبدة، لكن تلك القوانين لم تفعل سوى رفع ثمن الفتيات المستعبدات».

قالت بولي محتجّة: «كيف يحرر القانون الرجل الأسود ويرفع ثمني أنا؟»

أجاب: «لأن الفتيات بدأن في الهرب، وصار استرجاعهن يكلف أسيادهن الكثير من المال».

هزّت رأسها، كأنّها تُطرد غشاوةً عن عقلها: « لا أفهم»

قال تشارلي، وهو يزفر تنهيدةً متعبة: «ولا أنا أفهمه تمامًا»

ثم سكت لحظة، يمضغ فكرته مع التبغ. أخيرًا قال: «النظام يعمل على هذا النحو تقريبًا. إذا هربتِ من هونغ كينغ، فإنه سيختلق لكِ تهمة تجبر الشرطة على ملاحقتكِ. ثم، عندما يتم القبض عليكِ، يجعل أحد أصدقائه يكفُلك، وبمجرد أن يعيدكِ، يُسقط التهم».

قالت بولي، وهي تجاهد لتضبط صوتها، وقد كبست قبضتيها تحت قماش المائدة الأخضر حتى اشتدَّت مفاصلُهما: «أنت... تقول للقاضي... هونغ كينغ يجعل أنا عبدة».

قال تشارلي: «ليت الأمر بهذه البساطة، لكن القضاة والمحامين ليسوا دائمًا بمنأى عن الرشاوى، وهناك مشكلة اللغة والمترجمين، وتعقيدات القانون. ثم هناك أفراد العصابات من التونغ أيضًا. معروف عنهم أنهم قتلوا من حاولوا الهرب، ومن ساعدهم كذلك».

كانت الكلمات التي استخدمها تشارلي طويلة، وكان يتحدث بسرعة، لكن بولي فهمت جيدًا ما يعنيه. قالت: «يعني... أنت ما تقول للقاضي».

اتجه تشارلي نحو الموقد، ونفض الرماد، ثم جلس مجددًا «سأفعل إن طلبتِ مني ذلك. لكن عليكِ أن تعلمي أن غالبية النساء اللواتي تجرأن على اللجوء إلى المحاكم خسرن، ومن بين القليلات اللواتي ربِحن، تم ترحيل معظمهن. هل تريدين المخاطرة؟»

«ماذا تعني كلمة ترحيل؟»

«أُعيدت إلى الصين».

قبضت بولي يديها بقوة، وغرست أظافرها في راحتيها. ماذا سيحدث لها لو أُعيدت إلى الصين؟ كانت قد أخبرت جيم إنّها تعرف أنّ رسالةً لن تأتي، لكنّها مع ذلك، في كلِّ عامٍ جديد، تتذرّع بالمرض لتذهب إلى لي ديك، العشّاب، وتدفع له مالًا ليرسله إلى أهلها. مضت ثلاثة أعوامٍ جديدة من غير جواب، ولم يعد في وسعها أن تتهرّب من الحقيقة. إمّا أن أمَّها وأباها قد ماتا، وإمّا أنّها هي نفسها قد ماتت في نظرهما. وفي الحالين، لا سبيل إلى الرجوع.
لكن الذهب الذي ادخرته سيُكفي لشراء بعض الأرض، أرض تستطيع زراعتها كما علمها أبوها، إن سمح لها أهل القرية بذلك. فكرت في معاناة الأرامل في قريتها، وفي الشكوك والعداء الذي ستثيره امرأة عزباء. وعرفت أنها لو عادت إلى الصين، لوجب عليها أن تتزوج.

كانت طوال طفولتها مؤمنةً بما تقوله أمّها: إنّ الزواج وإنجاب الأطفال هو سعادة المرأة. وحتى بعد أن بدأت تعمل في الحقول، وتسرّبت الشكوك إلى قلبها كما يتسلّل الغبار في عاصفةٍ صيفية، لم تجرؤ حقًّا على مساءلة تلك الحقيقة. أليس الزواج للمرأة حتمًا كالميلاد والموت؟ لهذا، حين اشتراها تشين، حاولت أن تعرض نفسها عليه زوجةً، ظنًّا منها أنّ ذلك سيصلح كلَّ شيء. وحين كانت في طريقها إلى وارنز، علّقت قلبها بالدعاء أن يشتريها جيم زوجةً له. أمّا الآن، فلم تعد واثقة. لقد قالت أمّها إنّ المرأة مِلْكٌ لأبي أبنائها؛ فإذا تزوّجت، ألن تكون قد استبدلت سيّدًا بآخر؟

رفعت رأسها إلى تشارلي، فرأت شفتيه تتحركان. سمعته يقول: «لقد عاش الزنوج حياة بائسة.. جاؤوا إلى أمريكا في سلاسل، وأُجبِروا على العمل في ظروفٍ لا تستطيعين حتى أن تتخيّليها. كثيرٌ منهم لم يكن يجد ما يكفيه من الطعام. كانوا تحت رحمة أسيادهم والمشرفين عليهم؛ يُجلَدون، يُغتَصَبون، ويُباعون متى شاء أسيادهم. وضعك هنا ليس بهذا السوء».

رفع طرفًا من تنّورتها الحريرية بين أصابعه في إشارةٍ ذات معنى، وأشار إلى الأكمة البيضاء الناصعة تحتها. «عندك ملابس جميلة، وطعامٌ وفير. وأنا أمسك الرجال عند حدِّهم، وهونغ كينغ...».

توقّف قليلًا، ثم أتمَّ: «أنتِ أحسن حالًا من أناسٍ أحرار كثيرين».

حدّقت بولي في الرجل الجالس أمامها. أهذا هو الرجل الذي سمحت لنفسها أن تحبه؟ رجلٌ لا يبدو أنّه يضيره أن يشاركَه آخرٌ فيها؟ رجلٌ يجرؤ أن ينظر في عينيها ويقول لها إنّ عليها أن ترضى بنصيبها؟

أدارت له ظهرها وسارت نحو النافذة. لأكثر من عامين، كانا يتشاركان الفراش نفسه. لكن ماذا كان يعرف عن حياتها خارج ذلك الفراش، وخارج كوخِه وخارج صالون هونغ كينغ؟ لم تخبره قط عن الأسابيع الطويلة التي قضتها محشورة في قاع السفينة، تكاد تختنق من الهواء الراكد العفِن.

ولا عن مهانة الوقوف عارية على منصة مزاد. ولا عن الغصة التي تعلو حلقها كلما اعتلاها هونغ كينغ. ولا عن خوفها من أنّ عصيانها قد يفضي بها إلى ماخورٍ حقير أو إلى «مستشفى» تُرمى فيه لتموت.

لم تخبره لأنها ظنت أنه سيفهم من دون كلمات. وكانت مخطئة.

أسندت بولي جبينها إلى لوح النافذة البارد. في الخارج، غرد طائر الميدولارك، بلحنه الشجي الذي أعاد إلى ذاكرتها طيور الروبن الثلاثة التي أنقذتها يومًا بعد أن قتل قط السيد غروستين أمّها. في البداية، كانت الصغار راضيةً بأن تطير في أرجاء غرفتها، لكنّها ما لبثت أن أخذت تنقر على النافذة، تطلب الخروج. يومها صنع تشارلي لها قفصًا، وعلّقَته على شجرةٍ في الخارج. غير أنّ صياح الطيور ونداءاتها كانت تمزّقها، ففتحت باب القفص أخيرًا، وتركتها تذهب حيث تشاء. ثم جاء يومٌ دخل فيه السيّد بنسون، الجزار، إلى الصالون، ناولها علبة سجائر بداخلها ثلاثة أجسادٍ متيبّسة، مكسوّةٍ بطبقةٍ من الدم اليابس. قال إنّه آسف؛ فهو يعرف ما تعنيه الطيور لها، وقد وبّخ مساعده بعنف. لكنّ تحليقها وإلحاحها في طلب الفُتات كان مزعجًا، ولو أنّها أبقتها في القفص الذي صنعه تشارلي لها، لما قتلها مساعده. كان تشارلي قد قال لها الشيء نفسه، وقد حاولت أن تشرح له أن رغم حزنها على موت الطيور، إلا أنها لا تندم على إطلاقها من القفص. لكنه لم يفهم. فكيف لها أن تجعله يفهم حاجتها هي ذاتها إلى الهرب من القفص الذي يحبسها؟

استدارت ببطء عائدة إلى الطاولة. قالت: «تشارلي، أبوك دكتور، وأنت عندك تعليم جيد وبيت جميل في كونيتيكت. لكنك هربت لأن أبوك كان يريدك أن تكون جرّاح، وأنت لا تريد. عمِلت بحّارًا على سفينة، ولما وصلت سان فرانسيسكو سمعت عن حُمّى الذهب، وجربت التعدين. الآن أنت صاحب حانة ومقامر. ولو أردت تغيّر حياتك غدًا، لا شيء يوقفك. أنت حرّ. أما أنا، فلستُ إلا ابنة فلاحٍ لا يقرأ ولا يكتب. لكنّي أنا أيضًا أريد أن أكون حرّة».

أمسك تشارلي يدي بولي بكلتا يديه. وقال بحزن: «هل تظنين أنني أريد لك أقل من ذلك؟ لكن الأمر... لا يبدو ممكنًا».

انتزعت يديها. قالت ببرود: «ربما ليس الآن. لكنّي سأكون حرّة».

«الآن، من فضلك، اخرج. يجب أن أغلق المكان».

سار تشارلي نحو الباب، ثم استدار فجأة بعنف. قال: «بولي، أنا أعرف أنك تسرقين غبار الذهب من هونغ كينغ، وتدّخرينه لتشتري حريتك كما فعل جيم. لكن هذا لن يفلح».

قالت ببرود جارح: «لا داعي للقلق. أنا لم أطلب منك المساعدة».

مرّر أصابعه في لحيته، كأنّه يوشك أن يقتلعها من جذورها: «اسمعيني. جيم حاول أن يشتريك. لامرة واحدة، بل ثلاث. في البداية قال هونغ كينغ إن جيم يستطيع أن يأخذك مقابل عشرة آلاف دولار، أربعة أضعاف ما دفعه فيك. وفي نهاية الصيف، حين جاءه جيم بالمال الذي ادّخره واستدانه، سخر منه هونغ كينغ. فجاء جيم إليّ واستدان مني ثلاثة آلاف أخرى. ومع ذلك، رفض. ثم طلب مني جيم أن أجرب أنا. عندها قال هونغ كينغ إنه لن يبيعك أبدًا، مهما كان الثمن».

عندئذٍ فقط، أدركت بولي مغزى الكآبة القاتمة التي رأتْها في عيني جيم، وسبب الكلمات الغاضبة. ومع ذلك لم تستطع أن تصدّق.

قالت: «لماذا جيم لم يقول لي؟ لماذا أنت لم تقول لي؟»

قال تشارلي: «جعلني جيم أقسم ألا أفعل. قال إنّ الأمل هو الشيء الوحيد الذي تعيشين لأجله، ولا يمكن أن يسرقه منك»

الفصل السادس عشر

تحدّثا حتى بزوغ الفجر، لكن شيئًا لم يتغيّر. جيم ما يزال ميتًا، والذهب الذي كدحت بولي سنواتٍ لتدخره لم يعد سوى غبارٍ بلا قيمة.

وهما في الطريق عائدين إلى كوخ تشارلي، بدأت بولي تجمع شتات ما التقطته عرضًا من أحاديث متفرقة عن هونغ كينغ.

قيل أنه قد جاء إلى جبال الذهب قبل أكثر من عشرين عامًا، يوم كان الذهب أوفر، والقوانين ضد الصينيين أقل صرامة، فلم يحتج سوى سبع سنوات ليجمع ما يكفي ليعود إلى وطنه رجلًا ثريًا. لكن في طريقه إلى سان فرانسيسكو ليشتري تذكرة العودة، أُغري بالانضمام إلى لعبة «فان-تان»[8]، فخسر كل شيء. مرّتان أخريان ادّخر ما يكفي لتقاعدٍ مريح، ومرّتان أخريان بدّده في القمار. وفي المرة الأخيرة، دفع كل ما يملك في استئجار الصالون في وارنز... وشراء بولي.

وهذه المرة ربح رهانه. فقد جعلته بولي غنيًا، بل أغنى مما يحتاج.

غنيّ بما يكفي ليعتزل إلى الأبد. ومع ذلك، لم يعد يذكر العودة إلى الوطن. ولماذا يفعل؟ الوطن يعني زوجة في مثل عمره، ومسؤوليات بيت، وسيلًا لا ينقطع من طلبات الأقارب الفقراء. أما وارنز فكانت تعني الذهب، وحياة عامرة بالملذات. ما دام يملك عبدته.

كان ينبغي لها أن تُبصر ذلك منذ زمن. لكنها لم تشأ.

---

[8] فان-تان (Fan-Tan): لعبة مقامرة صينية تقليدية تعتمد على الحظ لا المهارة. تُستخدم فيها عملات أو خرز، ويُراهن اللاعبون على عدد القطع المتبقية بعد عدّها أربعًا أربعًا (الباقي: 1 أو 2 أو 3 أو 4). انتقلت إلى صالونات الغرب بوصفها علامة على الحضور الصيني وثقافته. المترجم

أليس هذا هو السبب في أنها لم تواجه جيم في ليلتهما الأخيرة معًا؟ يوم قال لها: أنتِ أسيرة لأكاذيبك بقدر ما أنتِ أسيرة لهونغ كينغ. وكان محقًا. فلولا تلك الآمال الكاذبة التي تُسكّن الألم، كيف كان يمكنها أن تتحمّل أنفاسه الحامضة، ويديه الناهشتين؟ كيف كان يمكنها مواجهة نوبات غضبه العمياء حين يخسر في القمار؟ كيف لها أن تتحمل لذّته في إيذاءها؟

لكن الآن... ما عاد ممكنًا أن تُعرض بوجهها عن الحقيقة.

لن تنال حرّيتها أبدًا. ما دام هونغ كينغ حيًا.

ومع هذا الإدراك، خيّم عليها الصمت. ثم، بينما كان تشارلي نائمًا، انسلت من الفراش، ارتدت ثيابها، وانتزعت بندقيته الـ«وينشستر» من على الحائط.

لم تكن قد تعلّمت إطلاق النار قط. رفض جيم أن يعلّمها، وهي لم تطلب من تشارلي ذلك أبدًا. لكنها رافقت تشارلي في رحلات الصيد، وكانت تعرف من الأدغال المدهوسة، والعشب المسحوق، والصخور الصغيرة الغائرة في الأرض، والشجيرات المنزوعة الأوراق والتوت، أن الأثر الذي تتبعه حفرته الدببة بأقدامها. كانت هناك صخور كبيرة مقلوبة بحثًا عن الحشرات، وجذع شجرةٍ ميتة قد شُقّ عن آخره بمخالب اللعب، وخطوط طويلة من التراب المقلوب حيث لعبت الدِّبَبَة الصغار، كل ما رأته أكّد ظنّها. ثم، في البعيد، رأت أنثى دبٍّ بنّيٍ تَعْدو، وشبلها يعدو وراءها.

لم تتبع الدبّة وصغيرها، ولم تحاول أن تُطلق النار على الأيائل التي تتسلّل في الأدغال صامتةً كالأشباح، ولا على الماعز الوحشيّة، وبعضها في حجم المهر الصغير. فهدفها في أوّل تجربةٍ لم يكن صيدًا صعبًا؛ لقد عقدت النيّة على دجاجةٍ حَمقاء، طائرٍ غبيّ لا يطير من الخطر. كانت تعرف أن ريشها الرمادي المائل إلى البني ينسجم بمهارة مع لون الجذوع، حتى يكاد يستحيل تمييزه. لكنها كانت تعرف أيضًا أن الذكر يحب أن يضرب جناحيه بصدره، وأن هذا الخفقان سيفضح مكانه. فتوقفت وأرهفت السمع.
سمعت ثرثرة السناجب وهي تقفز بين الجذوع الخضراء المكسوّة بالطحالب. وطنين النحل ، متنافسًا مع فراشات صفراء على أزهار صغيرة نبتت بين جذور صنوبرٍ عملاق ملتوية. لكن لم يكن هناك خفق أجنحة على الصدر.

تمنّت لو أن مزيدًا من الضوء يتسلل عبر النسيج العتيق لأشجار التنوب واللارِش والأرز والصنوبر. راحت تفتش الأغصان بمنهجية: الأقرب فالأبعد، ثم أبعد فأبعد. لا شيء. استدارت خائبة لتعود، ثم تجمّدت في مكانها.
هناك، على غصن غير بعيد، رأت ريشات ذيل دجاجة حمقاء، رمادية بنية، تتدلى فوق إبر الصنوبر. تسارع نبضها. رفعت البندقية، وأدخلت عشر طلقات طويلة رخوة الرأس في المخزن. ثم صوبت الفوهة... وأطلقت النار.
شقّ الانفجار رأسها إلى ألف شظية هشّة من الألم. وملأت أنفها رائحة البارود المحترق المرّة اللاذعة. خفضت البندقية. راحت السناجب تصرخ فزعًا. والطيور تخفق أجنحتها مُطلِقة إنذارات حادة بينما تفرّ.

لكن الدجاجة الحمقاء بقيت في مكانها، على الغصن ذاته. رمشت بغباء، غير واعية بالخطر، كأن الضجيج المفاجئ قد أزعجها فحسب.
أثارت عيناها الصغيرتان، الشبيهتان بالخرز، في ذهنها ذكرى هونغ كينغ... ورفضه أن يتركها ترحل.
رفعت البندقية مجددًا. ثم، بالسرعة نفسها، أنزلتها، ابتلعت ريقها، وقد جفّ حلقها. هونغ كينغ ليس طائرًا، بل رجل. رجل مسن، سيموت لا محالة بعد سنوات قليلة، ويتركها حرّة... من غير أن تتلطخ يداها بالدم.
شتّت طنين الحشرات انتباهها، فذكّرها باليعاسيب التي كان إخوتها يمسكونها، يربطون خيوطًا في أذنابها، ويُجبرونها على الطيران من صبيٍّ إلى آخر. وبعد وقتٍ تسقط أجنحتها الرهيفة، لكنها، أسيرة الخيط، لا تستطيع التوقّف؛ فتزحف من سيّدٍ إلى آخر حتى تموت من الإعياء.
اشتدّت قبضتها على البندقية. هونغ كينغ ليس مجرد رجل مسن.
إنه مالكها. وإن أرادت حريتها، فعليها أن تقتل.
للمرة الثالثة، رفعت البندقية. أغمضت عينيها لحظة، تحاول تبديد البقع الحمراء الكثيرة التي غشّت بصرها. التركيز. لا بد أن تركّز. وأن تثبّت نفسها.
تنفست بعمق، ملأت أنفها الرائحة الرطبة، الطينية، البريّة للأدغال.
صوّبت نحو الطائر... وأطلقت النار.
مجددًا، ارتدّ السلاح. ومزّق الانفجار سكون الغابة. وأخذ قلبها يخفق بعنف لا يقل عن ألم رأسها، أجبرت نفسها على النظر إلى الغصن... إلى الطائر الذي استهدفته....كان فارغًا.
للحظة، ظنّت أنه فرّ.

ثم رأته، عالقًا في شجيرة حيث سقط ميتًا.
وكان هونغ كينغ... التالي.

الفصل السابع عشر

أخفَت بولي البندقية تحت سريرها. كانت تتمنى لو أنّ بوسعها الحصول على مسدّس صغير لا يلفت النظر، مثل مسدّس فتاة الهيردي جيردي، أو مسدّس تشارلي، لكنّ الحصول على واحدٍ كهذا لا بدّ أن يثير الشبهات، والمباغتة هي مفتاح نجاح خطّتها.

بينما تغتسل وتبدّل ثيابها، راحت ترسم خطتها. لن يكون الأمر عسيرًا.
فمثل الدجاجة الحمقاء، اعتاد هونغ كينغ الاطمئنان لها، كما ترك لها إدارة الصالون بينما ينغمس هو في الفان-تان أو البوكر. كل ما عليها ان تنتظر حتى يأتي ليجمع أرباح الليلة، فتطلق عليه النار دون شهود، وسيسقط ميتًا قبل أن يدرك حتى أن خلف قناع عبدته الوديع امرأة تدبّر لاستعادة حريتها.
وضعت ابتسامة مشرقة على وجهها، وفتحت باب الصالون.
كان المكان مكتظًا... لكن يعمه الصمت على نحو غريب، لا يُسمع إلا همهمة مرتجفة كنبض مكشوف. هل اكتشف تشارلي اختفاء بندقيته؟ هل خمّن أنها تنوي اطلاق النار على هونغ كينغ فجاء ليحذّره؟
كلا، هو لن يسلّمها أبدًا، ليس بعد ما دار بينهما من حديثٍ واعتراف عند الصباح. فما الذي يحدث إذن؟

ثبتت ابتسامتها المصطنعة، وشقّت طريقها بين الأجساد المتدافعة.

ومن تدافع أجساد الرجال قرب النوافذ، خيل إليها في البداية أن مشهدًا في الشارع قد اجتذبهم. لكن حين شقّت طريقها أخيرًا، أدركت أنهم محتشدون حول طاولات القمار. طاولة واحدة. الطاولة التي كان هونغ كينغ وتشارلي يجلسان منحنِيَين فوقها، غارقين في الأوراق.

تذبذب المصباح المعلّق فوق الطاولة... ثم سطع فجأة بقوة، فرأت أن جلد هونغ كينغ الذي كان عادة جافًا وباردًا كجلد الأفعى، يلمع عرقًا، وهو يبسط أوراقه على الطاولة.

قال: «زوجان»

كشف تشارلي عن بطاقته الأخيرة: «ثلاثة آسات».

زفر الرجال المحيطون بهما زفرة ارتياح جماعية، كأن احتقانًا انفك.

تعالت الهتافات: «هكذا يا تشارلي!». «اضرب!». «افضح الصيني!»

تواصل صراخهم، بينما كان تشارلي يزيح أكياس غبار الذهب من وسط الطاولة، يضيفها إلى كومة هائلة كانت أمامه بالفعل.

وقفت بولي تراقب المشهد بحنق. تشارلي يعيد الأوراق ويخلطها استعدادًا لجولةٍ أخرى. كانت خطتها تتطلب أن يبقى هونغ كينغ بعيدًا عن الصالون حتى الإغلاق، ثم يأتي راضيًا، مزهوًا بما ربح، لا مضطربًا بخسائر فادحة.

لا بد أن تُشير لتشارلي... أن تجعله يتوقف.

صاحت، بصوت حاد مرتجف لا يشبهها: «مشروبات. تانغل ليغ، بيرة، شامبانيا، براندي، فورتي رود! أنت تطلب. وأنا أُحضِر».

«هاك كيسين، اراهن على بيمِيس بفارق كبير».

«ضع رهاني على هونغ كينغ».

«لا تكن مجنونًا يا صيني، البوكر لعبة أمريكية».
«ضع رهاني على الصيني أنا أيضًا».
«هونغ كينغ ماكر».
«لكن تشارلي الأفضل».
«حظه لا يمكن أن يدوم طويلًا».
ضرب تشارلي الرزمة على الطاولة. وقال: «اقطع».
ساد الصمت.
من داخل كُمّ ردائه الأزرق الداكن الواسع، مدّ هونغ كينغ يده الطويلة العظمية. خدشت أظافره القماش الأخضر وهو يُسوّي الأوراق في كومة مرتبة، ثم قطع الرزمة بدقة جراح.
لعق تشارلي إبهامه ووزّع. ورقة مقلوبة لكل لاعب. ثم أخرى مكشوفة.
ومع ميل هونغ كينغ وتشارلي يطالعان الأوراق المخفية، اندفع الرجال أقرب، أنفاسهم الحارة الرطبة تلهب عنق بولي وكتفيها.
كانت متشوّقةً لرؤية ما يرونه، فمدّت رأسها بين الأجساد.
كان هونغ كينغ قد بدأ بالفعل بسحب ورقة من كومة أوراقه الثلاث، وتبعه تشارلي بسحب ورقتين أخريين من المجموعة. لم ترمش عينا هونغ كينغ، المغطاتان بجفون خفيفة، إلا بالكاد وهو يمعن النظر في أوراق اللعب: الثلاثة وآس القلوب له، واثنان ديناري وأربعة بستوني لتشارلي.
لكن بولي تعرف من طريقة مداعبة أصابعه للشعيرات النابتة من الشامة على ذقنه أن قلبه كان يرقص طربًا، وأنّ الآس بشارةُ انقلابٍ في الحظّ.

دفع كيسًا آخر إلى وسط الطاولة. ثم مرة أخرى، ساواه تشارلي، ووزّع: خمسة بستوني لهونغ كينغ، وأربع قلوب لنفسه، فصار يملك زوجًا واحدًا.
تحوّلت الأنظار كلها إلى تشارلي. ربّت برفق على أوراق اللعب فوق الطاولة، ثم وضعها جانبًا، وتفكّر في أوراقه، بينما كانت أصابعه تدقّ بصمت على كومة الذهب التي ربحها.
من صالون آل رِبسون المجاور تناهت نوتاتُ بيانو مبحوحة وصوتٌ سكران يلهث بالغناء. أنينُ قنوات المياه عند النهر، وغرغرةُ مصباح زيتي.
غشّى العرقُ جسدَ بولي بطبقةٍ لامعة، وتعاقبت عليها موجاتٌ من نارٍ وبرد. حاولت أن تقنع نفسها أنّها جولة أخرى لا أكثر، وأنّ المبلغ على الطاولة ليس كبيرًا، لكنّ الصمت المشدود، والوجوه الملتهبة المشدودة من فرط الترقّب، والأنفاس المحبوسة، كلّها كانت تصيح في أذنها بأنّ شيئًا أكبر بكثير يُقام على هذه الأوراق.

رمقت الكيس الوحيد الباقي أمام هونغ كينغ، ثم رفعت عينيها إليه. غير أن أصابعه التي كانت قبل قليل تلامس شعيرات شامته في حنان، عادت تلوّيه شدًّا وتمزيقًا. أذلك الكيس كلُّ ما تبقّى له؟
قال تشارلي: «أمرّ».
سقطت يد هونغ كينغ على الطاولة. وبطرف أظافره، صفّ أوراقه بدقة. وقال: «أمرّ».
سرت زفرات ارتياح وخيبة بين الحشد كارتعاشٍ مكتوم.

مدّ تشارلي يده إلى الرزمة، وكشف آخر أوراق تلك الجولة:
أربعة ديناري لهونغ كينغ. واثنان بستوني لنفسه. صار عنده بيت كامل«زوج وثلاثة».
انفجرت موجة رهانات في اللحظات الأخيرة فمزقت الصمت.
«اثنان آخران على تشارلي».
«هل أنت مجنون؟ لديه زوجان فقط. الصيني لديه تسلسل».
«أنت تخمن. تشارلي لديه زوجان، رأيتُ ذلك».
«لا مجال للتخمين. أقول لك الصيني يُخبىء ورقة رابحة».

حين دفع تشارلي بكيس الذهب في منتصف الطاولة، ساد الصمت. ولكن عندما ألقى هونغ كينغ بكيسه الأخير عبر الطاولة، سمعت بولي همهمة جديدة في الحشد. كانت عيناها تتنقلان بسرعة بين اللاعبين؛ إذا كان بإمكان زوجا تشارلي الفوز باللعبة، فلماذا يصر هونغ كينغ على دفع كل ما لديه في الرهان؟ هل من الممكن أن يكون معه تسلسل حقًا؟
وإذا كان كذلك، لماذا يضيف تشارلي ثلاثة أكياس مساويًا لرهان هونغ كينغ...بل ومضاعفًا؟ هل كان يختبره، يتأكد إن كان هونغ كينغ يخادع؟
انغرزت أصابع هونغ كينغ في جسد بولي، ولوى معصمها بقسوة.
«طلبت منك أن تحضري حصيلة اليوم».
رغم أن صوته كان هادئًا، بل باردًا تقريبًا، إلا أن بولي شعرت بغضب هونغ كينغ يغلي في داخله.

وفجأة فهمت. كان لدى هونغ كينغ بالفعل تسلسل حقيقي. تسلسل يجعل بامكانه استعادة كل ما خسره. تسلسل لا يمكنه أن يفرّط فيه إن لم يُساوِ تشارلي في كلّ رمية.

انشقّ الطريق أمامها، فخرجت من الحشد وأحضرت صندوق النقود من خلف البار. فتح هونغ كينغ القفل ورفع الغطاء. وبغضبٍ لم يعد يطيق كتمانه، وزن ما فيه، ثم قذف بالجميع في وسط الطاولة.

قال والنفَس الحارّ يتحوّل إلى صفيرٍ حادّ: «غطّيت وزدت واحدًا.»

ارتطم الكيسان بالطاولة، وتناثر غبار الذهب.

قال تشارلي بهدوء: «أراك، وأزيدك واحدًا».

دفع هونغ كينغ كرسيه للخلف، وسرت موجة من الهمس بين الحضور. هل سيرمي أوراقه؟ لكنه، ببطء وتعمد، فكّ ثلاثة أزرار جانبية، وأخرج ورقة من جيب داخلي، وبسطها على الطاولة. كانت خشخشة الورقة مسموعة في الصمت. قال: «أراهن بعقد إيجار الصالون».

اتكأ تشارلي بكرسيه إلى الخلف . قال في هدوء: «لدي صالون بالفعل».

انطبقت شفتا هونغ كينغ. وخرج لسانه يبلل جفافه.

«أعطيك ورقة تضمن لك نصف أرباحي للأشهر الستة القادمة».

رد تشارلي بهدوء: «أكون أحمقًا لو خاطرت بالذهب مقابل ورق، وأنت تعرف ذلك».

عادت شفاه هونغ كينغ لتطبق مرة أخرى. ثم قال أخيرًا: «لم يبق لدي شيء آخر».

أومأ تشارلي برأسه نحو بولي بلا مبالاة. «إذن راهن على الفتاة».

عضت بولي على شفتيها كاتمة صرخة في صدرها، لكن عيني هونغ كينغ لمعتا ببريق كغبار الذهب الذي يقاتل لاستعادته.

سأل هونغ كينغ: «بكم تراهنني مقابلها؟»

تردد تشارلي لحظة: «بكل ما على الطاولة».

شهق الرجال من حولهم، لكن بولي، المشتعلة بنفس الغضب والعار اللذين شعرت بهما فوق منصة المزاد ، كادت لا تسمع شيئًا.

سأل هونغ كينغ: «رهان أخير؟».

دفع تشارلي كل الذهب إلى منتصف الطاولة: «نعم».

انفرجت شفاه هونغ كينغ عن ابتسامة عريضة بلا أسنان.وقال: «موافق».

قلب بطاقته الأخيرة بخفة. «اثنان قلوب - تسلسل كامل».

ثم نهض، وأسقط كرسيه من فرط اللهفة ليجمع أرباحه.

دون كلمة، قلب تشارلي ورقته المخفية.

«اثنين بستوني -بيت كامل».

لقد فاز تشارلي.

الفصل الثامن عشر

لطالما كان كوخ تشارلي ملاذًا آمنًا بالنسبة لبولي. بموقده المتوهج، ومقعديه المتقاربين، وخزانة ملابسه المصنوعة من صناديق التعبئة، والفراش الذي تشاركاه. أما الآن، بعد أن اشعل تشارلي المصباح، وتوهجت الغرفة بالنور، فقد رأته مجرد كوخ قبيح آخر.

طوّقها تشارلي بذراعَيْه، انغرس مشبكُ حزامه في جسدها، شعرت بموجة اشمئزازٍ تجتاحها وهي تحسّ ارتجافه تحت وطأة النشوة الثملة نفسها التي اعتادت أن تلمحها في هونغ كينغ بعد فوزٍ كبير. لكنّها لم تتحرّك. فحتى لو لم يكن سيّدها الجديد، ما كانت لتقدر على ردعه؛ إنّه أقوى منها وأكبر حجمًا.

قال وهو يأخد وجهها بين كلتا يديه ويقبل شفتيها بقوة.

«مهلًا، من المفترض أن تكوني سعيدة». ارتجفت

قال: «حسنًا، قد لا أستحق جوقة تراتيل، ولكن ماذا عن كلمة شكر بسيطة؟»

شكر؟ على ماذا؟ على إذلالها؟ ام لارغامها على نكث وعدها لنفسها بأنها ستغادر هونغ كونغ كإمرأة حرة؟ أم على تعليمها أن ليس للعبد الحق في قطع الوعود، خاصة لنفسها؟

نزع الدبابيس من كعكة شعر بولي. فانسدل شعرها على ظهرها كشلال من الحرير الأسود.

«الليلة دمرت رجلًا من أجلك».

«ليس من أجلي. من أجل اللعبة. لأنك مقامر».

«كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لتحريرك».

«هذا ما تظنه انت. تمامًا كما ظن جيم بأنني سأكون أفضل حالًا لو لم أعرف أن هونغ كونغ رفض بيعي. ربما كان جيم محقًا. أو ربما أنت محق. لكنها حياتي أنا. ليست حياة جيم. وليست حياتك. بل حياتي».

تقدم تشارلي نحو الخزانة وسكب لنفسه مشروبًا، ثم ابتلعه دفعة واحدة.

قال: «حسنًا. ماذا كنتِ ستفعلين؟»

رغم أنها تعرف يقينًا أنّها ما كانت لتقدر على فعلها، وأنّ غضبها ليس من أجل هذا الفعل بعينه، إلا أنها قالت: «كنت سأطلق النار عليه».

قال تشارلي وهو يضع كأسه: «هناك طرق أخرى لقتل رجل غير استخدام المسدس. لقد فقد هونغ كينغ كرامته أمام الجميع، لذا سيتعين عليه مغادرة المعسكر. بالنسبة لكِ ولنا، هو في حكم الميت».

انهارت بولي على السرير. مرة أخرى، لم يفهم، ولم ير أبعد من كلماتها. قالت بتعب: «كان من الممكن أن تخسر».

«لكنني لم أخسر».

قالت: «وماذا عن المرّة القادمة التي تلعب فيها؟»

رفعها تشارلي عن السرير وضمها إليه. شعرت بخشونة قميصه الصوفي البالي على وجهها، ناعمة كلمسة حانية.

قال بصوت يحمل دهشةً وألمًا: «لن أراهن بك أبدًا».

أبقت ظهرها مشدودًا. «أنا عبدتك. يمكنك أن تفعل بي ما تشاء».

تراجع خطوة، ممسكًا بكتفيها على امتداد ذراعيه. قال: «لم أربحكِ من هونغ كينغ لتكوني عبدة لي. أنتِ حرة».

خفضت عينيها إلى ذراعيه، فأرخى قبضته، لكن آثار أصابعه ظلت على جلدها، بقعًا أرجوانية داكنة، كالكدمات القديمة التي تركها جيم حين هزّها بعنف ذات ليلة، مطالبًا إياها بمواجهة حقيقة لم يستطع أي منهما احتمالها.

مرّ في خاطرها ذلك الوعد الخصيب الذي حملته لها أيامها الأولى مع جيم، وعدًا لم يتحقّق، بعضه بسبب الظروف، وأكثره لأنّهما، رغم حديثهما الطويل، أخفيا كثيرًا عن بعضهما وعن أنفسهما. فهل قُدّر لها أن تعاني الخسارة نفسها مجددًا؟ وللسبب نفسه؟

أمامها، رأت تشارلي منكّس الكتفين، يميل برأسه إلى الخلف وهو يتجرع كأسًا أخرى. وفي المرآة فوق الخزانة، كانت ترى يديه وهما تقبضان على الزجاجة والكأس، لكنّها لم تكن ترى وجهه؛ إذ خفض المرآة من زمنٍ بعيد إلى ارتفاعٍ يناسبها هي. وفجأة، انتبهت لما حولها من لمسات مماثلة تُعبّر عن اهتمام تشارلي الرقيق؛ الستائر المثبتة بمسامير لتحميها من الأعين المتطفلة، الكرسي الثاني الذي صُنع بحجم أصغر، الرفوف والخطافات التي خُفض مستواها... وجدت نفسها تتساءل: هل دفع الرهان الأخير فعلًا ليعيد لها حريّتها، لا لينتصر في اللعبة؟

هذه الليلة، والتي سبقتها، تألمت من خياناته الظاهرة، وغضبت لأنه لم يفهمها. لكن هل فهمته هي؟ منذ اليوم الذي دخلت فيه وارنز، وهو يحميها، قبلت مساعدته دون تردد، وكأنه حقها. الآن، ولأول مرة، تسأل نفسها لماذا جاء لإنقاذها في الحانة. هل كان ذلك بدافع الفروسية الغربية؟ أم بدافع الشفقة؟ أم لأنه كان صديق جيم؟ وبعد موت جيم، هل استمر في حمايتها بدافع الولاء له، أم لأنه صار يهتم لأمرها، أم لمجرد إبقائها في فراشه؟

كانت لا تدري حتى كيف أو متى صار هو وجيم صديقين. لقد عاشت، كضفدعٍ في قعر بئر، لا ترى من الدنيا إلا دائرةً صغيرة من زرقة السماء اسمُها الحرية، تحشد لها كلَّ فكرها، وتصبّ فيها كلَّ جهدها، فلا ترى طريقًا إليها إلا تكديس الذهب قطعة فوق أخرى، دون أن يخطر لها ولو للحظة أن بامكانها نيلها بطريقة أخرى. والآن، قد تفقد تلك الحرية التي وضعها تشارلي بين يديها، ومعها قد تفقد تشارلي نفسه.

بحثت عن كلمات تمسح ما تراكم بينهما من سوء فهم، وبدأت تتكلّم بتعثّر: «تشارلي، أحيانًا أغضب منك وأنت تغضب مني. لكنني أعلم أن الغضب ليس إلا لأننا لا نفهم بعضنا، ولا نؤمن بالطريقة ذاتها، أرجوك، حاول أن تفهم هذا».

ثم توقفت، تنتظر إشارة.

لم يتكلم، لكنها رأت يديه على الزجاجة والكأس تتجمدان، وانقطع ايقاع الشرب المتتابع. تشجعت، وتابعت: «طوال حياتي كنتُ ملكًا لشخص ما. لأبي، أو لقطاع الطرق، لهونغ كينغ. عاهدت نفسي عندما أتحرر من هونغ كينغ، ألا أكون ملكًا لأي رجل، بل لنفسي وحدي».

تابعت: «انت تعلم، لدي ذهب أدخرته لأشتري نفسي من هونغ كونغ. أريد أن أستخدمه لبناء منزل، وبدء مشروعي الخاص. نُزُل للمسافرين مثل السيدة شولتز».

سكب تشارلي مشروبًا آخر، وابتلعه دفعةً واحدة. «لا يمكنك».

«هل تقلق من أنني لا أعرف كيف أطبخ؟ لقد راقبت السيدة شولتز وسأتعلم بسرعة كبيرة».

«ليس الأمر كذلك».

قالت محتدة: «إذًا ماذا؟ لأنك تعتقد أنني لست زوجة مثل السيدة شولتز، لست محترمة، سيقول الناس إنني أدير بيت دعارة؟ سأثبت لهم أنهم مخطئون».

استدار تشارلي ليواجهها. قال بصوت خافت بالكاد سمعته.

«لا يحق للصيني امتلاك الأرض».

شهقت: «لكنك تقول إن أمريكا لديها أرض للجميع. وأن الناس من جميع أنحاء العالم يأتون من أجل الأرض. أغنياء وفقراء. جميعهم سواء. يمكن لأي شخص أن يمتلك أرضًا. هذا ما قلته».

«أي أمريكي. أما أنت فمن الصين».

انفتح فمها لتصيح بالإنكار، لكنّ الألم المرتسم على وجه تشارلي قال لها إنّ هذه الكلمات كلّفته من الروح أكثر مما يطيقه، وإنّ الغضب وحده لا يكفي لردّها، فتهاوت صامتة على حافة السرير. كان عليها أن تفكّر مليًّا، أن تُحكِم خيط التناقضات في كلام تشارلي، وفي حيرتها هي.

كانت تعلم أن الصينيين في وارنز لا يملكون المتاجر والمغاسل التي يعملون بها، لكنها ظنت أن ذلك لأنهم ينوون العودة إلى الصين حالما يجمعون ما يكفي من المال. ألم يكن رواد حانة هونغ كينغ يشكون دائمًا من وحدة الحياة بلا زوجات وأطفال، ومن فظاظة الرجال البيض، والضرائب الجائرة، والقوانين القاسية؟ ألم يكونوا يختتمون تذمرهم دائمًا بالحديث عن الوطن، وعن شغفهم للعودة إلى عائلاتهم التي تركوها وراءهم؟

أما هي... فلا أهل لها، ولا بيت تعود إليه.

بالطبع. هذا هو الأمر. تشارلي لم يدرك أنها لا تنوي العودة إلى الصين. وأنها تنوي البقاء في أمريكا. ستصبح أمريكية وتشتري الأرض التي تبني عليها بيتها. أرض تحفظ حريتها واستقلالها إلى الأبد.

قفزت، وركضت نحو تشارلي، شبكت ذراعها بذراعه.

«أنت لا تفهم. لن أعود إلى الصين أبدًا. سأصبح أمريكية».

ابتعد. قبض قبضتيه ثم ارخاهما. أخرج غليونه من جيبه، قلّبه بين يديه متفحصًا، ثم ألقاه على السرير، ومد يده إلى الزجاجة.

أمسكت بولي بذراعه. «ما الأمر؟ ما الخطأ؟»

«الطريقة الوحيدة ليصبح الصيني أمريكيًا هي أن يولد هنا».

ضحكت. ضحكة قصيرة مريرة. هنا أو في الصين، عبدة أو حرة، الأمر واحد. كانت بحاجة إلى حامٍ يسندها.

فركت يديها على ظهر تشارلي، تفك عضلاته المشدودة. استدار نحوها، وبدأت بلا تفكير تفك أزرار قميصه.

أمسك يديها، وأوقفهما. «بولي، كنتُ أعني ما قلت. أنتِ حرة. دعيني أكون راعيك وأبني لك بيتًا. تفعلين فيه ما تشائين، تستقبلين من تشائين، وترفضين من تشائين. البيت لكِ أعدك». ابتسم بوهن.

«لا يتعين عليكِ حتى قبولي فيه».

«أنا...»

لامست أصابعه شفتيها برفق، مسكتة إياها. «ونعم، يمكنك دفع ثمنه أيضًا».

انطلق من صدرها ضحكٌ عالٍ صافٍ، رنان كصوت الأجراس. وحين سمعها تشارلي، اتسعت ابتسامته، وتعالت ضحكته حتى امتزجت بضحكتها. وفجأة، وسط دائرة ضحكاتهما المشتركة، شعرت لأول مرة أنها أخيرًا... حرة.

حرة على نحو كامل مدهش.

الجزء الرابع

١٨٩٤-١٩٨٠

Part Four



1890–1894

الفصل التاسع عشر

انطلقت الصواريخ تصفّر وهي تمر بمحاذاة النافذة، ثم انفجرت في وابل من شرارات صفراء بلون الليمون تحت سماء يوليو الصافية. دوّى انفجار سلسلة من المفرقعات، ثم أخرى، وتسللت رائحة البارود المحترق عبر النافذة، ممتزجة بعبق الخَبز والطهو. ومن الشارع الرئيسي تناهت أصوات الطرق في اللحظة الأخيرة، وأصوات الرجال والنساء والأطفال القادمين من المزارع النائية والمناجم، وقد اجتمعوا للاحتفال

في غرفتها الصغيرة، الملاصقة للغرفة الأكبر التي ينام فيها نزلاؤها،

سارعت بولي بخياطة الزرّ الذهبي الأخير في صدريتها الضيقة. كان تشارلي قد علمها صياغة الذهب، وكانت كثيرًا ما تطرق حليًا صغيرة لبيعها في متجر السيد غروستين، غير أن هذه الأزرار المصنوعة من قطع ذهبية فئة خمسة دولارات، لم تصنعها بنفسها، بل صنعها تشارلي خصيصًا لها.

طوال خمسة عشر عامًا، منذ أن انتزع حريتها من هونغ كينغ، لم تقف بينهما مرة أخرى حواجز سوء الفهم التي انهارت في تلك الليلة، فقد اعتادا أن يتحدثا بصراحة عن كل شيء. ولم يتراجع تشارلي يومًا عن الوعد الذي قطعه، إذ بنى لها هذا المنزل المخصص للنزلاء إلى جوار كوخه، ووفّر لها الحماية التي احتاجتها، من غير أن يمس استقلالها. ولهذا كانت تلك الأزرار الذهبية، التي صنعها تشارلي بيديه، بالنسبة إليها دليلًا ملموسًا على حبه وتفهّمه، فكانت تنقلها من ثوب إلى آخر.

في الأسفل، انغلق باب المطبخ بعنف. قطعت الخيط بأسنانها وارتدت ملابسها بسرعة، أصابعها تمسك بالخطافات والأربطة والأزرار بمهارة متمرسة. ثم شدّت الخصر والتنورة شدّة أخيرة، والتقطت قبعتها من أعلى السرير وهرعت نزولًا إلى أسفل الدرج حيث غرفة الجلوس والطعام المشتركة.

من بين غرف البيت الأربع، كانت هذه الغرفة هي المفضلة لديها. النوافذ الممتلئة بالنباتات والزهور، كانت تتلألأ خلف ستائر بيضاء مزينة بالدانتيل المشغول يدويًا. كانت الألواح الخشبية تحت السجادة الزاهية المصنوعة بالحياكة، مدهونة بالزيت حتى صارت ملساء. وقد أضفت الوسائد المطرزة يدويًا والمفارش والأغطية المحبوكة، دفئًا وراحة على المكان. مرّت بجوار الطاولة الدائرية المصنوعة من خشب البلوط المغطاة بمشمع أبيض لامع، ثم نظرت في المرآة قرب باب المطبخ لتعدّل ميل قبعتها. الوجه الذي انعكس أمامها لم يختلف كثيرًا عن ذلك الذي حدق بها في تلك الليلة الأولى في الغرفة الخلفية لصالون هونغ كينغ.

غابت نضارة الشباب، غير أن الجلد تحت عظام الوجنتين المرتفعتين ظل مشدودًا بلون ذهبي، فقدت العينان خوفهما، والفم ارتخت عنه رجفته القلقة. ومع ذلك، كانت هناك حدّة غير ظاهرة للوهلة الأولى. فخلف الدعابة المتألقة والدفء اللذين يزيّنان العينين والفم، كان هناك ظلال من الماضي، وجاذبية متوترة غير معلنة.

عدّلت بولي قبعتها، ثم استدارت فرأت تشارلي منحنيًا فوق الموقد، يلعق أصابعه باستمتاع. طرقت بأصابعها على قائم الباب.

«الطعام مخصّص للرقص لاحقًا، لا تسرق ولا تتذوّق. ثم إنني وعدت فرانك وبعض الشبان الذين سيرقصون حتى الصباح بأن يأتوا للإفطار».

دخل تشارلي الغرفة بخطوات واسعة، حاملًا الكمان وقوسه في يده. قال وهو يرتمي على الكرسي: «لديكِ من الطعام ما يكفي لعشرات الرقصات والإفطارات، والنساء الأخريات سيجلبن المزيد».

جعّد أنفه ولوّح بكمانه نحو القمصان المتسخة في سلة خياطة بولي بجانب الكرسي وقال: «إذا كان لا بد لكِ من غسل ملابس عمال المناجم، فلماذا تصرين على ترقيعها وهي ما تزال متسخة؟»

«لأنني عندما أنظفها وأكويها، لا أريد بعثرة طيّاتها».

«هذا جنون».

«أهوَ أكثر جنونًا من تحويل حانتك، التي لا يُسمح لسيدة بدخولها، إلى قاعة رقص يمكن للجميع دخولها، فقط بتعليق ستارة قماشية لتغطية البار وقلب الصور نحو الجدران؟».

ضحك تشارلي وفتح الباب. «هيا، أسمع الرفاق يضبطون الآتهم».

ناداه سميث ذو الأصابع الثلاثة: «يا تشارلي، الموكب بدأ من دونك».

أغمضت بولي عينيها اتقاءً لوهج شمس الظهيرة، فرأت مجموعة من النساء بالثياب البيضاء يسرن بالفعل، في الطرف المقابل من الشارع الرئيسي. قالت لتشارلي: «من الأفضل أن تسرع».

أومأ، ثم اندفع عبر البلدة، وحذاؤه يثير سحبًا صغيرة من الغبار. انضمت بولي إلى الحشد المتجمع، وشعرت بالإثارة نفسها التي كانت تنتابها قديمًا في احتفالات رأس السنة. صحيح أنها كانت ترتدي الأبيض والأزرق الداكن بدلًا من الأحمر، والنسيم يحمل الغبار بدلًا من الثلج، ولا وجود لكعكة رأس السنة التي تجلب الحظ. لكن أجواء الاحتفال المفعمة بطقطقة الألعاب النارية المبهجة، والضحكات، والأحاديث، كانت هي ذاتها.

مرت الفرقة الموسيقية. كانوا خمسة: تشارلي وروب بيسي على الكمان، وبراون على الأكورديون، وجينكينز على البانجو، وبيتر بيمر يعزف على الناي ويتولى القيادة. وبدون وعي، وجدت بولي قدميها تدقان الإيقاع مع الموسيقى.

صفق جورج داير، الحداد، بإعجاب. «يا له من عازف كمان بارع، تشارلي قادر على جعل كمانه ينطق!»

أكّد بنسون: «لا أطيق انتظار رقصة الليلة».

غمزت ماري داوسون بولي بمرفقها: «لا تعرفين كم أنتِ محظوظة لأن قدميكِ المسكينتين لا تسمحان لكِ بالرقص. بعد كل واحدة من تلك الليالي الطويلة، أمشي لمدة شهر كحصان متشنج».

ضحكت بولي: «ذلك لأن جميع الرجال يريدون فرصة للرقص مع سيدة، والسيدات قِلة». شعرت بمن يجذب تنورتها فنظرت إلى أسفل. كانت كاتي، ابنة ماري داوسون البالغة من العمر خمس سنوات.

تذمّرت الطفلة «لا أستطيع الرؤية».

حملت بولي الفتاة. «اجلسي على كتفي والدك». قالت وهي تسلمها له.
قفزت كاتي بفرح. وصاحت: «انظري إلى الأعلام!»
خلف الراية الأميركية الهائلة المرصّعة بالنجوم، التي كان يرفعها منقّبون وعمال مناجم نظيفي الوجوه، رفرفت أعلام التنانين فوق مئتي صينيّ يسيرون على إيقاع دقات الصنوج والطبول والآلات الوترية.
وبينما كانت بولي تراقب وجوههم الحليقة الفخورة وضفائرهم السوداء الأنيقة المتدلية أسفل خصورهم، اجتاحها حنينٌ مفاجئ إلى قريتها، إلى المواكب التي تنتهي عند المعبد حيث ألواح الأرواح، المنقوشة بأسماء الأجيال، تمنح إحساسًا بالثبات والأمان.
كان حيّ الصينيين في وارِنز بحجم قريتها، والأصوات والروائح ذاتها. حتى كان ثمة معبد صغير. لكن من دون نساء أو أطفال، كان الرجال يجيئون ويذهبون، دائمًا على أمل أن يفي المعسكر التالي، أو العمل التالي، بالوعود الكاذبة التي دفعتهم إلى جبال الذهب. فغدا الحي الذي صنعوه صدى لوحدتهم وخيباتهم، تقليدًا أجوف لما تركوه وراءهم

سمعت صوتًا باللغة الصينية: «هذا لن يدوم ».
فزعت بولي، فأشاحت بنظرها عن التنين الملتوي المتموج لترى لي ديك، المعالج بالأعشاب، منغمسًا في حديث مع إ سام، عامل غسيل الملابس الذي كان الناس يطلقون عليه اسم عمدة وارنز.
سأل سام: «ماذا تقصد؟»
«هناك متاعب في الطريق»

نظرت بولي إلى الحشود المبتسمة والمهللة التي تصطف على جانبي الشارع المشمس، والمباني المتداعية المزينة بأعلام حمراء وبيضاء وزرقاء، وأسِّرة العربات المتصدعة التي تحولت إلى عربات ملونة. أي نوع من المشاكل كان لي ديك يتحدث عنه؟

«الصينيون القادمون من الساحل يقولون، أن الشياطين يحاولون الضغط على الحكومة لطردنا».

ردّ سام «لقد جربوا ذلك في عام ستة وثمانين وما زلنا هنا. أولئك منا الذين لم يتعرضوا للحرق أو الضرب أو القتل. لم يحدث أي من ذلك في وارنز».

«صحيح، لكن الناس والأماكن تتغير». اقرّ لي ديك.

على الرغم من أشعة الشمس الساطعة الحارقة، ارتجفت بولي، متذكرة عبوس تشارلي القلق عندما قرأ عن تشكيل جمعيات مناهضة للصينيين، تعهدت بإجبار جميع الصينيين على مغادرة الإقليم، وقلقها الخاص حين وردت أنباء عن مقاطعات ضد التجار الصينيين، وتفجير المغاسل والمتاجر في الأحياء الصينية، ومسيرات جماعية من الصينيين خارج المدن تحت تهديد السلاح.

طوال تلك الفترة، لم تشهد وارنز أي عنف حقيقي ضد الصينيين، والآن، قام مثيرو الشغب الصينيين بتوجيه غضبهم نحو جماعة من البيض تدعى المورمون. لكنها لم تستطع نسيان الكلام الحاقد ضد الصينيين الذي انطلق من حانات المخيم. هل يعقل أن يكون هذا الاستياء كامنًا، ينتظر فرصة للانفجار؟

انفجرت سلاسل طويلة من المفرقعات النارية في سلسلة من الانفجارات الصاخبة، معلنة نهاية الموكب، ووجدت بولي نفسها تُدفع بعيدًا عن سام ولي ديك وسط حشد متجه نحو مرج وارنز. لكن شعور القلق الذي أثارته كلماتهم ظل قائمًا.

بحثت عن تشارلي، لكن الرجال والنساء المحيطين بها كانوا طوال القامة، لم ترَ سوى قمصان مكوية بصرامة، وسترات بدلات داكنة رمادية اللون من الغبار، وأربطة مزخرفة، وشرائط، ورؤوس أطفال صغار تهتز. شعرت بحركة تململٌ مُلحّة، كاتي، تهبط من فوق كتفي أبيها، تتلوّى حتى لامست الأرض، ثم شقّت طريقها إلى جانبها قالت بإلحاح وهي تطوّق بولي بأصابعها اللزجة الصغيرة: «هل ستأتين لتشاهدي سباقي؟»

نظرت بولي إلى الوجه الملطّخ بالحلوى، المحمرّ من فرط الحماسة، فابتسمت، مرحّبة بعودة روح العيد. «بالطبع. وعليكِ أيضًا أن تساعديني في التشجيع لتشارلي في سباق الخيل. ثم سنذهب لمشاهدة مسابقة الحفر، وبعدها تساعدينني في الاستعداد للرقص.»

بينما احتشد الرجال والنساء داخل «قاعة الرقص» التي يملكها تشارلي، يثيرون الغبار بأقدامهم وهم يطرقون أرضها برقَصات الشوتيش والكوادرِيل والبُولكا والمازوركا والفالس، كانت بولي ترتّب عشاء منتصف الليل على الطاولة. ومع كل رقصة، كان الهواء يزداد حرارةً وثِقَلًا، مشبعًا بروائح الأجساد المتعرّقة أكثر من العطور.

كادت أن تختنق من أثر الجو الخانق، تركت أطباق اللحم والخبز والكعك والفطائر، وشقّت طريقها بصعوبة وسط الزحام، بين التنانير المتمايلة، والأحذية الثقيلة التي تضرب الأرض، والكعوب التي تصطكّ، حتى بلغت النافذة. رفعت الزجاج لأعلى. دخل الهواء النقي، مصحوبًا بصوت رنين الزجاجات، واحتكاك أعواد الثقاب التي تشعل السيجار أو الغليون، إذ لم يكن مسموحًا بالتدخين أو الشرب في قاعة الرقص. استدارت، ولوّحت لتشارلي، وأومأت لأصدقاء يمرّون راقصين. ذاك بوني سميد، قاضي الصلح. وتلك الآنسة بندكت، المعلّمة الشابة الحسناء التي يتودّد إليها كل العُزّاب المؤهَّلين. وذاك سميث ذو الأصابع الثلاثة، الذي فجّر عن غير قصد إصبعه وإبهامه. وجون لونغ، نزيلها السابق، يعلو بوجهه الوسيم وعينيه الرماديتين الودودتين وشاربه المشذَّب بعناية فوق زوجته. ومن ثنية ذراعه التقطت بولّي غمزة بيرثا العابثة، فضحكت، شاكرةً الرقصة التي جاءت بها إلى وارِنز. قبل أن يلتقيا بزمنٍ طويل، كانت بولّي وجون قد سمعا عن شعر بيرثا البني الجميل، وعينيها الزرقاوين الفاتحتين، ومرحها المحبّ للحياة، من أخيها الأكبر الفخور الذي كان ينزل عند بولّي كلما حضر إلى وارِنز. غير أنّ تعارف جون وبيرثا تمّ محض مصادفة. كان قد توقّف في فلورنسا في طريق عودته إلى إيرلندا لزيارة أمه، وكانت بيرثا هناك مع أبيها، الذي قدم من غرانجفيل ليبادل لحم الخنزير المقدَّد في مزرعته بغبار الذهب. كانت هناك رقصة. التقيا. وبعد ثلاثة أشهر تزوّجا، وفي الربيع الماضي جاء جون بعروسه ليقيما في كوخ قرب منجم ليتل جاينت حيث يعمل.

وعلى الرغم من فارق السابعة عشرة عامًا بينهما، شعرت بولّي منذ اللحظة الأولى بقرابةٍ خاصة تجمعها ببيرثا، فكانتا تتزاوران يوميًا، وكانت بيرثا تقطع الميل إلى وارِنز شتاءً على زلاجات التزلّج

انتهت الجولة، ودارت ماري داوسون لتتوقف بجانب بولي، ثم ارتمت على المقعد الخشبي المسند إلى الحائط. لاهثةً.

قالت: «أولاً الموكب، ثم السباقات، فمسابقة الحفر، وشد الحبل، والآن هذا! لو لم تأخذي كاتي عن كاهلي لأرتاح قليلًا، لا أعرف كيف كنت سأتحمل». في نفس اللحظة أطلق طفلها، الملفوف بالشيلان والمخبأ في أمان تحت المقعد، صرخة خافتة.

تأوهت ماري: «أوه لا، ليس الآن».

انحنت بولي على الطفل وحملته. «استريحي، سأعتني بهنري».

قبض الطفل وهو يصدر أصوات فقاعات، بأحد أزرار بولي الذهبية اللامعة وابتسم. «أنتِ حقاً منقذة!» هتفت ماري.

ضحكت بيرثا قائلة: «هذا ما أخبرني به السيد ماكغينيس العجوز، يُقسم أن الدواء الذي أعطته إياه بولي لعلاج الروماتيزم يجعله أصغر بعشرين عامًا».

ضحكت بولي معها. «أنت تعلمين أنه يحب الويسكي الموجود به فحسب».

صاح ريب بيسي: «هيا، ليختر كل منكم شريكه». عادت بيرثا وجون إلى أرض الملعب. بدأت الموسيقى واقترب منهم شاب مرتبك.

«أوه لا... لا يمكنني أبدًا رفض طلب هؤلاء الذين خرجوا للتو من الحفاضات».

ضحكت بولي، وهي تهدهد الطفل على أنغام الموسيقى، بينما سحب الشاب ذو الوجه المليء بالبثور ماري إلى الحلبة. كانت عيناه مثبتتين على قدميه، وذراعاه تتحركان صعودًا وهبوطًا كالمروحة، واستطاعت بولي رؤيته وهو يعد خطواته همسًا. تسللت اليها شذرات من الحديث عبر النافذة.

«يبدو أن المنطقة على وشك النفاذ من المعادن».

«قالوا ذلك منذ سنوات عندما صوتنا للسماح للصينيين بالدخول».

«والآن معظم الأموال المتداولة هي أموالهم».

أعادت الكلمات إلى ذهنها تحذير لي ديك الكئيب، ومخاوفها الخاصة من الغضب الكامن.

وفجأة أدركت بولي أنه في هذه الغرفة المضاءة بشكل ساطع، النابضة بالحياة، لم يكن هناك صينيون سواها. مهما تكرر الأمر، كان الإدراك يفاجئها، تاركًا إياها تشعر بالضياع والوحدة الشديدة. ضمت الطفل النائم إليها، متلهفة لدفئه وثقته البريئة. لكن الطفل، الذي لم يكن طفلها، لم يؤكد لها سوى وحدتها. انحنت، وأعادته إلى مكانه، وانسلت خارج القاعة.

بينما كانت بولي تصعد التل نحو مكانها الخاص تحت أشجار الصنوبر التي تحيط بالمقبرة، أصبحت كلمات الرجال وتحذير لي ديك أقل واقعية، لكنها كانت تعرف أن الشعور بالوحدة سيحتاج وقتًا أطول ليخبو.

منذ أن نالت حريتها من هونغ كينغ، عقدت العزم على ألا تعود أبدًا إلى الجهل الذي أبقاها فيه.

تـعلّمت الـطعام الـغربـي، والـعادات، والـقوانـين، وصـارت جـزءًا لا يتجـزأ مـن الـمجتمع، تـعدّ الـراقـصين، والـرجـال الـجالسـين عـلـى الشـرفـة خـارج «قـاعـة الرقص» أصدقاءً لها. مع ذلك، ظلت غريبة عنهم. تمامًا كما كانت غريبة عن لي ديك ورجال الحيّ الصيني في وارِنز، أولئك الذين لم يغفروا لها ماضيها، ولا اختيارها لتشارلي رفيقًا.

انكسر غصن، فتراجعت إلى الظلال. مختبئة خلف شجيرة، أصغت إلى وقع أحذية تشقّ الأدغال، وإلى خشونة أنفاسٍ متقطّعة

«بولي، انتظري. أنا تشارلي».

خرجت إلى العراء. ومض بينهما ذلك النوع من التواصل الصامت الذي دفع تشارلي لمغادرة الرقص بحثًا عنها. صعدا في صمت. وعندما وصلا إلى القمة، استدارا ونظرا إلى وارنز من علٍ. أسفلهما مباشرة وإلى اليسار، كانت نوافذ الأكـواخ تـتوهـج بـلون العسـل، وتـتمايـل بـقع الـضوء داخـلها، فـيما تـصدح الموسيقى من قاعة رقص تشارلي، احتفالًا بالمخيم. أمّا إلى اليمين، في الحيّ الـصيني، خـلف هـمهمة جـدول وارِنـز، فـلم تـعزف فـرقـة، ولـم يُـسمع سـوى الأصوات المعتادة لمكواة ثقيلة تدق على ملابس نظيفة، وخشخشة حبوب الفاصولياء وتقليبها في لعبة الفان-تان.

بدأ طائر السُّمنة على غصن قريب أغنيته الليلية. ارتـفعت نغماتـه الناعـمة المنخفضة شيئًا فشيئًا، حتى صارت لحنًا قويًا جميلًا. ثم، دون إنذار، انقطع الغناء، تـاركًا خلفه صدى حزيـن، زاد من شعور بـولي بـالـوحدة؛ وحـدة كـان حضور تشارلي الحنون يخففها، لكنه لم يتمكن من محوها تمامًا.

قالت بولي: «أتذكر مرة جاء رجل بقردٍ مؤدي إلى قريتي. قسّم الجمهور إلى فريقين، وأعطى كل فريق طرفًا من حبل يمسكه. ثم جعل القرد يمشي بحذر ذهابًا وإيابًا بين الجانبين. عند كل طرف كان يتوقف قليلًا، لكنه لا يستطيع البقاء، فيعود للمشي من جديد، حتى يتعب تمامًا ويسقط.» وأشارت إلى وارِنز، المنقسمة بوضوح إلى معسكرين.

«أحيانًا أشعر أنني ذلك القرد.»

الفصل العشرون

اندفعت سحابة من البخار لاذع الرائحة من إبريق شاي الأعشاب حين رفعت بولي الغطاء واستنشقت العبير بخبرة المحترفين. «مثالي». أعادت الغطاء، وأنزلت الإبريق بحذر داخل سلة مبطنة بطبقة سميكة من القش والصحف، ثم راحت تتحرك بنشاط في مطبخها الصغير، تجمع ما تبقى مما ستحتاجه لمريضتها: كاتي، ابنة ماري داوسون، حلوى جوز الهند، ملعقة من الخزف، ودمية.

أخذت بيرثا الدمية والملعقة، ولفتهما في كيس ملح قديم مغسول، ثم، ناولت اللفافة إلى بولي التي وضعتها في عش من القش فوق الإبريق.

سألت بيرثا: «بعدما تنتهين عند ماري داوسون، هل تأتين إلى منزلي لتساعديني في إصلاح الغرز التي أفلتت مني في السترة التي أحوكها لجون؟».

أجابت بولي وهي تغلق السلة وتفتح الباب: «بالطبع».

«جميل، ويمكنكِ أيضًا أن تعلّميني كيف أطبخ الأرز بشكل صحيح. يقول جون إن طعمه لا يزال يختلف عن أرزكِ».

ابتسمت بولي لبيرثا، تلك المرأة النحيلة والرهيفة التي تحرص دومًا على الإرضاء. «أظن أن الوقت قد حان لنحتال على جون. سآتي وأعدُّ الأرز لعشائكم الليلة، لكن لا تخبريه. ثم نرى ماذا سيقول حينها».

وانطلقتا ضاحكتين بخطى متمهلة، مستمتعتين بشمس سبتمبر وبصمت مريح لا يكون إلا بين صديقتين حقيقيتين.

ومع اقترابهما من كوخ عائلة داوسون، أشارت بيرثا إلى فرق عمال المناجم الصينيين الذين يعملون في المساحات المستوية من مرج وارنز، كانت معاولهم ومجارفهم تصطك بالصخر الصلب، والحصى يقرقع في المجاري المائية، إلى جوار أكوام المخلفات المرتبة بعناية.

قالت بيرثا: «ليت جون يعمل فوق الأرض مثلهم».

تذكّرت بولي المرة الوحيدة التي نزلت فيها إلى منجم، وذلك الشعور بالدفن تحت التراب، صوت تقطر الماء، رائحة البارود المحترق، الهواء الفاسد، والجرذان. قالت مواسية: «إنه يجني مالًا أكثر، كما أنه مشرف، لا يقوم بالمهام القذرة، مثل حفاريّ الوحل».

ردت بيرثا: «يقول جون إن عمال المناجم، سواء كانوا مشرفين أو حفّارين، إما يموتون صغارًا وبسرعة، أو يكبروا مفلسين. لذلك استخدم المال الذي ادخره لرحلته إلى أيرلندا ليشتري مزرعة بالقرب من بيت أبي».

«هل ترك عمله في منجم ليتل جيانت؟»

«ليس بعد. علينا ادخار بعض المال أولًا»

غرست بولي مقدمة حذائها في التربة السوداء الغنية تحت أقدامهما.

وقالت: «هذا التراب هو الذهب الحقيقي في هذه الجبال»

قالت بيرثا: «هذا ما يقوله جون أيضًا». ترددت برهة، ثم أعقبت: «بولي، أي شخص يمكنه أن يرى مدى حبكِ للأرض. لماذا لا تبدأي مزرعة بدلًا من منزل الضيافة؟»

«لأن وارنز مغطاة بالثلوج ستة أشهر في السنة، وموسم الزراعة قصير جدًا».
قالت بيرثا باندفاع: «بيعي منزل الضيافة، ودعي تشارلي يبيع صالونه. سيمنحكم ذلك ما يكفي لشراء مزرعة في جرينجفيل، بجوارنا».
ضحكت بولي: «تشارلي يحب المقامرة أكثر من أن يترك صالونه ، وأنا أحب تشارلي أكثر من أن أتركه».

استقبلتهما ماري داوسون عند الباب، بعينين محمرتين وشعر غير مصفف: «أوه بولي، بيرثا، الحمد لله أنكما أتيتما. لقد جربتُ كل ما أعرفه ولا تزال الحرارة تشتعل في جسدها. أخشى أن يُصاب الرضيع بالعدوى».
طمأنتها بولي وهي تضع السلة الثقيلة على طاولة تكدست فوقها الزجاجات والأطباق وبقايا الطعام: «لا تقلقي، لقد استخدمتُ هذا الشاي مرات كثيرة وكان ينجح دائماً في خفض الحمى».
بينما كانت بولي تخرج المحتويات وتصب شاي الأعشاب في وعاء، كانت ماري تهز الرضيع القلق وتحاول عبثًا ترتيب الفوضى.
أخذت بيرثا الرضيع واقتادت ماري خارج الغرفة. «استريحي الآن، أنا وبولي سنتولى كل شيء».
وضعت بولي حلوى جوز الهند في جيب مئزرها وحملت وعاء الشاي إلى الركن المحجوب بالستائر خلف الموقد. كم بدت الطفلة ضئيلة تحت كومة الألحفة الثقيلة، وكم بدا وجهها محتقنًا من الحمى. وضعت بولي يدها على جبهة كاتي؛ كانت ملتهبة كموقد طهي بعد يوم طويل من الخبز.

فتحت الطفلة عينيها، وكان لونهما الأخضر يلمع ببريق الحمى.
نادت: «بولي؟ أريد بولي».
«بولي هنا» قالتها وهي تمسح خصلات الشعر الرطب عن وجه كاتي، «وقد أحضرتُ دواءً سيجعلكِ تشعرين بالتحسن».
دفنت كاتي وجهها في الوسادة وأخذت تنتحب. «لا.. لا أريد دواءً آخر».
جلست بولي بجانبها «إذا صرتِ بخير، سآخذكِ لنطير طائرة ورقية».
التفتت كاتي لتواجه بولي «طائرة على شكل تنين؟»
أومأت بولي وهي تغمس الملعقة الخزفية في الشاي.
«هل هي كبيرة مثل التي صنعتِها لـ مايك؟»
وعدتها بولي: «بل أكبر» وهي ترفع الملعقة المليئة بالشاي أمام شفتي كاتي المتورمتين.
تجرعت كاتي الشاي وامتقع وجهها «لا أحبه».
غمست بولي الملعقة ثانية، ثم أمالتها بحيث يلامس مقبضها شفتي كاتي «راقبي الماء البني العكر وهو ينزل في مجرى المنجم نحو المنحدر». قالت بينما تفرغ السائل من خلال المقبض المقوس في فم كاتي.
ضحكت كاتي «مرة أخرى».
فعلت بولي ذلك مرارًا وتكرارًا حتى شارف الشاي على النفاد.
قالت كاتي وهي تنزلق تحت الألحفة: «لا مزيد».
أدخلت بولي يدها في جيبها وأخرجت قطعة من حلوى جوز الهند ووضعتها فوق حجرها حيث تراها كاتي: «هذه لكِ عندما تنهين الشاي».
نظرت الطفلة إلى الوعاء وقالت بتردد: «حسنًا».

بسرعة، أعطتها بولي ما تبقى من الشاي ووضعت الحلوى في فمها. وبينما كانت كاتي تمتص الحلوى برضا، قامت بولي بتمشيط شعرها المتشابك وتغيير قميص نومها المتسخ.

قرصت وجنتي الطفلة بخفة «الآن نامي، وعندما تستيقظين لكِ عندي مفاجأة» ودثرتها جيدًا بالألحفة.

وبينما كانت تراقب ذلك الجسد الصغير الذي نهشته الحمى وهو يسترخي في النوم، شعرت بولي بذلك الشعور المألوف من الندم لأن الأطفال الذين ترعاهم بكل حب لم يكونوا أبدًا أطفالها، وبدأت تدندن أغنية مهد كانت أمها تغنيها، تطرد بها ظلال الحزن عن سعادتها.

فوق اللحن، سمعت صوت خفق أجنحة وصياح الإوز المحلق في السماء. تخيلت الطيور وهي تعلو وتهبط مع نغمات أغنيتها، محافظة على تشكيلها المثالي وهي تطير جنوبًا هربًا من الشتاء.

كانت تحب الشتاء؛ بياض الثلج النقي، وأشهر العزلة عن العالم الخارجي الخالية من المتاعب، والأنشطة الغريبة والمضحكة، مثل جمعية هوكم فيلتا التي يتبادل أعضاؤها الأدوار في محاولة إضحاك البقية بينما يحاول الآخرون الحفاظ على وجوه جامدة، حتى تترنح شفاه أحدهم في النهاية وتنفجر في ضحك هستيري لا يمكن كبحه.

فجأة، دوت أصوات حوافر خيول في الخارج ممزقة حلم اليقظة الذي تعيشه بولي، وطغت على الأصوات الهادئة داخل المنزل؛ صوت بيرثا وهي ترتب المطبخ، تنفس كاتي غير المنتظم، وأغنية بولي.

توقف ضرب الحوافر . انفتح باب بعنف ثم انصفق. وفجأة ظهرت بيرثا شاحبة الوجه بجانبها وهي تقول: «تعالي بسرعة، لقد أصيب تشارلي بطلق ناري.. حالته سيئة جدًا».

الفصل الواحد والعشرون

كانت بولي مصدومة لدرجة أنها لم تستطع الكلام، سمحت لبيرثا أن تقودها إلى الخارج، وتركت بنسون يسحبها خلفه على حصانه المبلل بالعرق. ركل الحصان المنهك لينطلق في عدو سريع.

قالت بيرثا أن الإصابة بالغة. أرادت بولي أن تسأل ماذا يعني ذلك؟ لكنها لم تجرؤ. الحصان المتعب المتهاوي في عدوه أخبرها أن بنسون بحث في أماكن كثيرة قبل أن يعثر عليها. كم مضى من الوقت منذ أن أصيب تشارلي؟ ماذا لو فات الأوان؟

كان عليها أن تتكلم؛ أي شيء أفضل من التفكير في تشارلي وهو يرقد في بركة من الدماء.. يحتضر.. ربما يكون قد مات.

سألت: «أين؟»

«في الرأس».

أغمضت عينيها، تقطع الصور والأفكار التي استحضرتها كلماته:

«لا.. أين تشارلي؟»

«في الصالون»

كان صوت حوافر الخيول، ودقات قلبها العالية، وصراخ مخاوفها، كلها عوامل جعلت من المستحيل على بولي أن تسمع جيدًا.

«أين؟» كررت السؤال.

«الصالون.. الغرفة الخلفية».

قال صالون الغرفة الخلفية. لكن من سيطلق النار على تشارلي هناك؟ ولماذا؟ وكأنها نطقت بالأسئلة بصوت عالٍ، سمعت بنسون يصرخ قائلًا:

«جوني كوكس فعلها».

جوني كوكس؟ ذلك ليس منطقيًا. أم أنه كذلك؟ تذكّرت كيف دخل كوكس المعسكر في الليلة السابقة مختالًا، وكيسه ممتلئ بغبار الذهب من حصادٍ وفير من تنظيف مجرى كروكد. وقد عزم على سهرة صاخبة، فاتجه مباشرة إلى صالون تشارلي للشرب ولعب البوكر. لكن بعد أن خسر مئتين وخمسين دولارًا، رفض تشارلي أن يلعب جولة أخرى قبل أن يفيق كوكس من سُكره.

هل ظنّ كوكس أن تشارلي يحاول خداعه؟ أنه يمنعه عمدًا من فرصة استرداد أمواله؟

لقد رأت بولي رجالًا يُقتلون لأسباب أقل من ذلك. وكانت تعلم أن كوكس رجلٌ خطير، لا يُستهان به. ومع ذلك، لم تستطع أن تصدّق أنه أطلق النار على تشارلي. ليس بعدما طلب منه أن يراقبه، أن يتأكد من ألّا يخسر كل ما في كيسه.

«تشارلي قناص ماهر للغاية، هل أنت متأكد من أنه مصاب؟»

شعرت بجسد بنسون يلتف، وبمهمازه يُغرز في الحصان، صرخ قائلًا: «قال لتشارلي إن أمامه الوقت الكافي للفّ سيجارة حتى يُخرج المال من الخزنة، وإلا سيُطلق النار على عينه. لم يكن لتشارلي سبيل إلى مسدّسيه الموضوعَين عند طرف الأريكة، فقرّر أن يغامر، أغمض عينيه واستدار. عندها أطلق كوكس النار عليه».

لم تصدق بولي ما سمعته. وحده الحشد الغاضب من عمّال المناجم أمام الصالون أقنعها بالحقيقة.

قال الشريف، وهو يساعدها على النزول: «لا تقلقي، يا بولي. كون انطلق خلف كوكس كما ينطلق القيوط خلف أرنب بري».

دفع أبواب الصالون المتأرجحة ودخل وراءها، تتردّد خطواته في الصمت الثقيل غير الطبيعي. «سيقبض على القاتل، لا شك في ذلك».

قاتل؟ إذن لقد تأخرت. ارتجفت ركبتاها كعِجل حديث الولادة، وشعرت بالامتنان لقبضة الباب التي استندت إليها حين فتحت باب الغرفة الخلفية.

كان الدم في كل مكان: على الأريكة، على الأرض. رائحته النفّاذة المعدنية غطّت على روائح التبغ والخمر المعتادة. كيف يمكن أن يكون هناك كل هذا الدم... وتشارلي ما يزال حيًّا؟

كان ممدّدًا على الأريكة، مغطى، ما عدا وجهه الذي بدا شاحبًا رماديًا شمعيًا كقناع موت. أشارت بولي إلى الشريف بأنها تودّ الدخول وحدها. انحنت فوقه. حفرة سوداء فاغرة تحت عينه اليمنى، وخرزات من العرق تنساب بين تكتّلات الدم المتخثّر. كان هناك صوت خافت، غطرفة جافة. ارتفع اللحاف بالكاد، ثم هبط. لقد كان حيًّا!

«تشارلي!»

رأت تحت اللحاف حركةً ضعيفةً، يدًا تتحسّس ببطء. أنزلت اللحاف وأمسكت بيده.

«أول شيء، نأخذك إلى المنزل وننظّفك». قالت.

«لا. نبقى هنا». سال الدم من فمه إلى لحيته.

«ششت... لا تتكلم الآن».

«لا بد أن تذهب. لم يعد في الوقت متّسع». فتح عينيه، وهما كهفان غائران من الألم. قال: «أحبكِ، بولي. تزوجيني».

انقبض صدرها حتى كاد يختنق. رفعت طرف اللحاف ومسحت الدم عن شفتيه ولحيته. «ششت... لاحقًا. لاحقًا. سنتحدث لاحقًا».

«الصالون... الذهب في الخزنة... كل ما أملك هو لكِ».

بصعوبة، رفع تشارلي يده بضع بوصات قبل أن تسقط من جديد فوق الأريكة. دارت عيناه، وحين تبعت بولي نظره، أدركت أنهما لم يكونا وحدهما.

من بين الظلال، تقدم بوني شْميد، قاضي الصلح.

«طبيب. تشارلي بحاجة إلى طبيب».

قال: «ترْول أُرسل بالفعل إلى غرينجفيل ليحضر طبيبًا، لكن حتى وإن أسرع، فلن يصل قبل حلول الليل من جديد. وحينها قد يكون الأوان قد فات».

عضّت بولي شفتها لتكتم النشيج الذي اختنق في حلقها.

تابع شْميد: «لا أحد في وارنز، ممن أعرفهم، سيرغب في خداعك. لكنك تعلمين ما يفرضه القانون. سيكون من الأكثر أمانًا أن تتزوجيه».

جثت بولي على ركبتيها إلى جوار تشارلي. «اسمعني، تشارلي. ستتحسن، أعدك بذلك».

أغمض عينيه، وكانت سوداء غارقة في الهزيمة. «لا».

أسندت رأسها إلى صدره. «عليك أن تدعني أحاول».

لكنه لم يجب.

استدارت إلى سْميد. «ابحث عن تْرول. ثم فكّ الباب واستعمله كحاملة لنقل تشارلي إلى البيت. سأسبقكم لأجهز المكان». تعثّرت عائدةً وسط الحشد إلى بيتها، تسدّ أذنيها عن التعليقات المتناثرة، بين غضب وتعاطف، مركزةً فقط على ما يلزمها: شيء لتنظيف الجرح، قماش، كثير من القماش النظيف، أعشاب... لوقف النزيف، لتعويض الدم الذي فقده، ولتقوية جسده. جمعت سريعًا ما توافر لها. أسرعت إلى بيت تشارلي، وضعت إبريق الماء فوق النار ليغلي. وصل سْميد وتْرول ورفعا تشارلي برفق إلى السرير. سكبت بولي بعض الويسكي في كأس، ورفعت رأس تشارلي برفق.

«اشرب هذا». قالت، وهي تمسك بالكأس عند شفتيه.

مالت بالكأس، فسال الشراب في فمه وعلى لحيته، لكنه لم يبتلع.

قال تْرول: «إنه فاقد الوعي».

قالت: «ساعدني يا سْميد، نمسك بتشارلي بينما تخرج الرصاصة».

سألها تْرول: «ألا تظنين أنه يجدر بنا انتظار الطبيب؟»

جسّت بولي نبض تشارلي الضعيف، وهزّت رأسها. «لقد أضعنا وقتًا كافيًا بالفعل.»

مع ذلك، تردّد تْرول. «ليس معنا أدوات».

نظرت بولي حول المقصورة، ثم التقطت إبرة الحياكة خاصّتها. «استخدم هذه».

شحب وجه تْرول. «إبرة كروشيه؟!»

قالت: «أمسكا بتشارلي، وأنا سأقوم بالتنظيف».

عملت في صمت. تحفر. تمسح. توقف النزف. تتظاهر بيأس أن تلك الآهات المعذّبة لا تصدر من تشارلي. كان الثقب أقرب إلى العين وأكبر مما ظنت، وكانت إبرة الحياكة تغوص أعمق فأعمق، لكنها لم تعثر على الرصاصة. قطع من اللحم وعظام مهشّمة لمعت ببياض شاحب فوق قطنٍ أسود من الدم والبارود. أخذت الكومة تكبر. اندفع الدم مجددًا من الجرح. فملأته بمعجون من الأعشاب وقطع القماش النظيف. أصبح الجرح نظيفًا، لكن على الطبيب أن يُخرج الرصاصة.

قالت: «شكرًا. سأنتظر مع تشارلي حتى يأتي الطبيب.»

أغلقت الباب خلف الرجلين وأغرقت جسدها المتعب في الكرسيّ القريب من السرير. تأوّه تشارلي.

طمأنته: «بولي هنا. أنت بخير».

تقلّب في اضطراب. ضمّته إلى صدرها فهدأ. استحال الغسق إلى ليل. أُغلقت الصالونات. سمعت وقع خطوات، وأحاديث صاخبة، وصهيل خافت للخيول. خفق حوافر. باب يُغلق. صراصير تهمس في الظلمة. ذئب يعوي. أزّ المصباح ثم انطفأ. همّت بالنهوض لإشعاله، فتمتم تشارلي: «لا... لا».

بقيت كما هي، لا تتحرك، مستحضرة أنفاسها، إرادتها، قوتها، لتُسريها إلى تشارلي. تسلّل ضوء رمادي خافت عبر النوافذ. سمعت البلدة تدبّ فيها الحياة. ظلت مكانها لم تتحرك. أغرق ضوء الشمس الغرفة، كالعسل الناعم باعثًا الدفء في جسدها، ومن خلالها إلى جسد تشارلي.

جاء الأصدقاء وذهبوا، لكن بولي، المركّزة كل طاقتها في بث الحياة في تشارلي، لم تتكلم، ولم تتحرك.

حين حلّ الغروب، سمعت خيولًا تتوقّف فجأة. خطوات. الطبيب.

رفع ترْول المصباح فوق الدكتور بيبي وهو يعمل. ألقى جسده الضخم الثلاثمئة رطل، بظلال كثيفة، فأشعلت بولي مصباحًا ثانيًا واقتربت. فوق الصندوق الخشبي قرب السرير، كانت قطع المعدن والعظام اللامعة تتوهّج كجمر أحمر.

أسقط الطبيب أدواته في حوض الماء الساخن، وجسده يئن من الإرهاق. قال: «لابد أن الرصاصة ارتطمت بعظم الوجنة وانقسمت. لم أجد سوى نصفها.»

سأل ترْول: «وماذا يعني ذلك؟»

أجاب الطبيب: «ما لم يكن جسد بيميس قويًا بما يكفي لطرد الجزء الآخر، فسينتج عن الشظية تسمّم في الدم».

غسل يديه وجفف أدواته. وضعت بولي المصباح جانبًا.

سألته بفزع: «أنهيت؟ ولن تبحث عن الجزء المتبقي؟»

هزّ الطبيب رأسه. «لقد فتّشت بقدر ما أجرؤ».

«لا!» احتجّت بولي. «بوسعك أن تجدها. أنا أعلم. فقط أنت مرهق. ارتح قليلًا، ثم واصل البحث».

أغلق الطبيب حقيبته بحدة. «لقد فعلت كل ما أستطيع».

«لا»، أنكرت بولي. «أنت أفضل طبيب. أنا أعلم. لم أرَك من قبل، لكنني سمعت. أعرف أنك في مرة احتجت أداة خاصة لعملية في مزرعة فصنعتها بيدك في ورشة الحدادة. يمكنك فعل أي شيء. أنا أعلم. سمعت».

ابتسم بتعب. «وأنا سمعت أنك ممرضة ممتازة. ممتازة لدرجة لا تسمح لي بأن أكذب عليك».

تناول زجاجة لودانوم من الطاولة. «على الأغلب الجرح قاتل. لكن هذا سيخفّف الألم، ويسهّل الرحيل... عليكما أنتما الاثنين».

تراجعت، رافضة أن تأخذ الزجاجة. قالت بصوت ثابت:

«لا. سيتعافى، أقول لك. سيتعافى».

الفصل الثاني والعشرون

كانت بولي قد شمّت رائحة الموت من قبل. قبل يومين لم تكن سوى نفحة خفيفة عابرة، أما الآن، فقد غدت رائحة تعفّن اللحم الحلوة المقيتة واضحة مميَّزة. وسرعان ما ستبدأ بالالتصاق، لتغدو كثيفة لا تُخترق، كالكفن.

سقطت على ركبتيها إلى جوار تشارلي. كان ممدّدًا كما كان منذ إطلاق النار، صامتًا ساكنًا، غير أن الفجوة الفاغرة في خده كانت الآن تفرز قيحًا أصفر مائلًا إلى الأخضر. وضعت يدها فوق يده. كم مرّة شعرت بهذه اليد. هذه اليد التي كانت ترقص في الهواء حين يتكلم تشارلي، وتشقّ الحطب لصندوق حطبها، وتقلب الأوراق المتساقطة لتتأمل الحشرات تحتها. هذه اليد، المألوفة الملساء كجلدٍ مهترئ من كثرة الاستعمال، التي كانت تلامس جسدها وتعزفه كما يعزف كمانه، فتوقظه بالفرح والشغف.

قاطع أفكارها طرقٌ على الباب. تجاهلته، لم تكن ترغب في رؤية أحد. سوى تشارلي. تشارلي حيًّا من جديد، وضحكته الجهورية تغمرها كماء نبعٍ صافٍ.

انفتح الباب. عرفت وقع خطوات بيرثا الخفيفة، لكنها لم تلتفت.

قالت بيرثا بحماس: «هل سمعتِ؟ السيد كون ألقى القبض على كوكس! تعقّبه حتى مروج السالمون، وجد أنه باع حصانه وغادر بعربة الركاب إلى وايزر، فلحق به، قالوا في وايزر إن أحدهم رآه يستقل القطار، لكن لم يعرف أحد إلى أين يتجه. ولحسن الحظ، علم السيد كون أن هذا موعد دفع الأجور في بوكاتيلّو، فخمّن أن كوكس سيذهب ليجرب حظه في القمار، ووجده هناك فعلًا! كان يستخدم اسم إيتون، لكن السيد كون أمسك به»

حين وصلت إلى بولي، خمد حماسها فجأة. جئت إلى جوار صديقتها.

سألتها: «ما الأمر؟»

أعادت بولي يد تشارلي إلى تحت اللحاف. «مرّ ثلاثة أسابيع، وربما أكثر، منذ إطلاق النار. كان ينبغي للجرح أن يلتئم، لا أن يتقيّح وتفوح منه الرائحة.»

«وماذا يقول السيد تْرول؟»

«يظن أن تشارلي سيموت».

تجعد وجه بيرثا. «وماذا عن لي ديك؟»

«أعطاني مسحوقًا أبيض خاصًا، عفنًا، ليقتل العدوى. كان ينجح دائمًا مع الآخرين. لكنه لم ينجح مع تشارلي».

«وهل يعرف لي ديك السبب؟»».

«يقول مثل الدكتور بيبي. الرصاصة داخل تشارلي تسمّم دمه».

قالت بيرثا ببساطة: «إذًا علينا أن نجد بقية الرصاصة».

ارتدّت بولي على عقبيها. «كيف؟ لقد بحثتُ أنا، وبحث الدكتور بيبي. لم نعثر عليها».

تأملت بيرثا تشارلي في صمت. وبعد دقائق، التفتت إلى بولي وقالت: «كان ذلك مباشرة بعد إطلاق النار، حين حاولتِ أنتِ والدكتور بيبي العثور على الرصاصة، وكلاكما بحث في خدّ تشارلي. ألم يقل الدكتور بيبي إن الرصاصة قد تتحرك إلى موضع آخر في جسده؟»

«ولكن إلى أين؟» ردّت بولي بحدّة، وقد نفد صبرها من أسئلة بيرثا الساذجة الحسنة النيّة. «لا أستطيع أن أشقّ جسده لأرى».

«لا، لكنك تستطيعين أن تتحسّسي».
أغمضت بولي عينيها. ضغط عليها إرهاق طاغٍ حتى عجزت عن الحركة.
شعرت بيدي بيرثا على كتفيها.
«بولي، كنتِ مجرد فتاة حين باعكِ والدك، لكنك كنتِ قوية. قوية بما يكفي لعبور المحيط إلى عالم جديد. قوية بما يكفي لصنع حياة جديدة لنفسك. ألستِ قوية بما يكفي لتواصلي القتال من أجل حياة الرجل الذي تحبين؟»
فتحت بولي عينيها ببطء. «قوتي... استُنفدت كلّها.»
توسّلت بيرثا، وكان اندفاعها صادقًا كصدق بولي حين صرخت يومًا أنه سيتعافى.
قالت: «لقد تمسكتما بالحياة كل هذا الوقت، لا يمكنكما الاستسلام الآن».
لقد آمنت بولي بذلك يومًا. أما الآن، فلم تعد متأكدة. كان الطبيب محقًّا بشأن اللودانوم الذي سيحتاجه تشارلي ليفرّ من الألم. فهل هو محقٌّ أيضًا بشأن تسمّم الدم؟ من المؤكد أن تْرول ولي ديك يتفقان معه.
سارت بيرثا إلى آخر السرير. قالت ببطء: «كان تشارلي مستلقيًا عندما أطلق كوكس النار عليه. وقال الدكتور بيبي إن الرصاصة أصابت عظم الوجنة. هل من الممكن أن يكون الجزء الآخر من الرصاصة قد تجاوز العظم واتجه إلى مؤخرة الرأس؟» ثم عادت لتقف في مواجهة بولي. «دعينا نقلبه ونرَ».

عاجزة عن كبح ذلك البصيص الطفيف من الأمل الذي أيقظته كلمات بيرثا، استندت بولي بثقل على السرير ودَفعت نفسها لتنهض. وبمساعدة بيرثا، قلبتا جسد تشارلي. راحت تتحسس جمجمته أسفل الشعر. لا شيء. تحركت أصابعها نحو العنق. جلده، الذي بدا ملتهبًا عند لمسه، كان رطبًا. كم أصبح نحيلًا... مجرد عظام وعضلات مرتخية. أحسّت ببداية انتفاخ. عظم؟ أزاحت شعره جانبًا. بالقرب من مركز العنق، انتفخت البشرة المتغيرة اللون فوق بروز صلب غير مرن.

نظرت إلى بيرثا. «هل هذا عظم أم رصاصة؟»

تحسّست بيرثا الموضع الذي أشارت إليه بولي، وقالت: «إنه قريب من العمود الفقري لكنه مائل عنه». أضاءت عيناها. «أعتقد أنكِ وجدتيها. هل أستدعي السيد تْرول؟»

كان تْرول مترددًا في تنظيف الجرح من قبل دون طبيب. فكيف سيكون شعوره بشأن استخراج شظية رصاصة لا يملكون سوى الظن بوجودها؟ هل سيصرّ على استدعاء الدكتور بيبي من جديد؟

قالت بولي، وهي تجمع أدواتها، شفرة تشارلي، المقصّ، قماش نظيف، أعشاب، ومسحوق لي ديك، وتضعها فوق صندوق بجانب السرير: «سأقوم بالأمر بنفسي».

وضعت بيرثا إبريق الماء ليغلي. «وماذا عن لي ديك؟»

قالت بولي بجفاف وهي تختبر حدّ الشفرة: «هو لا يؤمن بشقّ أجساد الناس».

تناولت الحزام الجلدي المعلّق فوق طاولة الغسيل، ومررت عليه الشفرة ذهابًا وإيابًا، حركة ناعمة منتظمة كانت تهدّئ ضربات قلبها المتسارعة.
سألت بيرثا: «ألن نحتاج إلى من يُمسك بتشارلي أثناء العملية؟»
اختبرت بولي حدّ الشفرة. لم تحتج إلى مزيد من الشحذ. أسقطت الحزام وقالت: «تشارلي مليء باللودانوم. لكن للاحتياط، يمكننا تقييده».
قيّدتا جسده بملاءات التفّت على شكل حبال ناعمة. جمعت بولي شعره بعيدًا عن موضع الانتفاخ، وأزالت الخصلات التي لم تستطع تثبيتها. ثم غسلت يديها في ماء يغلي، فاحمرّتا بنقوش مبقعة.
جلست بيرثا في المقابل، وقد وضعت الماء الساخن والقماش إلى جوارها. اخترق صمت الغرفة صوت نعيقٍ عالٍ، تبعه آخر ثم آخر. طيور الكركي في هجرتها نحو الجنوب، تنعق بأوامرها عبر الخط. كأنها طيور موت.
قالت بيرثا: «هل أنتِ جاهزة؟»
ارتعشت بولي من الفأل، وترددت. ثم، مسحت يديها، وغمرت الشفرة في الماء، ثم مسحتها بقطعة قماش مبلّلة بالويسكي. همست: «جاهزة».
غرست الشفرة في عنق تشارلي، فانطلقت نافورة من دمٍ أسود مائلٍ إلى الحمرة، تشبّعت بها ضمادات بيرثا البيضاء المعدّة. حفرت أعمق. اصطدمت طرف الشفرة بشيء صلب. رصاصة أم عظم؟ سحبت الشفرة، وأدخلت إصبعها في الجرح، محاوِلة تجاهل الدم المتفجّر في كل اتجاه. شعرت بالعرق يتجمّع على جبينها. اجتاحها دوار، لكنها أجبرت إصبعها أن يتوغّل. اصطدم بشيء صلب. صغير وناعم. أم هو الدم ما يجعله يبدو أملسًا؟

لفّت إصبعها حوله، لكنها لم تستطع تحريكه. كان عليها استخدام الشفرة لخلعه. سحبت إصبعها، ومسحته بالمنشفة التي ناولتها بيرثا، ثم أمسكت بالشفرة من جديد. دعت في قلبها أن يكون ما بداخل الجرح رصاصة لا عظمًا، وأعادت الشفرة إلى موضعها. أحسّت بحركة طفيفة تحتها. هل هي ارتجافتها؟ أم حركة تشارلي؟ أم أن الرصاصة بدأت تتحرّك؟ سمعته يئن بصوتٍ عميق. لا وقت للتردد.

همست، تواسيه وتواسي نفسها: «اهدأ... لقد أوشكتُ أن أنتهي».

غاصت أعمق، دفعت بالشفرة نحو البروز الصلب، وحركتها قليلًا. تناثرت قطرات العرق من جبينها على يديها. هل عليها الانتظار حتى تطفو الرصاصة وحدها؟ عضّت على أسنانها، وضغطت بالشفرة أكثر، ثم دفعتها إلى أعلى.

تأوّه تشارلي.

قالت بيرثا: «لقد أمسكتِ بها».

عبر ضباب من النقاط الرمادية المتحركة، سحبت بولي الشفرة وشظية الرصاصة. أسقطتهما في حوض الماء. انسابت دوّامات وردية من الشفرة والشظية، فحوّلت الماء الشفاف إلى تدرّجات من الأحمر، كسماء الفجر.

تأوّه تشارلي مجددًا. غسلت بولي يديها بسرعة، وجففتهما، ثم مزجت معجون الأعشاب، وملأت به الجرح.

همست: «أنت بخير الآن، تشارلي. أنت بخير».

الفصل الثالث والعشرون

رفعت بولي بصرها عن دبوس الذهب الذي طلب منها بانكروفت أن تصنعه لابنته كارولين. كان التصميم بسيطًا: معول ومجرفة، ولم يتطلّب منها تركيزًا يكفي ليصرفها عن قلقها على تشارلي.

ما يزال ضعيفًا، لكنه تعافى تمامًا، يجلس منحنِيًا قرب الموقد، يدخّن غليونه، وجبينه مطويّ بالقلق. قلق على ماذا؟

منذ إطلاق النار، لم يذهب إلى الصالون، لكن العمل ظلّ مزدهرًا، فلا يمكن أن يكون قلقه بسبب المال. والزوّار يتوافدون باستمرار، فلا يمكن أن يكون وحيدًا. وهو ليس رجلًا مختالًا، فلا يُعقل أن تكون الندبة المشوِّهة تحت عينه اليمن هي السبب. فلماذا إذًا يغدو أكثر انطواءً يومًا بعد يوم؟

خارج نوافذ الكوخ المغلقة، دوت نغمات نشاز لآلة كمان تُضبط. تبعتها نغمة مرتجفة من مزمار، ثم فوضى موسيقية من أكورديون. أصوات غناء متداخل وضحكات سُكارى ارتفعت فوق ضجيج الأوركسترا.

دفعت بولي مقعدها إلى الخلف وتقدّمت نحو النافذة. زاد بخار أنفاسها من ضباب الزجاج الدافئ. رفعت طرف مئزرها ومسحت لوحًا زجاجيًا.

كانت الزوايا الخارجية من الزجاج مغطاة ببلّورات الجليد، وغطّى الثلج الطازج البلدة، لكن الليل كان صافيًا، فنظرت باتجاه صالون تشارلي بترقّب صامت.

منذ انتهاء حفل رقص ليلة عيد الميلاد قبل يومين، كان أعضاء نادي«الرفاق القدامى» يستخدم الصالون للاحتفال، وهم الآن يندفعون في موكب مترنّح فوق الثلج. كان بوني سْميد يحمل الشعلة، لكنه ترنّح وسقط. فالتقط الشعلة جون ديفاين، واصلًا الطريق.

استدارت بولي عن النافذة ضاحكة: «لن يتمكنوا من إكمال دورة حول المخيم».

لم يُبدِ تشارلي، الذي كان يدكّ التبغ في غليونه، أي علامة على أنه سمعها. نفض التبغ دون أن يشعل الغليون، ملأه مجددًا، ثم نفضه مرة أخرى.أضافت بولي حطبًا إلى بقايا جذوع الصنوبر المشتعلة في الموقد. أخرجت من صندوق الحطب الذي كان تايلور يحافظ على امتلائه بعض عيدان الإشعال وجذعًا صغيرًا. تأججت النار، واستنشقت رائحة دخان الخشب العطرة برضا. قالت ضاحكة: «تتذكّر شتاء ٨٨؟ كان البرد شديدًا لدرجة أن الخيول تجمّدت واقفة، وتركتَ النار تنطفئ. في الصباح، صنعت أنفاسُك رقائق جليدية على لحيتك، وعلى البطانية، وتحت أنفك».

سقطت كلماتها كالحصى في صمت مشدود. مسحت يديها بمئزرها، تاركة عليها خطوطًا سمراء من السخام.

«أعلم أن أمرًا ما يزعجك يا تشارلي. لماذا لا تخبرني؟»

قال وهو يعبث بلحيته وبالجلد القيق حول ندبته: «لا شيء. أريد فقط أن أقول شيئًا ولا أعرف كيف أبدأ».

دلكت بولي ظهره. ومن تحت أصابعها شعرت بغضبه يغلي... كقدر ماء على وشك الفوران. «تعلم أنه يمكنك قول أي شيء، لن أمانع».

ملأ غليونه بالتبغ، ثم توقف، وأسقط التبغ دون أن يدخّنه. أخذ نفسًا عميقًا وقال فجأة: «لم أنسَ أنني طلبت منك الزواج يوم أُصبت بالرصاص».

قالت بولي، محافظة على اتساق حركة يديها: «أعلم أنك قلت ذلك لحمايتي. لكنك الآن بخير، فلا داعي له».

قال تشارلي، ووجهه يشتعل، وأصابعه تعبث بشظايا التبغ المتناثرة: «أنتِ لا تفهمين، أنا أحبك يا بولي. وأريد أن أتزوجك».

كان جادًّا. لكن... لماذا؟ بعد كل هذه السنين؟ وضعت يديها على يديه، فسكّنت حركتهما المتوترة.

«نحن بخير كما نحن».

«وماذا عن الأطفال؟ إن لم نتزوج، فلن يكون لنا أطفال».

ضحكت: «أنا في الثامنة والثلاثين. في الصين، كنت سأكون جدّة».

ضحك تشارلي معها: «إذًا هنا ستكونين أمًّا!»

سارت بولي إلى طاولة الغسيل ورتّبت المناشف. «لا».

«لماذا لا؟ كثيرات ينجبن في الثلاثينيات، بل والأربعينيات. أنظري إلى السيدة بي العجوز. طفلها الأخير، ما اسمه؟ الرابع عشر؟ الذي ساعدتِ في ولادته. كانت تقارب الخمسين حين أنجبته!»

إذًا، كان يريد أطفالًا. لماذا؟ لأنه اقترب من الموت؟

رغم صدقهما الظاهري في كل أحاديثهما، ظلّ هذا الموضوع تحديدًا غائبًا عن نقاشاتهما دائمًا.

في محاولة لكسب الوقت، أفرغت حوض الغسيل في دلو الفضلات. وبينما كانت تملأه من الإبريق بماء نظيف، اجتاحت ذهنها صورة الأطفال، رائحتهم، دفء ذراعين صغيرتين تحتضنان ساقيها وعنقها،الثقة في عيونهم والفراغ في ذراعيها حين تعيد طفلًا إلى أمه. غسلت الحوض، أفرغته، جفّفته حتى لمع.قالت: «لا، تشارلي. لستُ أنا.»

«تعنين أنكِ لا تستطيعين؟»

للحظة، راودها أن تدعه يظن ذلك. لكنّها لم تكذب عليه من قبل. حتى وهي عبدة لدى هونغ كينغ. ولن تبدأ الآن.

«أعني أنني لا أريد أطفالًا. ولذلك لن أنجب».

«لا أستطيع تصديق ذلك. أنتِ تحبين الأطفال. تعتنين بهم حين يمرضون، وتلعبين معهم حين يكونون بخير. في كل مرة ألتفت، أراك تحملين طفلًا، أو طفلًا يشدّ على تنورتك».

«أطفال الآخرين. لا أطفالي».ابتلعت ريقها بصعوبة، وشعرت بألم حاد في حلقها. «اتخذت قراري منذ زمن».

لان صوت تشارلي: «أستطيع أن أفهم أنك لم ترغبي بالأطفال حين كنتِ عبدة لهونغ كينغ. أو حتى في السنوات الماضية. لكن إن تزوجنا، سيكون كل شيء مختلفًا».

تطلّعت بولي من النافذة، دون أن ترى شيئًا. قالت: «أعرف ما يُقال عن الرجال الذين يتزوجون نساء هنديات. يسمّونهم رجال السكو، لا يعيشون في البلدة، ولا بين الهنود. لا ينتمون إلى مكان. حتى أطفالهم يصبحون غُرباء عن شعب آبائهم، وغرباء عن أمهاتهم».

قال: «أنتِ لستِ هندية، بول».
«لكن الأمر واحد».
«لا، ليس كذلك. البيض في وارنز لم يعاملوا الصينيين بسوء قط. أليس الجميع ينادي أ سام بـ «عمدة وارنز»؟ وفي الثمانينيات، وقت الشدائد، حين حاولت العصبة طرد الصينيين من أيداهو، ظلّت وارنز آمنة».
كانت نفس الحجج، ونفس الكلمات تقريبًا، التي قالها أ سام حين حذّره لي ديك من الخطر. لكن حتى بينما كان تشارلي يتكلم، أحسّت بنفس القلق، ونفس الإحساس بالتوتر والوحدة، التي انتابتها خلال رقصة الرابع من يوليو. شعرت بيديه على كتفيها، يديرانها لتواجهه. قال: «وإن حدث مشكلة، ألا تعلمين أنني سأحميكِ أنتِ والأطفال؟»
رفعت أصابعها لتنعّم التجعيدة العميقة بين حاجبيه.
قالت: «أعلم أنك ستحاول. تمامًا كما حاول أبي. لكنه لم ينقذني من قطاع الطرق».

الفصل الرابع والعشرون

لم تستطع الوضعية الجامدة التي التقطها المصوّر داخل الاستوديو أن تُخفي الفخر والفرح الواضحين في ملامح الوالدين السعيدين: جون لونغ يحمل إدوارد، البكر الذي بلغ عامه الأول، وبيرثا تحمل ماري، المولودة الجديدة
أشارت بولي إلى فستان ماري الدانتيل وقبعتها التي كانت تظهر من تحت طبقات من الشالات المحبوكة بدقة. وقالت لـ لي ديك بفخر: «هذا هو نفس الفستان الذي صنعته لإدوارد».

كان كوخه صغيرًا للغاية، حتى أن ركبتيهما كادتا تتلامسان أثناء جلوسهما متقابلين. ومع ذلك، وضع غليونه الصيني الطويل جانبًا، وانحنى نحوها، ولسانه يطلق طقطقات الإعجاب التي كانت بولي تنتظرها. طوت الصورة مجددًا بعناية داخل ورقة، وأعادتها إلى جيبها.

قالت: «مرّ عامان منذ أن انتقلت بيرثا وجون إلى مزرعتهما في غرينجفيل، ومع ذلك ما زلتُ أجد نفسي أمشي نصف الطريق عبر مرج وارنز إلى منجم ليتل جاينت لزيارتهما... قبل أن أتذكّر أنهما رحلا».

«يبدو لي أن هناك أشياء أخرى نسيتها أيضًا».

«لا تبدأ ذلك مجددًا».

أشعل لي ديك غليونه من جديد؛ امتزجت رائحة التبغ برائحة الأعشاب والجذور المتدلية من السقف. «يبدو أنني لا أستطيع إيصال الفكرة إليكِ. القانون الجديد الصادر من واشنطن يفرض على جميع العمال الصينيين

التسجيل أو مواجهة الترحيل». لوح بيده اليمنى في الهواء بينهما وأردف: «لا استثناءات».

«إذا سجلت واعترفت بأنني دخلت البلاد تهريبًا ، فسأُرحّل. وإذا لم أسّجل واكتشفوا أمري، فسأُرّحل. أما إذا لم أسّجل ولم يكشف أمري، فسأعيش كما عشت طوال السنوات الإحدى والعشرين الماضية».

«أتظنين أن وجودنا في أعالي الجبال سيمنع الحكومة من ملاحقتنا؟ عندما أرادوا القبض على هنود شيب إيتر، أرسلوا قوات إلى هنا لمطاردتهم. بإمكانهم فعل الشيء نفسه معنا».

فكرت في ذلك الغضب الجامح الأعمى الذي أطلقه الجنود ضد الشي إيترز الذين احتموا في الجبال الكثيفة الأشجار قرب وارنز، وفي استعداد سكان البلدة للمشاركة في المعركة.

قالت: «كان الأمر مختلفًا. الشي إيترز قتلوا رجلين بيض»

«عدد قليل منهم ارتكب الجريمة، لكن القوات طاردت القبيلة بأكملها، وأمسكوا بهم. تمامًا كما يمكنهم أن يمسكوا بكِ».

ضحكت بولي بخفة مصطنعة «أنت تُشبه نائحة مأجورة، دائم العبوس».

«وأنتِ تتصرفين كالدجاجة الحمقاء». هز غليونه نحوها وتابع: «إذا كنتِ تشعرين بالأمان في وارنز، فلماذا بنى لكِ بيميس بيت الضيافة؟ ولماذا تصرين على تسجيله باسمه؟» ثم وضع غليونه جانبًا.

«انظري، لقد عشتِ مع بيميس لما يقرب من ثمانية عشر عامًا. أنتما زوج وزوجة بحكم القانون العام. خمس دقائق في مكتب القاضي، وورقة رسمية، وتصبحين في مأمن من الترحيل إلى الأبد».

قالت بولي وهي تلوي الأزرار الذهبية الثقيلة التي صنعها لها تشارلي. «دع تشارلي خارج الموضوع».

دُقَّ الباب بقبضات غاضبة، فاهتزت عناقيد الأعشاب فوقهما، وتساقطت فتات أوراق جافة وغبار على رأسيهما.

«لي ديك، افتح! أنا بيميس!»

فكّ لي ديك المزلاج.

دخل تشارلي وتوكنغتون، منحنيَين لتجنّب الأعشاب المتدلّية، عبر الفتحة الضيقة. هبّت رياح ثلجية معهما، وأسرع لي ديك بإغلاق الباب. اهتزت القوارير والعلب المصفوفة على الرفوف، وراحت تصطك ببعضها.

قال تشارلي: «هناك صيني غريب، جاء ليقضي الشتاء هنا، وقع في ورطة. اتُّهم بسرقة حذاء من رجل أبيض».

أومأ لي ديك. «ذهبت بالفعل إلى السجن لرؤيته. قال لي السيد سكينر إن الرجال الذين أتوا بـ آفو هدّدوه بالشنق إن لم يُعد الحذاء، لكنه يصرّ على أنه لم يسرقه».

هبطت بولي عن الصندوق الخشبي. «سأُحضِر له عشاء».

قال توكنغتون: «إنه ليس في السجن. تحققت بنفسي. جاء رجال لا يعرفهم سكينر وأخذوه. قالوا إنهم يريدون فقط إخافته ليعترف، لكنهم لم يعودوا بعد. وأخشى أنهم ارتكبوا حماقة ما».

ارتدت بولي معطفها وقفّازَيها. «سنذهب للبحث عنهم».

قال تشارلي: «لا. عودي إلى منزلك، أو منزلي. أنا ولي ديك وتوكنغتون سنتولى الأمر».

قالت، وهي تمرّر أصابعها فوق الندبة في وجنته:

«أحيانًا، يستمع الرجال إلى امرأة أكثر مما يستمعون إلى رجل آخر».

ثم همست: «لا أريدك أن تخاطر بتكرار ما حدث».

أحضر لي ديك فوانيس وسكينًا.

قال: «سيكونون قد رحلوا الآن».

قال توكنغتون: «لم يكن الرجال يمتطون خيول، أظنهم لم ينووا الذهاب بعيدًا».ثم أضاف وهو يفتح الباب: «قال سكينر إنه رآهم يتجهون نحو النهر».

رفعوا فوانيسهم عاليًا، وساروا في الاتجاه الذي اقترحه توكنغتون. غطى الثلج الطازج مسارات الطين المليئة بالنفايات المتناثرة حول الأكواخ، كأنه طلاء جير ناعم، منقيًا الهواء من الروائح المعتادة، ومخمدًا صخب الليل المعتاد.

كانت أشبه بقرية أشباح، هكذا فكرت بولي، وشعرت بقشعريرة تسري في جسدها تحت فستانها الصوفي الدافئ ومعطفها الصوفي. قرية أشباح تتمنى أن تفلت من الأنظار ،ومن هنا جاء الغضب.

كانت أحذيتهم تشق طريقها عبر طبقة الجليد الرقيقة فوق أول تساقط للثلوج في الموسم. وتموج الثلج المتناثر كرمال البحر.

قال لي ديك: «نستطيع تغطية مساحة أوسع إن تفرّقنا».

قال تشارلي: «لكن من الأفضل أن نبقى معًا».

شدّت بولي كمّ معطفه. «لي ديك مُحق».

وافق تشارلي على مضض، وتفرّقوا، تاركين البلدة خلفهم.

كلما اقتربوا من النهر، أصبحت طبقة الجليد أكثر غدرًا. كانت الريح تلفّ تنورة بولي حول ساقيها، وكل خطوة كانت صراعًا مع التوازن. السماء السوداء تمامًا توعّدت بعاصفة جديدة، لكنها كانت بحاجة إلى التمسك والدعم أكثر من حاجتها إلى الضوء. أنزلت فانوسها.

بذراع واحدة، أمسكت بجذع مكسو بالجليد أمامها وتقدّمت بحذر نحوه. كانت الشجرة التالية بعيدة، لكن يمكنها الإمساك بغصن منها.

سحقت قفّازاها البلّورات الصغيرة التي تغلّف الغصن، وتقدّمت دون أن تسقط. ببطء، بمشقة، ورذاذ الريح يجلد وجهها بكريستالات جليد قاسية، شقّت طريقها من شجرة إلى أخرى، تاركة خلفها ضوء فانوسها الخافت. أطلّ الهلال من خلف غيوم سوداء كثيفة، ملقيًا بظلال قاتمة عبر الأغصان المتشابكة. ومن الأسفل، كان صوت الماء يصطدم بالصخور، ويجرف أغصانًا وأشلاء. ثم سمعت خشخشة خافتة، أشبه بتنهيدة. ربما كانت الريح، أو حيوانًا صغيرًا. لكن ذلك الأنين؟ أكان صوت الريح... أم إنسان يتألّم؟

توقفت. كانت فوانيس تشارلي ولي ديك وتوكنغتون تتمايل غير بعيد عنها، ضوءها المتراقص يطمئنها أن المساعدة قريبة. لكن في محيطها المباشر، لم يكن هناك سوى الظلال. انزلق أرنب بري على الثلج فبدا معطفه الشتوي الأبيض متألقًا في الظلام. عوى ذئب بصوت بريّ جامح. نعقت بومة. ثم اختفى القمر، وانهمرت الثلوج من السماء السوداء كغبار ناعم فوق أغصان الصنوبر. عليها أن تعود أدراجها قبل أن يتحول تساقط الثلج الخفيف إلى دوامة مبهرة.

انحنت في وجه الريح، وتقدّمت بحذر صعودًا على المنحدر الزلق، باتجاه بصيص فانوسها الخافت بالكاد.

تدلّى غصن مكسور بشكل خطير في طريقها. دفعته جانبًا.

لكنه لم يتمايل كغصن. لم يكن غصنًا مكسورًا.

بل رجلًا محطمًا ملتفًّا في كفنه الجديد من رقائق الثلج الريشية البيضاء.

الفصل الخامس والعشرون

كلما أتاها الحُلم، كان يتكرر دائمًا بالصورة ذاتها. حبل مشدود كوتر، وهي تمشي عليه ببطء. متعبة. تتوق إلى بلوغ النهاية. لم تكن ترى المكان الذي تكافح للوصول إليه، لكنها كانت تشعر بما فيه من راحة، واكتفاء.
ثم، فجأة، ودون سابق إنذار، ينكسر الغصن. تفقد توازنها. وتسقط.
ينسلخ لحاء الغصن، فتجد نفسها تحدّق في عينين حمراوين جاحظتين، في وجهٍ أسود منتفخ، ولسانٍ متدلّ يخنق صرخة مكتومة.
صرخت بولي: «لا... لا».
هزّها تشارلي. «استيقظي، بول».
حكّ عود ثقاب حجر الصوان، فانبثق ضوءٌ حادٌ خلف جفونها المنغلقة بإحكام. قامت يدان بتسوية ثوب نومها الملتوي، تربّتان، تطمئنان، تدفعان الحُلم إلى الوراء، حتى تلاشى. تجرأت أخيرًا على فتح عينيها. كان الكرسيان قرب الموقد، كمان تشارلي، مفرش الطاولة المطرّز بيديها، فستانها الكاروهات بأزراره الذهبية اللامعة معلّق على المسمار، كان بنطال تشارلي المخملي وقميصه الصوفي مُلقيان على كرسي بجوار حذاؤه وغليونه.
التقط تشارلي اللحاف الذي ركلته بولي أثناء نومها، وغطّاها به.
قال: «بول، أعلم أن مشهد الشنق كان فظيعًا، لكن مرّ عليه ثمانية أشهر».
قالت: «الرجال الذين شنقوا آفو ما زالوا أحرارًا».
«كانوا غرباء، لم يسبق لسكينر أن رآهم من قبل».

«والآن بعدما ذاب الثلج، يمكنهم العودة. لماذا تعتقد أن الحي الصيني شبه خالٍ؟»

«لنفس السبب الذي يغادر لأجله الرجال البيض وارنز. لا يوجد ذهب، والظروف سيئة».

«ربما. لكن لي ديك يقول، وأنت تعرف أنه محق أن الأوقات السيئة هي دائمًا شرارة المشاكل».

مسح تشارلي الشعر عن جبينها. «دعينا نغلق الصالون وبيت الضيافة، ونأخذ رحلة».

«ماذا؟»

ابتسم «هناك مكان أريد أن أريكِ إياه».

«أين؟»

قال وهو يبتسم كمن يحمل سرًّا: «ليس بعيدًا، يوم واحد على ظهور الخيل. لا أستطيع وصفه لكِ... عليكِ أن تريه بعينك». كان في عينيه بريق حماس، حماس شاب، كشاب يخفي سرًّا.

قالت: «حسنًا... لنذهب».

أخذت بولي آخر قضمة من سمك التروتة الذي اصطاده تشارلي ذلك الصباح. غلّفته بدقيق الذرة الأصفر وقَلته حتى اكتسب قرمشة ذهبية، وقدّمته ساخنًا بجانب أوراق الهندباء التي جمعتها أثناء صيد تشارلي.

كان اللحم الطازج الطري يتناقض تمامًا مع الغلاف المقرمش، وشعرت بولي بتلك الراحة التي تتبع وجبة لذيذة مكتملة. وحرصًا على ألا تُوقظ تشارلي النائم في ظلّ شجيرة الماهوغاني، جمعت الصحون والقِدر والشوك، وتوجّهت نحو النهر لتغسلها.

كم كان النهر خادعًا. قرب وارنز، لم يكن سوى خرير خافت. ثم، كلما انحدرا نحو الوادي، تحوّل الخرير إلى هديرٍ عاصف. الآن، على ضفافه، كانت ترى أقواسًا من قوس قزح المكسور تلوّن الشلالات، وحبيبات الرغوة تتلألأ كالعقيق الناري، مُبهرة في جمالها. لكن ما أدهش بولي أكثر من كل ذلك، كان الصوت. الصوت الذي يصدره الماء وهو يتحطّم على الصخور السوداء الضخمة المتربصة في أعماق نهر السالمون. على بُعد أمتار، كان جدول صغير، خيطًا فضيًا متعرجًا بين أشجار الصنوبر والتنوب، يتسع قليلاً، ثم يضيق فجأة، ويندفع ليلتحم بدوّامات السالمون العميقة المتلاطمة. وعبر النهر، كان هناك جدول أكبر يفعل الأمر ذاته. كان صوت الماء المتلاطم ساحرًا، يسلب اللب ويمحو كل فكرة عن العالم المضطرب خارج الوادي.

انحنت بولي باندفاع، خلعت حذاءها وجواربها، وسارت على شريط الرمال، والماء المتجمّد يلامس أصابع قدميها، تاركة آثار أقدامها بجانب آثار القنافذ، وخطوط الريش، وآثار الوشق، والمنك، وثعالب الماء، والغزلان.

عند نهاية الشريط، استدارت وعادت ادراجها، تمشي ببطء، تخدش الرمل الساخن، وتشعر به يتفتت تحت قدميها. غمست الصحون والقدر في الماء. ظهر وجه قندس أملس مبلّل من تحت الماء، يرمقها بتساؤل. بمزاح، نثرت عليه الماء. لم يتحرك في البداية، حدّق بتحد. ثم غاص واختفى. ضحكت، أتمّت الغسل، رتّبت الصحون والقدر والشوك إلى جانب الرماد المتبقي من نار الطبخ، وسحبت سرجها إلى قرب تشارلي.

من الصعب أن تصدق أن هذا الوادي، بكل ما فيه من عزلة ووحشية، يبعد عن وارنز ثمانية عشر ميلًا فقط. لكنها أدركت تمامًا لماذا اختارته عائلة ماليك لتفلحه دونًا عن بقية الوادي. كانت الأرض، المغمورة بعشبٍ جاف، وقراصٍ مؤلم، وسماق، وعُلَّيق شرس، مجانية. والتربة خصبة، والموسم الزراعي طويل. تمدّدت، متوسّدةً نعومة السرج الجلدية.

فوقها، بين جيوب الجدار الصخري، كانت خراف الجبال تبحث عن العشب، وجلودها الرمادية تمتزج مع لون الصخور. وعلى ربوةٍ قريبة، رأت رأس ضخم لكبشٍ يرعى، وإلى جواره بقعتان بنيّتان: نعجة ورضيعها. رأتها، ولم تهرب.تابعت الرعي، مطمئنّة إلى أمانها. من حولهم، حوامات تلمع. حشرات صغيرة تطنّ. سنجاب يركض على جذعٍ مغطى بالأشنة الخضراء والصفراء. الشمس دافئة والسلام ملموس.

قال تشارلي: «أترين الآن لماذا لم أستطع أن أصف لك هذا المكان... كان لا بدّ أن أريك إيّاه».

استدارت بولي، وهي مغمورة بإحساس رضا لم تعرفه من قبل.

قالت: «دعنا نبقَ هنا أيامًا أخرى».

رفع تشارلي نفسه على مرفقه.

قال: «بول... حين طلبت منك الزواج سابقًا، قلتِ إنه لا داعي.لكن الآن، ومع القانون الجديد، هناك كل الأسباب. دعينا نتزوج، ونأتي إلى هنا لنبدأ حياتنا من جديد».

قفزت إلى ركبتيها، وامطرته بالرمل. «ألا تمانع مغادرة وارنز؟»

قال مبتسمًا: «إنها تبعد يومًا واحدًا فقط. يمكنني تأجير الصالون، وأنت تؤجّرين النُزُل، ويمكننا دائمًا الذهاب إلى البلدة إن أصبح المكان مملًّا».

ضحكت: «مملّ؟! هناك الكثير من العمل في المزرعة ليكون مملًّا!»

«إذًا... توافقين؟»

تخيّلت صورة عائلة بيرثا، لكنها رأت نفسها وتشارلي مع أطفالهما، أطفالٍ لا يعرفون إلا الفرح والسلام الذي يمنحهما هذا الوادي.

ألم يعش والدها وآباؤه في نفس القرية أجيالًا؟

لكن أمّها، مثل كثير من النساء، جاءت من قرية أخرى، ولو لم تُبَع، لكان لزامًا عليها أن تترك أهلها وتذهب إلى بيت زوجها.

كما جيم، ولي ديك، وأ سام، ومئات الصينيين على السفينة، وفي وارنز، والمعسكرات الأخرى، ألم يغادروا قرى آبائهم كما غادر تشارلي بلده؟ كانت جبال الذهب تعجّ بالرجال والنساء الذين لا يتوقفون، يلاحقون الأحلام من ساحل إلى ساحل، من مدينة إلى مدينة، من منجم إلى آخر.

ها هو حلمها؛ نهاية الحبل المشدود، كان هنا.

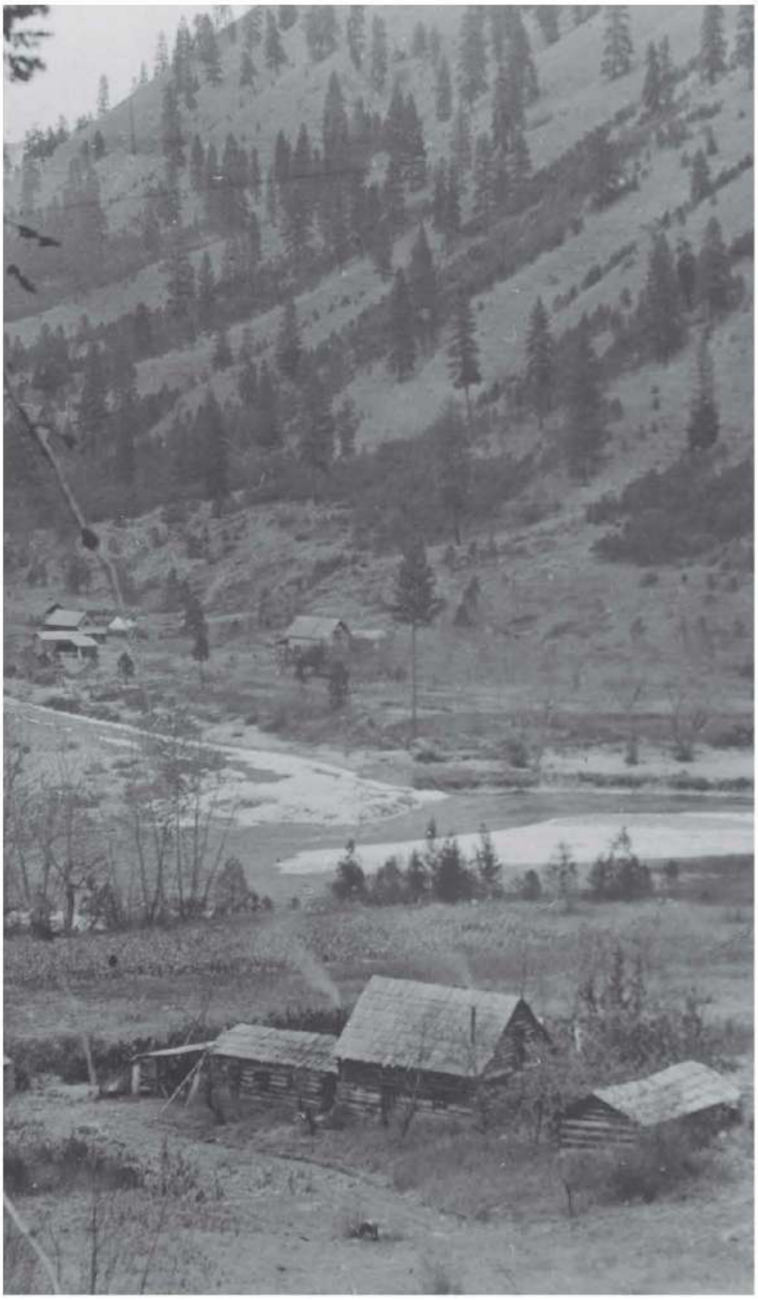
لكنها لا تستطيع أن تحلم نيابة عن الأطفال الذين قد تنجبهم من تشارلي.

أخذت حفنة من الرمل. كان يلمع كقطع النحاس في يد والدها عندما كان يقامر ويخسر، وكالذهب الذي غامر به تشارلي مع هونغ كينغ وفاز.
والآن... عليها أن تغامر هي أيضًا.
انساب الرمل من بين أصابعها، وراحت سلطعونات الرمل الصغيرة تهرع للهرب. قبضت على يديها. كيف لها أن تحتمل خسارة هذا المكان أو تشارلي؟
رفع تشارلي ذقنها. «ما الأمر؟»
نظرت إليه، رأت انعكاس صورتها في عينيه: واحدة تتوق للموافقة، والأخرى لا تستطيع. هزت رأسها نافية: «الأطفال. لا أطفال».
أخذ تشارلي يديها، وبسط أصابعها المغلقة حتى انفرجت براحة مفتوحة بين يديه. «أنا أريدكِ أنتِ، بول، لا شيء غيرك».
اغرورقت عيناها، واندمجت صورتيها في عينيه فجعلتا صورة واحدة.
قالت: «نعم إذًا، تشارلي. أوه نعم... سأتزوجك وأعيش معك هنا».

الجزء الخامس

١٨٩٨- ١٩٢٢

Part Five



1898–1922

الفصل السادس والعشرون

كانت حبّات الكرز البري تصدر خشخشة خفيفة داخل أغطيتها الورقية، بينما بولي تلقي بها في دلو السمن المعدني إلى جوارها. في أول خريف لهما في وادي نهر السالمون، لم يكن لديها سوى الكرز وثمر العليق البري، والعنّاب الجبلي، وتوت الهكّلبري لتعليبه.

لكن عامًا بعد عام، ومع اتساع حديقتها ونضج أشجار بستانها التي زرعتها بيديها، ازداد محصولها، وبحلول أول تساقط للثلوج في شتائهما الرابع، كانت الأرفف التي تصطفّ على جدران مخزن الجذور قد ازدحمت بجرار دهن الدبّ، ومربّى البرقوق، والخوخ والمشمش معلب، والخضروات من الحديقة، ولحم الغزال، ودجاج التدرج.

إلى جانب الفاكهة والخضروات. كانت تزرع قمحها الخاص، وتطحنه لتصنع الخبز. وكانت البقرة الوحيدة وبضع دجاجات، تكفيهما لتلبية حاجاتهما من الحليب والبيض. كانت تذيب الشحم وتعدّ الصابون من دهن الدبّ الذي يصطاده تشارلي أحيانًا.

وخلال رحلات تشارلي الدورية لتفقد صالونه في وارنز، كان يتبادل منتجات بولي لقاء القليل مما لا يمكن زراعته أو تصنيعه، مثل زيت المصابيح، والأقمشة، والخيوط، والأحذية.

لم تكن بولي ترافقه، فقد باعت منزل الضيافة. وأصبح كل شيء وكل شخص تريده، إما في هذا الوادي، أو سيأتي إليه يومًا.

في فصول الربيع والصيف والخريف، لم يكن يمرّ سوى القليل من المنقّبين والمغامرين، وكان تشارلي ينقلهم بقاربه عبر النهر.
أما في الشتاء، حين يتجمّد النهر بألواح من الجليد، فكان الرعاة وأصدقاء وارنز القدامى يأتون. يسهرون الليل بطوله يتبادلون الأخبار، يسردون القصص، يلعبون البوكر، ويشربون الويسكي المصنوع من الجاودار والجنجل الذي تزرعه بولي. ثم يخرج تشارلي كمانه، وتبدأ الأغاني، وأحيانًا الرقص. ويظلّ الكوخ الخشبي الدافئ ذو الطابقين يهتز لأيام من كثرة الضحك ودقّ الأقدام.
ناداها تشارلي: «بولي، تعالي إلى هنا».
ألقت آخر حفنة من الكرز في الدلو، نهضت وتمطّت، ونظرت بفخر إلى مزرعتها؛ «بولي بليس[9]». كانت قمم نبات الهليون الرفيعة تنبثق بين الصخور الرمادية عند أسفل السفح. وقشّ الحبوب، الذي زُرع لإراحة التربة، يحيط صفوف الذرة الداكنة بهالة ذهبية. على مدى البصر، ترامت أسرّة الخس والملفوف والجزر واللفت، والأعشاب الخاصة التي تزرعها لـ لي ديك.
كانت أرضها مزهرة تنبض بالحياة.
وقفت تُشاهد الديكة تتبختر بين الدجاجات التي تقرقر بينما تنبش في التبن بجوار الإسطبل. سمعت زقزقة القُبّرات ترتفع فوق هدير النهر، ومن بين الأشجار خلف الجدول، كانت طيور التدرّج تدقّ على جذع شجرة.

---

[9] بولي بليس: مكان بولي. Polly place المترجم.

على الضفة الأخرى، كانت مزرعة عائلة آل ماليك خاوية، فقد رحلوا إلى أرض جديدة قرب غرينجفيل، حيث يتمكن أولادهم من الذهاب إلى المدرسة.
لطالما رغبت بولي في العيش بجوار بيرثا وأولادها، فأي مزرعة كانت ستمنحها نفس البهجة؛ ملمس التربة الغنية وهي تتفتّت بين أصابعها، دفء الشمس على ظهرها، أوجاع العضلات بعد يوم من إزالة الأعشاب، عبير الفاكهة وهي تطبخ، رائحة التوابل الحادّة في أواني التخليل. لكن وحده هذا الوادي كان يمنحها هذا السلام العميق. ولن تغادره. أبدًا.
قال تشارلي من مكان لا تراه: «هنا».
كان صوته يأتي من جهة أشجار الكستناء والتوت التي زرعتها في الربيع.
سارت بولي نحوها. رأت قرعًا ضخمًا أصلع، يطل من بين كروم جافة شعرية اخترقت سياج الصفصاف الذي يحيط بالحديقة. أخرجت سكينها الكبير، وقطعت الثمرة، لتحميها من السناجب والقنافذ التي تزحف ليلًا.
قال تشارلي، مستلقيًا على بطنه، يحدّق في تلة من الإبر الصنوبرية والأوراق المتساقطة: «انظري إلى هذا العشّ من النمل».
وضعت بولي ثمرة القرع إلى جانبه، وجثت على ركبتيها.
لمحت دودة أرض نصف مدفونة في التربة السوداء الغنيّة. انتشلتها، نفضت عنها التراب، وألقتها في جيب مئزرها. قالت مازحة، تربّت على الدودة التي كانت تتلوّى في جيبها:
«إن عملتَ مثل هذا النمل، سيكون لدي وقت لأذهب إلى الصيد لاحقًا».

ضحك تشارلي، وعيناه الزرقاوان تلمعان:
«تريدينني أن أحرث الأرض؟»
ضحكا معًا، وتذكّرا ربيعهما الأول في الوادي، والثور الذي اشتراه تشارلي لجرّ المحراث. كان يتوقع أن يثور الحيوان ويركض، فربطه إلى جذع شجرة ضخم، ظنًا منه أن الأغصان ستغرز في الأرض وتبطئه إذا ركض. وبالفعل اندفع الثور كما توقّع، لكن الأغصان بدلًا من أن تغرز أرضًا، انزلقت فوق التربة الصلبة كزلاجات، ودُفع تشارلي أمامها دون أن يتمكن من القفز جانبًا. وحين توقف الثور، خرج تشارلي مغطّى بخدوش وكدمات وجوربٍ واحد.
قالت بولي بعد أن هدأت ضحكتها: «هذا ليس موسم الحراثة. لكن يمكنك مساعدتي في حمل دلاء الكرز».
أخرج تشارلي قبعته من تحت شجيرة، ووضعها على رأسه. كانت مغطاة بورقتي ملفوف كبيرتين، ومربوط في شريطها من الخلف منديل أبيض يتدلّى على مؤخرة رأسه ورقبته. أشارت بولي إلى القبعة، وانفجرت ضاحكة من جديد.
قال تشارلي، رافعًا رأسه بفخر: «قرأت في كتاب أن من المهم تظليل العنق من الشمس». ثم تقدّم خطوتين. «انظري كيف يتحرّك المنديل؟ هذا يخلق تيار هواء مستمر يبرد الرأس والعنق».
لهثت بولي، تمسح دموعها بكمّها: «تشارلي... نحن في أكتوبر، على أبواب الشتاء، لا في أغسطس».
قال بوقار مصطنع: «أُجرّبه فقط».

قالت، تكتم ضحكتها: «حتى في الصيف، لا تمكث تحت الشمس بما يكفي لتحتاجه».

ردّ: «سأفعل».

قالت: «نعم؟»

«سأعود لغربلة الرمال بحثًا عن الذهب».

«تخلّيتَ عن التعدين منذ سنوات، قلت إنه عمل شاق».

«ربما بدأت عدوى نشاطكِ تنتقل لي».

«جيد. إذًا بعد أن تنقل دلاء الكرز إلى البيت، يمكنك تقطيع الحطب وتقشير الذرة».

«لا أستطيع. عليّ أن أبدأ بوضع حدود المطالبة».

«اليوم؟!»

«تذكرين المنقّبين الذين نزلوا من (بوفالو هَمب) في أغسطس؟ الذين كانوا على عجلة لدرجة أنهم لم يتوقفوا للأكل أو الكلام؟» أومأت.

قال: «تسري شائعات أن العيّنة التي حملوها تحتوي على ما يكفي من الذهب لإطلاق موجة تنقيب جديدة».

ارتجفت بولي. موجة تنقيب تعني تدفّق الرجال إلى الوادي في طريقهم نحو (الهَمب)، ستخرب الأرض، وتضيع السكينة. ورغم أن زواجها، وشهادة الإقامة الجديدة التي أرسل تشارلي للحصول عليها من مكتب الحكومة في مونتانا، يحمون وجودها، إلا أنه لا شيء يحمي بيتها، هذه المزرعة التي انتزعتها من البرية، والتي لم يكن أحد يلتفت إليها... حتى الآن.

قالت: «والمزرعة؟»

لوّح تشارلي بقبعته وضحك: «ألا ترين؟ لهذا سأعود إلى التعدين. لا يمكنكِ أن تكوني شريكة في ملكية مزرعة، ولا يمكنك امتلاك الأرض. لكن كثيرًا من الصينيين يحملون تراخيص تنقيب. لذلك سأسجّل المزرعة كموقع تعدين، وأُقدم الطلب في المرة القادمة التي أذهب فيها إلى وارنز».

الفصل السابع والعشرون

عملت بولي وتشارلي بتناغم تام. كان تشارلي قد صنع صندوقًا خشبيًا بدائيًا من صندوق زيت فحم قديم، وثبّته حول ساق الفتى المهروسة، بينما راحت بولي تحشو الصندوق بقطع قطن منتزعة من لحف قديمة، ثم لفت الساق والصندوق معًا بشرائط طويلة من شراشف ممزقة. وما إن ربطت العقدة الأخيرة، حتى ألقى الفتى بساقه السليمة خارج السرير.

قالت بولي بسرعة: «لا، لا. عليك أن ترتاح خمسة أسابيع، ربما ستة، قبل أن تشتد ساقك بما يكفي لتغادر».

تشبّث الفتى بحافة الفراش بكلتا يديه ونهض ببطء.

«ألم تسمعي عن اكتشاف الذهب في بوفالو همب؟ إن انتظرتُ ستة أسابيع، فلن يتبقى أي موقع أطالب به».

وقف على ساقه السليمة، خطا خطوة واحدة، ثم انكمش من الألم.

أمسك تشارلي بكتفيه ودفعه برفق ليعود إلى الفراش.

«ربما لا تدري، لكن من تعتني بك هي ملاك نهر السالمون، وإذا قالت إنك لن تبرح الفراش قبل خمسة أو ستة أسابيع، فهكذا سيكون».

اعتدل الفتى على مرفقيه، وقال بتوسل: «لكنها فرصة العمر».

ردّ تشارلي «لقد استخدمتَ فرصة عمرك عندما تدحرجتَ من على الجبل وفقدتَ عتادك وحصانك. لو لم أعثر عليك صدفة، لكنتَ الآن ميتًا. لا تجرّب حظك مرتين»، ثم أعاد ساقي الفتى إلى السرير.

«وعلى كل حال، لن تعبر النهر إن لم أقم أنا بالتجديف بك».

قال الفتى بإلحاح: «يقولون إن الاكتشاف في الهمب غني جدًا، حتى إنك لا تحتاج إلا إلى أيام قليلة مع مجرفة وصينية لاستخراج ما يكفي من الذهب لتصبح مليونيرًا».

رأت بولي في عينيه ووجهه وجسده بأكمله ذلك الأمل الساذج نفسه الذي كان يشعّ من وجوه أولئك الذين رافقوها في عنبر السفينة التي جلبتها إلى أمريكا. وعرفت أنها وتشارلي، مهما قالا، فلن يثنيا عزيمته.

ابتسمت وهي تسحب اللحاف لتغطيه وقالت:

«بساقك هذه، سيستغرق الوصول إلى الهمب أسبوعًا، وربما اثنين، هذا إن لم تمت في الطريق. أما على ظهر حصان، ومع تشارلي ليدلّك، فستصل في يومين. إذًا، ابقَ هنا أسبوعين، وبعدها سيأخذك تشارلي».

منذ أن عاد تشارلي حاملاً الفتى الغرّ على ظهر جواده بدلًا من غزال، أدركت بولي أن ثلوج الشتاء لن تحميهم من حمى الذهب. وزاد يقينها بعد أن عاد تشارلي من رحلته إلى الهمب بصحبة الفتى.

كان العِرق المعدني ضخمًا، ظاهرًا على مدى خمسة أميال، ويمتد عبر نهر السالمون. ورغم الثلوج التي بلغ ارتفاعها أقدامًا، كان هناك أكثر من مئة منقّب يقيمون في خيام على طول العِرق، ويتزايد عددهم يومًا بعد يوم. بعضهم جاء على ظهور الخيل، وغالبًا اثنان على الحصان الواحد، وآخرون مشيًا على الأقدام، يحملون أحمالًا ثقيلة على ظهورهم. كلهم جاؤوا لهدف واحد: أن يعبروا النهر على قارب تشارلي ليصلوا إلى الهَمب ويطالبوا بحصصهم قبل فوات الأوان.

بالنسبة إلى بولي وتشارلي، كانت المزرعة هي الموقع الوحيد الذي يعنيهم. وقد تم تحديدها، واستُكمل نموذج المطالبة، لكن لم يتم توثيقها رسميًا، إذ أن القانون يشترط أن يتم حفر خندق بعمق عشرة أقدام أولًا.

قاما بتجهيز موقع قرب الجدول حيث ستوضع صناديق الغربلة، وشرعا في الحفر، يضربان المعاول في الأرض المتجمدة الصلبة، ولكن مع تعمّق الحفرة، وسوء الطقس، بدأ سعال تشارلي يشتد بصورة مثيرة للقلق حتى أصرّت بولي على أن يتوقف.

كان يلهث ويتصبب عرقًا في البرد القارص، تجمدت ثيابه المبتلّة على جسده، ومع ذلك رفض التوقف. قال وهو يسعل: «أسمعتِ ما يقوله الرجال العابرون؟ غرانجفيل صارت أشبه ببيت مجانين، وفلورنس وإلك سيتي والمخيمات الأخرى كلها خالية، الكل يندفع نحو الهَمب. بعضهم يطالب بتراخيص أراضٍ مدفونة تحت خمسة عشر قدمًا من الثلج».

قالت بولي: «ومعظم تلك المطالبات ستسقط لاحقًا».

كانت الندبة التي خلفتها الرصاصة على وجهه بارزة بلونها الأحمر القاسي وسط بشرته الشاحبة من التعب. «تمامًا. ولكن مطالبتنا ستُقبل»، ثم سعل مجددًا.

وضعت بولي يديها المغطيتين بالقفازات فوق يديه، تمنعه من رفع المعول، وهمست: «أتظن أني أهتم بهذه المطالبة إن كانت نتيجتها أن نحفر قبرك؟»

في تلك الليلة، استيقظت لتجد جسده يشتعل بالحمى. بصوت أجش منهك من السعال، شكا من ضيق في صدره. على مدى أيام، كانت بولي تصنع له كمادات الخردل والكتان، وتغلي الأعشاب ليشربها، وتُصعّد الأبخرة ليستنشقها. ازداد سعاله، نزف أنفه، وكانت تهرول بين الطوابق لتبديل الملاءات المبللة بالعرق وتنظيف أوعية الفضلات. وفي الأسبوع الثاني، انخفضت حرارته، لكنه لم يتمكن من مغادرة الفراش إلا بعد مرور شهر.

جلس يومها منحنِيًا على المدفأة، يدخّن غليونه، ويحدّق بصمت من خلال النوافذ المغطاة بالصقيع في عالم تحوّل إلى بياض الحداد. عبر النهر، الذي كان يزأر تحت كتل الجليد، كانت نيران المنقبين الذين نصبوا خيامهم على امتداد كروكد كريك تومض ساخرة،

راحت بولي تضرب العجين بقبضتيها. حين كان تشارلي مريضًا، لم يكن لديها وقت لتفكر في الخندق غير المكتمل، أو النموذج غير المسجّل. لكن الآن، وقد بدأ يتعافى، طفت على السطح مخاوف كانت تخفيها في أعماقها. كانت تعجن العجين بقوة، تضربه بأصابعها السمراء الخشنة، تقمع أفكارها السوداء كما تعجن الكتلة الطرية. ثم شكّلت الكتلة إلى أرغفة سترتفع ثم تهبط ثم ترتفع مجددًا، تمامًا كالحياة. تساءلت: ألهذا يصنع أهل قريتها كعكة رأس السنة؟ ذلك الطقس الوحيد الذي كان والدها يشارك في تحضيره. يغلق كل الأبواب بينما تضع والدتها العجين في قدر ضخم للبخار. ثم يشعل البخور ليحدد وقت الطهي، ويراقب احتراقه حتى يصير رمادًا. وأخيرًا، يرفع الغطاء، ويزفر البخار كالضباب، فيحتشد الجميع بلهفة ليروا ما إذا كانت الكعكة قد ارتفعت وطافت كفأل حسن، أم ترهلت كإشارة شؤم.

كانت كعكة والدتها دومًا ترتفع. حتى في السنة التي سبقت تلف قمح الشتاء. حتى في السنة التي بيعت فيها بولي. لم يكن الحظ هو من يتحكّم بارتفاع الأرغفة والكعك... بل المهارة، والقوة، والمقادير الصحيحة. وضعت بولي أرغفة الخبز لتختمر، ثم مسحت يديها من الطحين، ارتدت معطفها ولفحاتها وحذاءها.

لديها المهارة، ولديها القوة. وستوفّر المقادير الصحيحة.

قادت بولي تشارلي بخطى متردّدة نحو الجدول المتجمّد، تارةً تحثّه على الإسراع، وتارةً تأمره بالتمهّل. كانت سفوح الجبال المكسوّة بالثلج تتلألأ ببياضٍ ناصع تحت السماء الزرقاء، فيما شقّت ظلالٌ داكنة أرضية الوادي المغمورة بالثلج. لفح الهواء القارس، المشبع برائحة دخان الحطب، وجنتَي تشارلي الشاحبتين، فأكسبهما حمرةً متشقّقة. ومن حظيرة الدجاج تصاعدت نقنقةٌ واهنة، بينما تردّد من الإسطبل رنينُ جرس بقرة، ووقعُ رفسات الخيول وتململها. وتحت أقدامهما، كان الثلج المكسوّ بطبقةٍ من الجليد يصرّ ويطحن مع كل خطوة.

قالت بولي: «لا يكون الوادي كما هو عندما يتجمّد النهر ويسكن».

رد تشارلي، بنبرة كئيبة ونفَس يخرج كالدخان: «هذا يسهل الوصول إلى الهَمب».

أمسكت بولي بنفَسه المتبخر بخفة، كأنها تلاعبه: «الهَمب ليس المكان الوحيد الذي يقصده الناس».

قال: «بل هو كذلك هذا الشتاء».

أوقفته فجأة وقالت: «لكن ليس أنت. ستذهب إلى وارنز».

«لماذا؟»

«لتوثق المطالبة».

انحنت، وسحبت أغصان صنوبر مكسورة مغطاة بالثلج، كاشفة عن خندق مربع تمامًا، عرضه أربعة أقدام وعمقه عشرة.

شهق تشارلي بدهشة: «هذا مستحيل! الأرض متجمدة كالصخر».

ابتسمت بولي وقالت، مستمتعة بدهشته:

«ليست عندما أحفرها أنا. كل يوم أشعل نارًا داخل الحفرة، وأدفئ سطح الأرض. ثم أحفر. وحين أبلغ طبقة متجمدة جديدة، أتوقف وأشعل نارًا أخرى».

قال تشارلي: «هذا يستحق احتفالًا!»

أجابت بولي: «ليس بعد. عندما تعود من وارنز».

الفصل الثامن والعشرون

على مدى اثنين وعشرين عامًا قضتها في وارنز، لاحظت بولي أن عمّال المناجم ينقسمون إلى خمسة أنواع. المستكشفون المبتهجون، أولئك الرجال القليلون في الكلام، الذين جابوا الغابات والجبال بصبر لا ينفد وتفاؤل لا يخبو. ثم عمّال التنقيب السطحي الذين يتنقلون من جدول إلى آخر، يتأرجحون بين الفقر والثروة، وبين الشقاء وغلظة العيش. ثم المروّجون، المتخمون المترهلون، الذين لا يتورّعون عن تلويث العينات قبل تحليلها لإغراء المستثمرين. وهناك المموّلون، الرأسماليون الذين يجهلون كل شيء عن التعدين والعمّال، ولا يهتمون بذلك أصلًا، لكن أموالهم كانت تشتري الآلات والتنظيم والهندسة اللازمة للتنمية الحقيقية. وأخيرًا عمّال الصخور الصلبة، رجال كجون لونغ، شجعان يُعتمد عليهم، الذين جلبوا معهم تأثير العائلات والزوجات والأطفال إلى المعسكر.

كان اكتشاف بوفالو هَمب ـ المروَّج له كأعظم معسكر ذهب على وجه الأرض ـ سببًا في اجتذاب رجالًا من كل أصقاع الدنيا. رجال يحملون نفس الآمال والمخاوف، الجشع والكرم، التفرّد الصلب والأحكام المسبقة، تمامًا كالذين عرفتهم بولي في وارنز. في البداية، خلال الأشهر السابقة لتسجيل ملكية أرض بولي، شعرت بالتوتر والقلق. لكنها ما لبثت أن استردّت السكينة، واختفت الكوابيس والمخاوف، بعد أن وثقت ملكية المزرعة.

وبحلول يوليو من العام التالي، لم يتبق من المطالبات إلا ما اختُلق منها لبيعه للسذّج، وتضاءل سيل الرجال المفعمين بالأمل الذين كانوا يقطعون الوادي في طريقهم إلى الهَمب حتى غدا خيطًا رفيعًا. لكن المروّجين استمالوا رأسماليين من الشرق، وبعد عام، بدأت عمليات الطحن في مناجم بوفالو الكبير، وكراكرجاك، وبادجر، وجامبو، وبدأت معها تنمية المنطقة بجدية
ثم في يوليو من عام ١٩٠١، اندفع الناس من جديد، وهذه المرة صوب جبل ثاندر. قال تشارلي بازدراء: «الذهب هناك لا يتعدى سطح الجبل». ومع ذلك، استطاع المستكشفون المتفائلون، والعمّال والمروّجون اللبقون، أن يُبقوا الشائعات حية لما يقرب من عقد من الزمن، إلى أن وقعت انهيارات أرضية في ١٩٠٩ أغرقت معسكر روزفلت التمويني.

تراجعت حركة المرور في الوادي وتقلصت إلى مجرد مغامرين وعمال تنقيب عابرين. عادت السكينة التي تحبها بولي، أعمق وألذ طعمًا من ذي قبل.
طرأت تغيّراتٌ قليلة، لكنها دائمة. فلكي تحافظ بولي وتشارلي على قانونية حقّهما في المزرعة، صارا يستخرجان الذهب من رواسب النهر كل ربيع، حين يبلغ الجدول ذروة فيضانه. كما صار لهما جيران جدد: تشارلز شب وبيت كلينكهامر، اللذان اشتريا مزرعة مالِك القديمة على الضفة المقابلة للنهر. كان لقاؤهما الأول بشِب ـ وهو من قدامى منقّبي كلونديك ـ عند بدايات اندفاع بافالو همب نحو الذهب، حين سجّل مطالبة تعدين في الفرع الغربي من جدول كروكد كريك، ثم نزل ممتطيًا جواده ليشتري محاصيل من بولي.

وبعد عامين، انضم إليه بيت، وهو شاب غادر مزرعة والديه في مينيسوتا باحثًا عن المغامرة في الغرب. وعلى خلاف بولي، كان بيت يتوق إلى التخلّص من حياة الزراعة، لكن لا المنجم ولا شركة الجعة التي أسّسها مع شب كُتب لهما النجاح. وحين أجرت شركة نورذرن باسيفيك مسحًا لمدّ خط سكك حديدية عبر الوادي، اشتريا مطالبة توم كوبنهافر في مزرعة ماليك.

سألت بولي: «أتظنّ أن السكة الحديد ستصل إلى الوادي؟»

دفع تشارلي بكلبهما تيدي عن صدره الذي تدحرج على العشب.

ثم قال: «لن نرى القطار هنا أبدًا».

زحف تيدي نحو بولي. خدشته خلف أذنه بيدها اليسرى، بينما واصلت طلاء بيت الدجاج بيمينها. تابع تشارلي: «يقول بيت، إنه وشب استصلحا مئة وسبعة وثلاثين فدانًا».

ردّدت، وهي تهز فرشاتها للتوكيد: «مئة وسبعة وثلاثون. وأنا مشغولة طوال اليوم بعشرين فدانًا فقط».

انتشل تشارلي كمانه من تحت رذاذ حمض الكربوليك وزيت الفحم المتطاير من فرشاتها، ووضعه تحت ذقنه. قال وهو يعزف: «لا تنسي أنهما اثنان، وأنت وحدك. ثم إن بيت في نصف عمرك، وشب وبيت ضعفك حجمًا».

قالت، وهي تزحف داخل بيت الدجاج لتطلي المجاثم الموبوءة بالعث: «بيت يعتني بالماشية والحراثة والحصاد، لكنه لا يزال ينجز أعمال التقييم ليكسب مالًا. وشب يتكفل بالحديقة كلّها، وهو النجار والطاهي أيضًا».

قال مازحًا: «مجرد التفكير بذلك يُتعب المرء»

أطلت برأسها وقالت: «أتمنى أن لا تكون متعبًا لدرجة أن تتكاسل عن الصيد، أخبرت شب وبيت أن لديهما من العمل ما يكفي، لذا ستخرج أنت لتصطاد لنا جميعًا اللحم الطازج».

رفعت بولي أطراف ثوبها المبللة بندى الصباح، وتخطّت شجيرة شائكة، ثم أمسكت بيد تشارلي. كانت يده رطبة. وضعت راحتها على جبينه، فشعرت ببرودته تحت طبقة رقيقة من العرق. كان قد أخبرها أن بصره يضعف، وأنه يحتاج إليها لتُبصر له الطرائد، لكنه لم يخبرها كم بات صعبًا عليه أن يتسلّق المنحدر. سعل. والتقطت بولي في سعاله ذلك الأزيز نفسه الذي أقلقها خلال نوبة الالتهاب الرئوي في شتاء موجة بوفالو هَمب.

سألته: «هل أنت بخير؟»

لهث قائلًا: «بخير. أحتاج فقط إلى بضع دقائق لأستعيد أنفاسي». أسند بندقيته إلى جذع شجرة، ثم تدحرج مستلقيًا على طبقة من السرخس الطري.

جثت بولي إلى جانبه. «أأنت متأكد؟»

قال وهو يلهث: «أنا في الثالثة والستين من عمري يا بولي، وأُنهكت. هذا كل ما في الأمر».

اندفع تيدي نازلًا من منحدر الوادي. كان يلهث حين رمى بنفسه عند قدمي بولي. قال تشارلي وهو يتمطّى: «انظري، حتى تيدي يحتاج إلى استراحة».

أسندت بولي ظهرها إلى جذع شجرة متساقط، ومضغت نصلًا من الحشيش الحامض في تأمل. تحتها كان نهر السالمون يزمجر، منتفخًا عشرة أو عشرين قدمًا فوق مستواه في الصيف، يحمل جذوعًا ساقطة وصخورًا متدحرجة، وبقايا الجليد الأخيرة. في البعيد، احتكّ غزال وحيد بقرنَيه الجديدين في جذع صنوبرة، يقشر عنهما الغلاف المخملي ويصقلهما. وأقرب، عند ضفة الجدول، جلس قندس يمشّط فراءه بأظافر قدميه. كل شيء من حولها تفوح منه رائحة الحياة، والنضارة، والخضرة الوليدة.

أحنى تيدي رأسه، يتحفّز للانطلاق من جديد، ودسّ أنفه البارد الرطب في خد بولي. خدشته خلف أذنه ودفنت وجهها في فرائه. لعل تشارلي كان محقًا، ولعل قلقها كان مبالغًا فيه. أليست هي نفسها قاربت الستين؟ شعرها أبيض، وجهها الأسمر مجعّد كجوزة، وأصابعها بدأت تلتوي.

قال تشارلي مشيرًا بإصبعه: «انظري، نسر ذهبي يحلق فوق حافة صخرية».

تبعت بولي إصبعه بعينيها. طوى الطائر جناحيه وهبط. وما إن اقترب من الحافة حتى بسط جناحيه مجددًا، ولما كاد يلامس الصخر، حلق صاعدًا من جديد، ومخالبه تمسك بحزمة صفراء.

وقف تشارلي، نفض الغبار وبقايا الأغصان والأوراق الجافة عن ملابسه.

سأل وهو يضيق عينيه: «ما هذا؟»

قالت: «يبدو أنه شبل من نوع ما».

«هل رأيتِ أثرًا لأمه؟»

لمحت حركة سريعة على الحافة، لكنها كانت صغيرة جدًا لتكون لقطة بالغة.
قالت: «لا. ربما شبل آخر».
قال وهو يشير إلى الأعلى: «ليست من عادة الأم المرضعة أن تترك صغارها. فلنذهب لنرى ما الأمر».

الفصل التاسع والعشرون

التقط تشارلي الشبل بين يديه: «شبل كوجر. لا يزيد عمرها عن ستة أسابيع».

قالت بولي: «سأُحضّر لها زجاجة حليب».

حذرها تشارلي: «قد ترفض حليب البقر، مثل تلك الحملان اليتيمة التي حاولتِ تربيتها.

لكن على عكس تلك الحملان التي أطبقت أفواهها بإصرار رافضة الزجاجة، حتى سال منها الحليب في تجاعيد صوفها المتجعد، فضعفت، ثم ماتت، فإن شبل الكوجر مصّت الزجاجة حتى امتلأت معدتها وانتفخت، ثم تثاءبت وتمددت.

وقف تيدي بجوارها، حاجباه المغطيان بالفرو منعقدان في تعبير هزلي، يراقبها وهي تشم الأثاث والنباتات في الخارج، تقلب أكواز الصنوبر، وتلهو بالأوراق والريش، وتتقلب فوق الأغصان المتساقطة. وعندما تبتعد، يمسكها من عنقها ويعيدها، فيتركها عند قدمي بولي. ومع مرور الوقت، أصبحا يتصارعان ويمرحان سويًا. وحين اصفرّت أشجار القطن، صار حجم الشبل مماثلًا لحجم تيدي، وبحلول منتصف الشتاء، حين كانت مستلقية، أصبحت بحجم بولي، ومع ذوبان الجليد في الربيع، فاقت تشارلي طولًا. كانت قادرة، وهي جالسة على الأرض، أن تصل إلى الطبق المعدني الذي ثبّتته بولي على الطاولة لتأكل منه. وعندما كانت تخدش جذوع الأشجار بمخالبها، كانت العلامات تغور عميقًا.

أشار شب إلى الكوجر الجالسة قبالته، تلعق صحنها النحاسي:
«هذا ليس طبيعيًا».
دخلت بولي من المطبخ وهي تحمل حصصًا وافرة من فطيرة الخوخ، وضعتها أمام تشارلي وبيت وشيب. ثم صبّت لهم القهوة الطازجة.
«هل تخيفك أمبر؟»
قال شب وهو منهمك في تناول الفطيرة: «أي مخلوق قادر على كسر عنق غزال بضغطة فكه يُخيفني».
«لن تؤذيك».
ضحك تشارلي: «حاول أن تقنع توم بذلك. جاء من وارنز الأسبوع الماضي. وصل بعد حلول الظلام، وقبل أن يدرك ما يحدث، قفزت أمبر من على شجرة، وطرحته عن حصانه، وثبّتته أرضًا».
«كانت تريد اللعب فقط».
قال بيت وهو يدفع بكرسيه للوراء ويفتح الباب: «فلتلعب خارجًا إذن».
أمسك تشارلي بأمبر من رقبتها، فحدبت ظهرها وأطلقت فحيحًا. ثم وقف تيدي يزمجر متخذًا وضع الهجوم.
عاد تشارلي إلى كرسيه وقال: «أنتِ خذيها، بولي».
راحت بولي تداعب ظهر أمبر، تمسد الفرو المنتصب. لحست القطة وجه بولي ببللٍ وديّ. أمرتها وهي تشير نحو الخارج: «إلى الخارج».
سارت أمبر مطيعة نحو الباب المفتوح، تصدر خطواتها أصوات نقر خفيفة على الأرض الخشبية. تبعها تيدي. وأغلقت الباب خلفهما.

قالت، وهي تبتسم بخفة: «هل تشعرون بالأمان الآن؟»

احمرّت وجوههم بخجل وهم يغرقون في الفطيرة والقهوة. مدّ بيت كوبه يطلب إعادة ملئه وقال مازحًا: «لو تم تطبيق الحظر، يمكنكم أخذ هذه القطة إلى وارنز لتحرس صالون تشارلي من مفتشي الحكومة».

رد تشارلي: «المشكلة الوحيدة أنها ستُرعب الزبائن أيضًا. لكن لا داعي للقلق، فالشتاء لن يجرؤ فيه حتى أكثر المفتشين حماسة على اقتحام الثلوج المتراكمة، أما في الصيف، فلدينا خطوط هاتف بين معظم المزارع، ويمكن تحذيرنا سريعًا لو ظهر شخص مريب».

قال شب: «الهاتف لا يختلف كثيرًا عن جهاز البث البلوري الذي صنعته. يمكنني مدّ خط بين مزرعتينا».

«ولماذا؟» سألت بولي.

تشارلي ضاحكًا: «ربما يفكران في العودة لصناعة الجعة».

هزّ بيت رأسه بقوة: «مستحيل!»

تابع شب: «لكن الهاتف قد يكون مفيدًا. تخيلي، إن كان هناك خط، يمكننا الاتصال مسبقًا لتبعدي أمبر عن الطريق قبل عبور النهر».

رقد تيدي يئن تحت قبضة تشارلي، بينما كانت بولي تنتزع أشواك النيص من أنفه باستخدام كماشة.

همست بولي بعطف: «يا مسكين يا تيدي، تظن أنك مثل أمبر، تقدر على القفز على النيّص وأكل شوكه».

قال تشارلي: «ربما كان شب محقًا».

سألت بولي وهي تسحب أحد الأشواك فانكسر قرب الجلد: «أتقصد التخلص من أمبر؟»

تندّى جبينه بالعرق من عناء الإمساك بتيدي، وبلا تردد، قال بنبرة حاسمة: «لا، طبعًا لا. أقصد الهاتف. في يوم ما، لو احتجنا فعلًا إلى المساعدة، قد لا يكون مناداة الجيران بمنشفة بيضاء كافية أو سريعة».

قالت بولي: «لكنهم يأتون بسرعة كافية عندما ندعوهم لولائم السمك».

سعل تشارلي. «كوني جادة، بولي. لسنا شبابًا بعد الآن».

استخرجت بولي شوكة مكسورة أخيرة، رمت كماشتها، وراحت تدلّك أنف تيدي بلطف. قالت: «السنون، الشعر الأبيض، التجاعيد... لا تعني شيئًا. هي فقط علامات للوقت، مثل حلقات الشجر. عمي ديف لويس تجاوز السبعين، ومع ذلك يعيش وحده في بيغ كريك، ويرعى قافلته، ويصطاد الكوجر. وغون ديك أكبر منه سنًا، ومع ذلك يعود كل ربيع من سياتل لينقّب في وارنز». أردفت وهي تضحك: «صحيح أنني أحتاج نظارات لعمل الإبرة الدقيقة، لكنني أزرع حديقة كبيرة. وأنت، ما زالت أصابعك سريعة في لعب الورق والكمان».

قال تشارلي فجأة، بنبرة حادة: «انظري إلي، بولي... انظري إلي جيدًا، وقولي لي، ماذا ترين؟»
فاجأها صوته الجاد. تركت تيدي، وحدقت في وجه تشارلي. كل صباح، عندما تستيقظ بجانبه، كانت تُفاجأ مجددًا بهالات داكنة تحت عينيه الباهتتين، وشعره المتناثر، وكثافة لحيته البيضاء، وبروز عظامه تحت جلده الرقيق. لكنها، خلال اليوم، حين يتحدث ويضحك، يعود لها تشارلي القديم، منقذها في أول ليلة لها في وارنز، بعينيه الزرقاوين كزهر الكاماس، وشعره ولحيته النحاسية، فتنسى كم كان يتعب بسهولة، وكيف قلت زياراته للبلدة، وكيف تحمر وجنتيه بحلول المساء، وكيف أصبحت أدوية الشراب والأعشاب الذي يتناولها عاجزة على تهدئة السعال الذي صار جزءً منه.

أشاحت وجهها. كانت أمبر تزحف في العشب، جسدها الذهبي يتماوج وسط الخضرة، تنقضّ على تيدي، يتدحرجان معًا في كتلة من الأبيض والأسود والذهبي. مشهد رأته بولي يتكرر كثيرًا، وكان يضحكها، لأنها تعرف أن تيدي يراها قبل أن تنقضّ. لكنها لم تضحك الآن.
لأنها مثل أمبر، سمحت لنفسها أن تُخدع، رافضة الاعتراف بما أخبرتها به عيناها، وما خبرته سنونها في رعاية المرضى.
استدارت نحو تشارلي وقالت: «سنخبر شب أننا نريد الهاتف».

الفصل الثلاثون

غابت الشمس خلف جدران الوادي، وألقى توهجها اللاحق لمعانًا فضيًّا على ألواح السقف المبيضة، التي ما زالت تتصاعد منها الأبخرة من زخات مطر مفاجئة هطلت بعد الظهيرة. مسحت بولي يديها عًلى خصلة من العشب الحامض الرطب وهي تضحك، ثم اتكأت على دلو الشحم، نصفه ممتلئ بالكستناء، ودَفعت نفسها إلى الوقوف.

رمقها بيت باستغراب.

قالت ضاحكة: «حين يبدأ المرء في جمع علف الخيل بدلًا من الكستناء، يكون الوقت قد حان للتوقف».

حمل بيت دلوي الكستناء المليء بالشحم. «سآخذها إلى المنزل من أجلك».

ركض تيدي خلف بولي وبيت، وقد بدت مشيته متيبسة متعثرة. أبطأت بولي خطاها، مراعاةً له، ومراعاةً لألم قدميها هي أيضًا بعد يوم طويل من العمل.

سألته: «كيف كان محصولكم؟»

أجاب: «أفضل من الحصاد الأول».

ضحكت بولي. «أنذكر ذلك. اذا زرعتم مبكرًا، فسينبت كل شيء ويبقى مكانه. لديكم من البذور ما يكفي لعشر سنوات».

فتحت له الباب. «قلت إنك ستنقل المنتجات إلى منجم جامبو غدًا؟».

قال وهو يضع الدلاء: «نعم».

قالت: «هل لديك متسع لتحمل بعض الأشياء لأصدقاء لي؟».

«بالطبع».
من الرفوف تحت الدرج، أخرجت بولي قوارير ومرطبانات وقلنسوة محاكة.
«هذا الدهان لجيسي، وهذه المربى لنيللي شولتز، وهذه القلنسوة تعطيها لتيموثي ذي العينين الأربع ليأخذها إلى أمه في ديكسي».
لفّت الأغراض في أكياس دقيق نظيفة، ووضعتها في علبة كيروسين مبطنة جيدًا، ثم اتجهت نحو المطبخ.
قال بيت فجأة: «تمهّلي. أنا لا آخذ سوى بغل واحد، لا قافلة كاملة».
قالت مبتسمة: «أتعني أنه لا مكان لمخلل الملفوف الذي صنعته بالطريقة التي علمتني إياها أختك؟».
قال مسرعًا: «حسنًا، هذا سيعبر النهر، ولم أقل إن القارب لا يتسع له».
ضحكت بولي وأضافت مرطبانين من المخلل إلى العلبة. ثم تبعته إلى الشرفة: «شكرًا لإحضارك البريد. تشارلي يحب متابعة الأخبار».
سألها: «كيف حاله؟».
قالت بهدوء: «في العام الماضي، بعد أن تخلّى عن الحانة وتوقف عن الذهاب إلى وارنز، تحسنت شهيته قليلًا، وخفّ شربه. ظننتُه يتحسن. لكن هذا العام أوشك على الانتهاء، ولم ينزل إلى الطابق السفلي مرة واحدة. وهذا الشهر لم يغادر الفراش إطلاقًا».
قال بيت: «تذكّري، متى احتجتِ إلى شيء، استخدمي الهاتف. لهذا وُضع».
رفعت نظرها إلى السلك الأسود الرفيع الممدود بين المزرعتين، وتذكرت كيف سخرت من الفكرة حين اقترحها شيب قبل أربع سنوات، وكم أصبحت ممتنة لها الآن.

قالت: «أنت وشيب تفعلان أكثر مما يجب. تطلبان لي البذور، والنظارات، والأحذية». ثم أشارت ضاحكة إلى الجدول الذي أصبح يعرف رسميًا على الخرئط باسم (بولي كريك). «حتى إنكما جلبتما المسّاحين لتجعلا مني شخصية مشهورة».

أومأ بيت نحو العلبة المليئة بالهدايا. «هذا ثمن زهيد مقابل كل هذه المفاجآت من وجبات السمك المقلي ووجبات العشاء الشهية».

قالت: «تعال بعد عودتك من جامبو، أعدّ لك فطيرة كستناء، ولحم غزال مجفف تأخذه معك حين تخرج لنصب الفخاخ».

ربت بيت على بطنه: «لا تقلقي. سأفعل».

داخل المنزل، قطّعت بولي ما تبقى من الدجاج لتيدي الذي فقد أسنانه، ثم أخذت مرطبانًا نظيفًا لتحضير ماء الصمغ العربي لتهدئةً سعال تشارلي. سكبت الماء، وسكر الحلوى، والصمغ، ووضعته في قدر ماء على النار وحرّكت. وبينما تنتظر ذوبان الخليط، فكرت في جميع العلاجات الصينية والغربية التي فشلت في علاج سعال تشارلي أو إستعادة عافيته.

وللمرة الثانية تساءلت، إذا كان السعال قد يكون عَرَضًا لمرض أخطر. لو أن لي ديك لم يغادر وارنز، لكانت سألته، لكنه عاد إلى الصين، وأما آكان، الذي حل محله، فلم يكن يملك مهارته. ومع ذلك، جرّبت كل ما جلبه لها من أعشاب ومساحيق، وكل ما اقترحه الأصدقاء والغرباء، وكل الوصفات التي وجدها تشارلي في كتبه.

تصاعد البخار معطرًا من القدر، فسكبت السائل في كوب وصعدت به. عند أسفل الدرج، رفع تيدي قائمتيه الأماميتين متوسلًا. كان أكبر من أن يصعد الدرج، فراح يخمش الدرجات ويئن. انحنت بولي بحذر، دون أن تسكب شيئًا، وداعبت أذنيه وذقنه. «سأعود لأحملك».

كان تشارلي نائمًا. وضعت الكوب على الطاولة قربه، ولمست جبينه وخده الغائر بظهر يدها. كم هزل جسده، وذاب لحمه رغم المهلبية والحساء الدسم، ولم يبقَ سوى جلد فوق عظم. وخده المحمر ظاهريًا، كان يحترق عند لمسه.

فتح عينيه، وأضاءتا حين رآها. جذبها إليه وأشار إلى ألبوم الصور المفتوح على صدره. «انظري».

كانت صورة زفافهما. وقفت ترتدي مشدًا ضيقًا، وفستان داكن وقور، ملامحها جادة تكاد تكون حزينة، ويدها اليمنى على إنجيل عائلة تشارلي. لكن تحت الثوب، حيث لا يراه أحد سواهما، كانت تتوهج بالأحمر القاني، من التنورة الطويلة إلى غطاء المشد المطرز، وسروالها الداخلي المكشكش.

ابتسمت بولي. «لم أجرؤ على ارتداء الأحمر علنًا، لظن الناس بي سوءًا، لكنه في الصين هو لون الفرح والأعراس. لذلك كنت أحاول أن أبدو جادة، حتى لا أضحك وأفشي سرّنا».

قال: «مضى سبعة وعشرون عامًا. خمسون إذا عدنا إلى أول يوم دخلتِ فيه وارنز، تحاولين إظهار الشجاعة، بينما كان الخوف باديًا لكل عين».

هزته نوبة سعال.أسندته بولي وربتت على ظهره، وقدمت له قطعة قماش نظيفة. بصق فيها. مخاط ممزوج بخيوط دم.

شعرت بأن الزمن تجمّد. الدم يعني داء نفث الدم. المرض الذي رأته يقتل رجالًا أصغر من تشارلي بكثير. كتمت دموعها، وانتزعت القماش وألقته في الوعاء الممتلئ بقطع قماش متيبسة، بعضها مخضّب بالدم الجاف الداكن.

قال تشارلي: «ليت الحياة تُحفظ كما تُحفظ الذكريات».

لم تستطع الرد. وضعت الكوب بين يديه، ثم اتجهت إلى النافذة وألصقت جبينها بالزجاج البارد. كان الغسق ينسدل، زحف الظلام بلا هوادة، يبتلع ألوان الأشجار والحديقة وحظيرة الدجاج والشرفة، حتى لم يبق إلا السواد. لمحت وميض ذهبي. هل هي أمبر تسرع عائدة نحو المنزل؟ لكنها ماتت، برصاصة غريب مجهول، مثلها مثل ابن بيرثا لونج الثاني، الجندي في فرنسا، وزوجها جون الذي اختطفه الموت عند نهاية رقصة.

فجأة تألق الوميض الذهبي، وقفز ليتحول إلى لسان من نار، فرأت الغرفة وتشارلي، شاحبين، ينعكسان في لهيب حارق. عوى كلب. صرخت وهي تدور حول نفسها: «لا».

ثم أدركت أن تشارلي هو من أشعل المصباح، وأن عواء تيدي تذكير بوعدها. ولكن حين تناولت الكوب الفارغ من تشارلي، تحطم بين يديها.

غاصت شظية في راحتها. رفعتها إلى شفتيها وامتصت الجرح. كان طعم الدم مالحًا. كطعم الدموع.

الفصل الواحد والثلاثون

خلال أشهر الشتاء الطويلة، ازدادت البقع الحمراء في بلغم تشارلي حجمًا وقتامة، وأصبح سعاله مترسخًا في صدره. غير أنه مع مجيء حرّ الصيف الجاف، خفّ السعال، وعلى الرغم من أنه ظل ضعيفًا لا يقوى على المشي، إلا أن بولي كانت واثقة بأنه في طريقه إلى الشفاء.

وضعت أطباق عشاءه الفارغة على الصينية. «أتعرف أن بروس كروفوت في شيب كريك كان مصابًا بداء نفث الدم مثلك، وجاء إلى نهر السالمون ليموت. والآن صار أصحّ مني. أتدري لماذا؟ لأنه كان يأكل العفن. كل ما يجده من عفن. وخصوصًا عفن الخبز».

وزّع تشارلي أوراق لعبة السوليتير فوق اللحاف الصيفي الخفيف الذي أصرت بولي على أنه يحتاجه. قال: «إياك أن تفكري في إطعامي العفن».

قالت وهي تلتقط وعاء تيدي الفارغ من عند أسفل السرير: «وما الذي أوقف الالتهاب حين أطلق كوكس النار عليك؟».

قال: «ذلك لم يكن أي عفن. كان عفن لي ديك. ثم إنني لم أضطر إلى أكله».

أطلت فوق كتف تشارلي، نصحته وهي تشير: «ضع الثلاثة من البستوني هنا، وهذه الملكة هناك».

قال: «ظننتك ذاهبة إلى الصيد».

ضحكت، وهي ترفع الصينية. رفع تيدي قائمتيه الأماميتين عند حافة السرير، متوسلًا في صمت أن تحمله معها. ربّتت على أنفه: «لا يا تيدي. ابقَ مع تشارلي، أنت أكبر من أن تتسلق الصخور».

أدركت بولي، وهي تلهث، أن الزمن لم يعد يسمح لها هي أيضًا بتسلّق الصخور المحترقة حرارة، وقد كانت قدماها المتورمتان من القيظ تحتكّان بجلد حذائها القاسي. لكن بحلول أغسطس، كان منسوب المياه في جدول بولي قد انخفض، فلم يعد صالحًا للصيد الجيد، ومع وجود بيت في ديكسي، لم تشأ أن تزعج شيب لأمر تافه كأن يجدف بها إلى كروكد كريك.

بعد أن تسلّقت صخرة أخيرة، وضعت قصبة الصيد والمعدات، ومسحت العرق عن وجهها، انتظرت بضع دقائق تلتقط أنفاسها، ثم فكّت رباط حذائها، خلعت جواربها، وغمرت قدميها المحترقتين في مياه نهر السالمون الباردة.

دار التيار السريع حول قدميها مهدئًا، فأغمضت عينيها وأسندت ظهرها إلى صخرة ملساء مشمسة. كانت فروع الصفصاف الرقيقة التي تظلّلها تصنع عالمًا أزرق مخضرًّا باردًا. فراحت في غفوة يملؤها الرضا والسلام.

حين استيقظت كان الهواء قد اشتد وصار منذرًا بالخطر، وكانت الشمس قد بدأت بالفعل بالانحدار في قوس السماء فوق حافة الوادي.

جففت قدميها سريعًا بمئزرها، وارتدت الجوارب والحذاء، ثبّتت الطُّعم في الخطاف، رفعت القصبة وألقت بالخيط. انحنى الخط، برشاقة وثبات، في مياه السالمون البيضاء المتلألئة.

أزعجها وهج الشمس المنعكس على الماء، فنظرت إلى ما وراء الشريط الفضي للنهر، إلى المنحدر قليل الأشجار الصاعد من امتداد الصخور والرمال. وفي فسحة مكشوفة قرب موضع الغزلان، سكنت ثلاث أو أربع إناث وغزال صغير. ثم فجأة، انطلقوا هاربين من الوادي. لمعَت آذانهم الكبيرة وأعناقهم الطويلة النحيلة بين النتوءات الصخرية وهم يختفون بين الأعشاب العالية

وأشجار الصنوبر، تاركين بولي متوترة ومرتبكة الحواس، ومع ذلك كانت متيقظة تمامًا. شعرت بحرارة خانقة تنعكس عن جدران الوادي، سمعت ثرثرة السناجب القلقة، صرخات الطيور، خفق الأجنحة، طقطقة. ثم اشتمت رائحة الدخان النفاذة. جالت عيناها على المنحدرات المغطاة بالأشجار والشجيرات أمامها. كل شيء يبدو طبيعيًا. استدارت. هناك، خلف الغابة الكثيفة التي تحجب البيت، ارتفع الدخان، حلزونًا رقيقًا بريئًا. أهي نار طبخ أشعلها منقّب أو صديق؟ فلماذا إذن فزعت الغزلان والسناجب والطيور؟

انزلقت القصبة من بين أصابع بولي، وانطلقت عائدة فوق الصخور، غير عابئة بالحواف الحادة التي مزقت جواربها وخدشت يديها. ثقلت ساقاها، مثقلتين بالتنانير والخوف. شعرت بألم حاد في راحتي يديها الممزقتين من جراء الصخور. احترق حلقها ورئتاها. خفق قلبها بشدة ،مهددًا بالانفجار من صدرها. لكنها الان تسمع عواء تيدي الحزين، وقرع حوافر الخيل على أبواب الإسطبل، وصهيلها المفزوع، وصراخ تشارلي الأجش، فلم تجرؤ على التوقف.

وأخيرًا تجاوزت الصخور وستار الأشجار، وبلغت المنحدر العشبي المؤدي إلى الحديقة والبيت. كان لسان صغير من اللهب يلامس قمة السقف الأقرب إلى المدخنة. هل اندلع حريق في السقف؟ بجوار ألواح الأرز الأكثر جفافًا من الحطب الذي تشعل به الموقد. ما مدى خطورته؟ ما مدى سرعة انتشاره؟ ماذا يحدث في الجانب الذي لا تستطيع رؤيته؟

تدافعت أفكارها أمام خطواتها، تجلب السلم الخشبي... ذاك القابع في الحظيرة. ثم تجلب الماء من الجدول. لا الجدول بعيد. لتبدأ بماء البرميل أولًا، ثم تقصد الجدول. لا تستطيع فعل ذلك كله وحدها. شيب... يجب أن تهاتفه أولًا. ثم السلم، ثم الدلاء.

تحاول أن تقطع الطريق عبر حقل الخضروات. لأنه أقصر... لكن لا يمكن. يعترضها سياج الغزلان . تجذب الأعمدة بعنف، فإذا بها مغروسة بعمق. البوابة بعيدة جدًا. تحاول المرور من بين الفتحات... لا متسع يكفي. اخترقت شظايا الخشب ثوبها، ولحمها.

«بولي!»

التفتت على عجل. كان شب في قاربه، وقد بلغ منتصف نهر سالمون. لقد علم. إنه قادم. النجدة في الطريق. اندفع الأمل في صدرها، فمنحها قوةً اندفعت بها لاختراق السياج. سحقت قدماها رؤوس الكرنب والقرع والبطيخ. وشقّت طريقها بين صفوف الذرة.

وفجأةً دوّى انفجارٌ تحت قدميها، فألقاها أرضًا. تلاه انفجار آخر، ثم آخر، كما لو كان طلقات رصاص حادة متتابعة. امتلأ فمها وأنفها وأذناها وعيناها بالتراب. تناثرت حولها شظايا الخضروات، والحصى، وتعالت الصرخات. خفقت الحوافر. وتعالى نباح تيدي. وارتفع صياح الدجاج المذعور.

مذهولةً من السقوط، تختنق بالغبار والدخان، جذبت بولي جسدها حتى ارتفعت على ركبتيها. كان الكوخ قد استحال كتلةً من اللهبِ.

صرخت وهي تنهض متعثرة: «تشارلي! تشارلي!»

اندفعت في عروقها طاقة هائلة ظنت أنها فقدتها إلى الأبد، ركضت عبر السياج، واجتازت الفناء، وصعدت الدرج مسرعة، غير عابئة باللهب الذي كان يقفز من حولها.

كان الدخان في الطابق العلوي أكثر كثيفًا أسود. غطت أنفها وفمها بمئزرها، هبطت على ركبتيها، وزحفت نحو غرفة نومهما. احترقت عيناها غير المحميتين، وانهمرت دموعهما. تتحسس طريقها، وجدت السرير. فارغًا.

نادت من خلال مئزرها: «تشارلي، أين أنت؟».

أحرق الدخان حلقها. سعلت. وفوق طقطقة النيران سمعت أنين تيدي، وشعرت بلسانه الرطب على ذراعها. ضمّت الكلب إليها.

سألت: «أين تشارلي؟». شدّ تيدي كمّها. زحفت خلفه حول السرير. إلى جوار الخزانة، حيث المكتب قرب المغسلة. توقف، وراح يسحب بضعف لحافًا مجعدًا بجوار الصندوق المفتوح. ارتمت بولي على الجسد الساكن صارخة: «تشارلي!»

تحرّك تشارلي، مجاهدًا ليبلغ المكتب.

همس: «الأوراق... يجب أن آخذ الأوراق».

قالت وهي تسحب منشفة من الرف فوق المغسلة وتغمسها في إبريق الماء: «علينا الذهاب.لنخرج .الآن». ثم عصرت المنشفة .«ضع المنشفة على فمك بيد واحدة. لف ذراعك الأخرى حولي. و...».

دفع تشارلي المنشفة بعيدًا. «لا. يجب أن آخذ الشهادات».

ترنّحت بولي واقفة. «تشارلي، أرجوك. ساعدني». توسّلت، محاولة رفعه. تساقطت الجمرات المتوهجة والرماد، مشعلة بؤرًا صغيرة واهنة. كان تيدي يقفز كجرو، يصرخ من الألم. وبولي، تختنق بالدخان، ورائحة الفراء المحترق، واللحم المشوي. أفلتت تشارلي لتدوس وتخمد اللهب على الأرض، حولهم.

«بولي؟ تشارلي؟».

صاحت بولي: «شب، نحن هنا». ربّتت على تيدي. «أحضر شب». مزّقت منشفة ثانية وغمرتها في الإبريق. قالت مناولة شيب المنشفة: «تفضل».

غطّى شب رأسه وكتفيه بالمنشفة المبللة. قال، وهو يساعد تشارلي على الوقوف: «أسرعوا. السلم سيسقط في أية لحظة».

قاوم تشارلي. «لا». سعل. «الأوراق. يجب أن آخذ الأوراق».

فتحت بولي درج المكتب بعنف، انتزعت رزمة أوراق ولوّحت بها أمام عينيه. «معي الأوراق». قالت وهي تدسّها في جيب مئزرها.

وبسرعة، غطّت وجهه بالمنشفة المبللة، ورفعت طرف مئزرها، لتصنع حمالة لتيدي.

قال شب: «تشارلي فاقد الوعي، ثقله كالميت».

«أساعدك». قالت بولي بينما تحمل تيدي بيد، وتحاول رفع ساقي تشارلي بالأخرى. لكنها لم تستطع.

قال شب: «اتركي الكلب».

«لا». دسّت المئزر الذي يحوي الكلب في فمها وأمسكته بأسنانها، محرّرة ذراعيها لتتمكن من حمل ساقي تشارلي.

تراجعت نحو الباب. كانت الحرارة في الممر لا تُحتمل. أدارت رأسها لتنظر خلفها، لكن الدخان واللهب شكّلا جدارًا كثيفًا أسود وبرتقاليًا لا يمكن اختراقه.

صرخ شب فوق هدير النار وسقوط الأخشاب: «يسار... يمين. أول درجة».

تكاد تختنق، فكّها يكاد ينخلع من ثقل تيدي، وذراعاها تؤلمها من ثقل تشارلي. تحسّست بولي بحذر حافة الدرجة، أنزلت قدمًا، ثم الأخرى. ثم الثانية. الثالثة.

دفعت الزاوية الغير مريحة قدمي تشارلي إلى جسد تيدي، ممزقة المئزر المشدود. فأطبقت بولي أسنانها بقوة. ثم دفعت ساقي تشارلي بعيدًا عن جسد تيدي، هبطت درجة أخرى، أرجعت رأسها إلى الخلف، سحبت ساقي تشارلي إلى بطنها، وأنزلت تيدي فوق ساقيه. وفورًا، خفّ الضغط عن أسنانها وفكّها ورقبتها.

تابعت نزولها المريع. القدم اليمنى تتحسّس، تهبط. اليسرى تتبعها. اليمنى تتحسّس، تهبط. اليسرى تتبع.

تقرّحت بشرتها من وابل الجمر المتساقط. اغرورقت عيناها. كادت تختنق من الدخان الأسود الخانق، والمئزر المحشور في فمها. صار الثقل على ذراعيها، وفكّيها، وعنقها لا يُطاق. حاولت دفع ساقي تشارلي إلى أحد الجانبين لتتمكن من لف ذراعيها حولهما بإحكام، لكن الحركة كادت تخل بتوازن تيدي المعلق في طيات المئزر المرتخي.

«أوشكنا على الوصول». قالت لنفسها، مشدّدة قبضتها. القدم اليمنى تتحسّس، تهبط. اليسرى تتبع. اليمنى تتحسّس، تهبط.

فجأة انزلقت قدمها عبر الدرج. مزّق الخشب المتشظي جواربها. لسعت النيران لحمها المخدوش. اندفعت إلى الأمام، متشبثة بالدرابزين، ساحبة ساقها من الدرجة المتفحّمة. أخذ تيدي يتلوّى ويعوي ويتشبث. وفجأةً شعرت بالضغط يخف عن أسنانها وفكّيها، ثم عواء طويل حزين. تلاه ارتطام عارضة ساقطة، ووابل من الجمر، ورائحة بشعة لفراءٍ ولحمٍ يحترق.
صرخ شب: «هل أنتِ بخير؟»
نزعت المئزر الذي صار بلا جدوى من بين أسنانها المطبقة، وسعلت سعلة هامسة: «نعم». وبصرامة، رفعت ساقي تشارلي من جديد، وتشبثت بالدرابزين، وانزلقت حتى بلغت أسفل الدرج، تتعثر بين الأخشاب الساقطة، والنيران المستعرة، حتى اندفعت إلى الخارج لتتنفس الهواء. الحياة.
ومطرٍ من الرماد باردٍ كقلبها.

الفصل الثاني والثلاثون

من غرفة النوم الاحتياطية في بيت شب وبيت، لم تكن بولي ترى ما تبقّى من مزرعتها. ومع ذلك، لم تمرّ لحظة واحدة، ليلًا أو نهارًا، خلال الأسابيع السبعة التي تلت الحريق، دون أن تعاودها أحداث ذلك المساء.

منهكين، مختنقين بالدخان والخوف، وقد احترقت ثيابهما، وتفحّم شعرهما، وفاح النتن من جلدهما المتقرّح، حملت هي وشيب تشارلي إلى بر الأمان، أطلقا الخيول والبقرة، ثم اندفعا ذهابًا وإيابًا من الجدول، يصبّان دلوًا تلو الآخر، يدوسان ويضربان ألسنة اللهب التي كانت تتفجّر من جديد.

لم يمتد الحريق إلى ما وراء الحظائر،لكن البيت تحوّل إلى هيكل أسود فوق جمرٍ خامد، ودُفن تيدي، وثمانية وعشرون عامًا من حياتها في رماده.

وماذا عن تشارلي؟ في بقعة الضوء الصفراء الكئيبة التي ألقاها المصباح، كان وجهه الملتحي يطلّ كجثة هامدة فوق رقع الأغطية المستعارة الزاهية، مثيرًا بداخلها أسئلة تطاردها كالأشباح. ماذا لو لم تذهب للصيد ذلك المساء؟ ماذا لو لم تغفُ قرب النهر؟ ماذا لو لم يكن تشارلي قلقًا إلى هذا الحد بشأن الأوراق التي تحميها؟ هل كان سيحاول النزول على الدرج وحده قبل الانفجار، هربًا من سحب الدخان الأسود التي ملأت رئتَيْه المنهكتين؟ أو ماذا لو لم تحاول إنقاذ تيدي، الكلب العجوز عديم الأسنان، القريب أصلًا من الموت؟ هل كان تشارلي سيتخلص حينها من هذا الحشرجة المرعبة التي باتت تشبه أنين الموت؟

قبل ساعة فقط، اشتدّ سعاله حتى بات تنفسه مستحيلًا، أدخلت أصابعها في حلقه، فسمحت للبلغم والدم والعفن أن ينسكب كتلًا متخثّرة، لتفسح الممرات المسدودة. لكنها سرعان ما امتلأت من جديد، وعاد صدره يهتز، ورئتاه تتشنّجان بحثًا عن شذرات من هواء الغرفة الفاسد، الذي يتسرب عبر ممرات أنفه وحلقه المسدودة.

تحسّست بولي زجاجة الزيت بين القوارير المتكدّسة على المنضدة بجوار الفراش. حين أدخلت أصابعها في فمه سابقًا، انطبقت أسنانه لا إراديًا، واضطرت أن تفكّ فكيه بيدها الأخرى لتجبر أصابعها على الدخول. كانت تعرف أنه لن يسمح لها بالمحاولة ثانية، لكن صراعه الدائم من أجل الهواء كان يستنزف قوّته. قامت بتدليك الزيت على تشقّقات شفتي تشارلي المتورّمتين المحمومتين. متذكرة نعومتهما الدافئة، وقدرتهما على الإمتاع، وعلى الحب، وعلى الإيذاء.

فتح عينيه ببطء. رفع ذراعه ومد يده نحوها. همس قائلا: «القوانين لم تتغيّر». كما يفعل كلما أفاق.

أمسكت يده، وكان لحمها ذابلًا، باردًا إلى حدّ أنها كادت تشعر بجاذبية الموت.

«أعرف، لكن لا تقلق. عندي الأوراق. انظر.»

رفعت عقد الزواج، وشهادة الإقامة، وصكّ المزرعة، قرّبتها منه. انحنى إلى الأمام مجهدًا، فاشتدّت الغرغرة في صدره، ثم سقط على الوسائد يلهث. أسقطت بولي الأوراق وأضافت وسادة أخرى إلى الكومة المرتفعة تحت رأسه.

«لا فائدة»، قال وهو يلهث. «أنا أغرق... أغرق في إفرازاتي.»
سعل. أخرجت بولي قطعة قماش نظيفة من جيب مريلتها، ومسحت الدم عن فمه ولحيته، والعرق عن جبينه وعنقه وصدره، تتحسر على فقدانه للقوة، وارتداده إلى عجز طفل، رضيع..
طفل رضيع... ألم تنقذ ذات يوم رضيعًا بأن أخذت قصبة، وأفرغت لبّها لتصنع أنبوبًا أجوف، أدخلته في حلق الطفل، وامتصّت المخاط؟ فلمَ لا تفعل ذلك مع تشارلي؟
ألقت القماش جانبًا. «تشارلي، سأحضر قصبة أصنع منها أنبوبًا يساعدك على التنفّس.»
قبض على كمّها، وعيناه حفرتان مظلمتان من الخوف: «لا. ابقي».
«لن أتأخّر. دقائق فقط».
قال بصوت أجش، غطّت عليه خشخشة صدره وحلقه: «بولي... لا يمكنك إنقاذي».
تلألأت عيناها. «قلت هذا حين أطلق كوكس النار عليك. أنقذتك حينها. أستطيع أن أُخرجك من هذا أيضًا».
انهمرت دمعة من طرف عينها. لمسها تشارلي، وتتبع مسارها على خدّها المتجعّد.قال: «دعيني أرحل».لم تستطع الكلام. اكتفت بمداعبة وجنتيه الغائرتين، وخصلات شعره الأبيض، ولحيته. «تتذكّرين كيف احتضنتني طوال الليل بعد أن أطلق كوكس النار عليّ؟» أومأت.
«احتضنيني الآن». صعدت إلى السرير بجانبه.

«ضميني إليك بقوة... كما فعلتِ يومها.»

أحاطته بولي بذراعيها، تضمّه، وتحوّل صراعه المختنق من أجل الهواء إلى صراعها هي. توتّر صدرها، يكافح. ثم توحّد نفَساهما، و غرقا معًا في ظلام ناعم.

حين استيقظت بولي، كان القمر قد ارتفع، يملأ الغرفة بضوئه الأبيض البارد، محوّلًا جدار الوادي الصخري إلى بياض ناصع كشواهد القبور. من بعيد، سمعت نعيق الغاق، نواحًا كئيبًا فوق هدير السالمون المتدفق. بالقرب، سمعت نداء بقرة لعجلها، وصياح بطة حاد أجشّ. ثم سمعت نباح كلب.

ارتجفت. أصوات ليلية، قالت لنفسها مجرد أصوات ليلية عادية.

ثم فهمت. لم تكن أصوات الحيوانات ما جعلها ترتجف، بل الصمت. السكون المطلق الذي حلّ بينما كانت نائمة.

شدّت ذراعيها حول تشارلي، مطمئنّة إلى ثقل جسده الحقيقي. ثم أسندت وجهها إلى وجهه، وبدأت تتكلّم، تملأ الصمت بالكلمات.

«ذات مرة، منذ زمن بعيد، أعطت إلهة رجلًا حبّة دواء. أخبرته إن ابتلعها، سيعيش إلى الأبد. لكن عليه أولًا أن يقوّي جسده. فأخفى الحبّة في عارضة السقف وانتظر».

«ذات يوم، رأت زوجته الحبّة تلمع في ضوء القمر كأنها لؤلؤة. لم تعرف ما هي، فغلبها الفضول، فوضعَتها في فمها. فاجأها صوت، فابتلعتها. وفي الحال، طارت من النافذة نحو القمر».

«هناك، اشتاقت لزوجها، واشتاق هو لها. فرحمتهما الإلهة وأعطت تعويذة للرجل تمكّنه من زيارة زوجته في اليوم الخامس عشر من كل شهر».

توقّفت، وحدّقت في القمر، دائرة كاملة من الضوء الساطع معلقة في سماء الليل الحالك.

«ولهذا يكون القمر كبيرًا ساطعًا على نحو خاص، ليلة واحدة من كل شهر».

همست: «مثل الليلة...»

«مثل هذه الليلة».

الفصل الثالث والثلاثون

كانت قطع الدجاج والبصل والثوم والبقدونس التي تحتاجها بولي لصنع الكروكيت قد فُرِمت جيدًا منذ زمن، لكنها لم تتوقف عن التقطيع، فما دامت السكين تهوي على اللحم والخضار ولوح التقطيع، فلن تستطيع سماع أصوات الموت؛ أزيز منشار شب، دقات مطرقته وهو يصنع نعش تشارلي، أو رنين المعاول وصريرها بينما كان بيت وشولتس وهولمز يحفرون القبر.

انفتح باب المطبخ، وتسللت برودة أواخر أكتوبر القارسة عبر روائح خبز الذرة والفطيرة الشهية في الفرن. دخل شب بخطوات واسعة، حاملًا لوح طويل ضيّق تحت ذراعه اليسرى، تبِعه شولتس وهولمز يتعثران بثقل نعش من خشب الصنوبر الخام. ثم أغلق الباب.

توقّف الرجال لحظة، ومن خلال خفق السكين على لوح التقطيع سمعت بولي تمتمات تعازي شولتس وهولمز. أرادت أن تشكرهما، أن تقول لهما إنها تقدّر نزولهما من وار إيغل لمساعدتها، لكن الغصّة في حلقها خنقت الكلام. فاكتفت بالإيماء، وزادت من سرعة ضربات السكين على اللوح.

صعد الرجال الدرج. سمعت دوّي أحذيتهم، وارتجّت في أرجاء المطبخ أصوات الصفعات الحادة للخشب والتابوت على درجات السلم والجدران.

في الأعلى،صرّت الألواح الخشبية، ثم ساد الصمت. لقد وصلوا إلى السرير. السرير الذي يرقد عليه تشارلي باردًا، ميتًا.

أرهفت السمع، فالتقطت توجيهات مكتومة وجهدًا جماعيًا، ثم صوت ارتطام الجسد بالخشب وضربات المطرقة.
أرادت أن تصرخ: توقّفوا، تشارلي لا يستطيع التنفّس. لن يستطيع التنفّس. لكن ذلك كان سخيفًا. سخيفًا كظنّها أنها تستطيع تجاهل حقيقة موت تشارلي بتحويل الدجاج إلى عجينة غير صالحة للأكل. بحركة واحدة، جرفت بولي اللحم والخضار إلى وعاء، وأضافت عجينة دقيق بالزبدة، والتوابل، والليمون، ورشّة من النبيذ. تحرّكت يداها آليًا، تشكّل الخليط إلى كرات كبيرة، تمرّرها في فتات البسكويت، وتلقيها في الدهن المغلي. أزّ الزيت، وتناثر، ولسع يديها. لكنها لم تشعر إلا باحتكاك التابوت بالجدران، والتوقّف المفاجئ عند منعطف الدرج، واللعنات المكبوتة.
دخل الرجال المطبخ، أنفاسهم ثقيلة، مثل أنفاس تشارلي. لا... ليس تشارلي. لن يكون هناك تشارلي مرة أخرى.
وضعت بولي الكروكيت في فرن التحمير، وارتدت معطفها وقفّازيها وقبعتها. فتحت الباب، وتبعت الرجال وتشارلي عبر الفناء، حول البيت، وخلف قبو الجذور إلى حيث القبر، كجرح مفتوح في الأرض القاسية.
شعرت بجاف وهشاشة، كأوراق الخريف اليابسة المبعثرة على التراب، وقفت عند أسفل القبر، تتوق إلى عبير البخورٍ المريح، لعله يخفي رائحة الصنوبر الخام، والتراب المحفور حديثًا. تمنت لو يعلو نواح المعزيين وعويلهم، حتى لا تسمع حفيف انزلاق التابوت على الحبال وارتطام الخشب بنتوءات الصخر. وصوت التدحرج الخافت والارتطام المكتوم لتشارلي بداخله.

تنحنح بيت وقال: «الرب أعطى، والرب أخذ، فليكن اسم الرب مباركًا».
ثم قذف كتلةً كثيفة من التراب في جوف المستطيل الضيق.
«من التراب إلى التراب. ومن الرماد إلى الرماد». ثم رسم إشارة الصليب.
تناول الرجال مجارفهم. تساقط الحجر والتراب على الخشب، بصوت ثقيل.
ارتفع غبار كثيف حول بولي، كضباب السخام الناعم الذي غطاها حين كانت تنقب بين بقايا حياتها المتفحّمة مع تشارلي.
هناك قرن الأيل الذي كان معلّقًا فوق باب صالون تشارلي. الموقد ذا الفرن العالي وخزان الماء الذي اشترته حين بدأت بيت الضيافة. الفراش الذي تشاركته مع تشارلي قرابة خمسين عامًا. وعاء تيدي. كمان تشارلي. إبريق القهوة الجاهز دومًا للعابرين والأصدقاء. كلها احترقت، ذابت، تجعدت، وتحولت إلى خردة مشوّهة، تتفتّت تحت مجرفتها كالغبار.
وفجأة، ومن خلال ضباب الغبار والسنين، رأت أباها يفتّت طوب الـ«كانغ»، يخلطه بسخامٍ وكشطٍ أسود، ورماد، وعظام مطحونة وغضاريف، ويجرف الخليط كله إلى حفرة ضيقة التي كانت حفرة السماد الخاصة بهم.
اندفعت إلى حافة القبر نصف المردوم صائحة: «توقّفوا».
تفاجأ الرجال الأربعة، فتوقّفوا.
«ما الأمر؟» سأل شيب.
أدخلت بولي يديها المغطّاتين بالقفازات في جيوبها لتخفي ارتجافهما. قالت: «أنت متعب. مشيت كل الطريق إلى وور إيغل من أجل شولتز وهولمز».
«أنا بخير».

«وشولتز وهولمز أمامهما طريق طويل».

«لا بأس، أوشكنا على الانتهاء»، قال هولمز.

«أنتم جائعون. يجب أن تأكلوا أولًا. اذهبوا وكلوا العشاء الذي أعددته.»

«إنها محقّة»، قال بيت. «اذهبوا أنتم الثلاثة. سأنهي الأمر.»

انتزعت بولي المجرفة من يده. «لا. أنا سأنهي.»

«لا يمكنك وحدك»، اعترض بيت.

«أنا أحرث الأرض. أحفر الحديقة. أستطيع أن أدفن زوجي.»

تبادل الرجال نظرات متسائلة .

«من فضلكم. أريد أن أكون وحدي.»

غادروا على مضض. انتظرت حتى تجاوزوا زاوية قبو الجذور واختفوا. ثم أسندت كامل ثقلها على المجرفة، واستسلمت للإرهاق والحزن.

لوّنت ظلالُ آخر النهار أشجارَ الصنوبر بخضرةٍ داكنة كالحبر. وانطبقت جدرانُ الوادي حول بولي، ساجنةً إيّاها كما سجن القبرُ تشارلي، تخنقها، وتصدّ عنها كل سلوى. وكانت فجواتُ الظلّ المعتمة في الصخور، أصداءَ كئيبةً لذلك الفراغ الذي كان يطبق على روحها ويشدّها إليه.

سمعت وقع خطوات على الحصى، وكشط المجارف في التراب، أدركت أن شيب وبيت قد عادا لإتمام ردم قبر تشارلي. أرادت أن تساعد. أن تجعل تشارلي آمنًا من ذئاب البراري. لكنها كانت متعبة إلى حدّ العجز. فبقيت واقفة، ساكنة تمامًا، كطيور الخواض الطويلة الساقين، ذات الأقدام المكففة والمناقير النحيلة، التي كانت تراقبها هي و تشارلي في الشتاء.

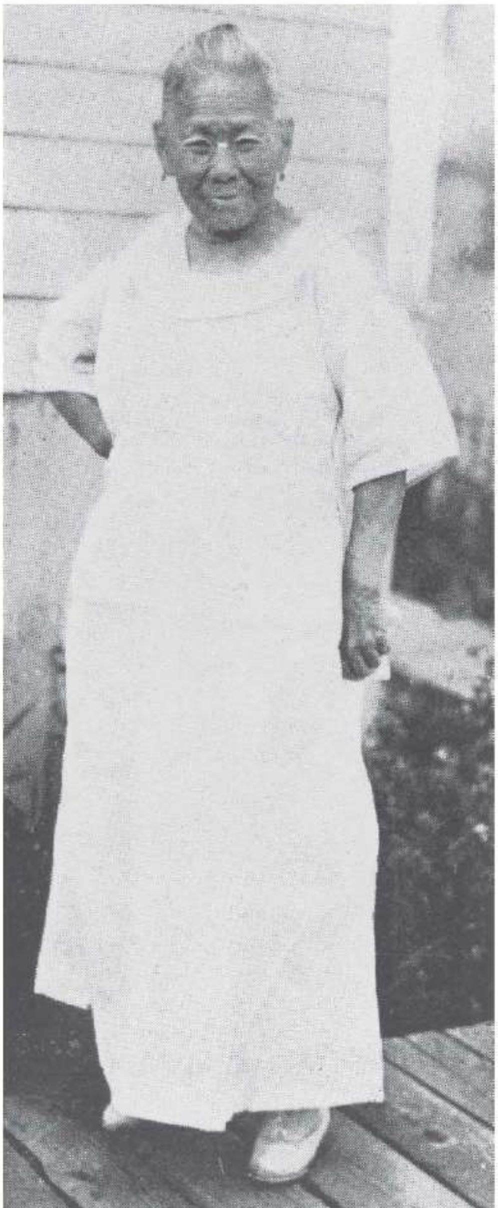
كانت تلك الطيور تقف بلا حركة على صخور ضفة نهر السالمون، أحيانًا منفردة، وأحيانًا أزواجًا، تنتظر أن تستعيد قوتها. رأت يومًا كاملًا يمرّ، بل يومين، قبل أن ينهض طائر منها للطيران. لكن دائمًا، مهما كان خفقها الأول مترددًا وواهنًا، كانت الطيور تدفع نفسها بلا هوادة عائدة إلى التحليق بثبات. ببطء، وبحركة متعثّرة، أجبرت عضلاتها الباردة المتقلّصة على الحركة، وفوق صوت المجارف والتراب المتساقط، قالت: «غدًا سأذهب إلى وارِنز.»

•

الجزء السادس

١٩٢٢-١٩٢٣

Part Six



1922–1923

الفصل الرابع والثلاثون

كانت ثياب الأطفال ـ معاطفهم وقبّعاتهم وأوشحتهم وجواربهم كالخطوط الملونة تمزّق بياض الشتاء الحزين، بينام يشقّون الغابة بزلاجاتهم الخشبية التي صنعوها بأيديهم. بعضهم يتدحرج في الثلج، وبعضهم يهبط المنحدر في مهارة، ضحكاتهم الحادّة تشق الهواء، ووجوههم المجلودة بالريح متوهّجة بنشوةٍ عارمة ونشيطة.

تدحرجت حزمة من الفراء والصوف ولوحين طويلين رفيعين من الخشب المصقول عند قدمي بولي، واستقرّت في كومة من الثلج الناعم قريبًا منها.

سمعت نشيجٌ مكتوم.

نادَت بولي: «هل أنت بخير؟».

اهتزّت الحزمة، تنفض عن نفسها الثلج المتناثر، وانطلق منها ضحك قصيرة: «بخير».

قالت بولي في حيرة: «ومن الذي يبكي إذن؟».

أمالت الحزمة رأسها وقالت: «الصوت من خلف مبنى المدرسة، لا بدّ أنها غاي كاري. دائمًا تختبئ وراء كومة الحطب لتبكي».

بخطوات متثاقلة مائلة، خطت بولي متعثرة فوق الثلج الرمادي البني الذي دكّته عشرات الأحذية الثقيلة، حتى بلغت الممر الضيّق النظيف، بين مبنى المدرسة وكومة الحطب المتراصة التي تكاد تلامس السقف.

هناك، في الظل، انكمشت فتاة لا تتجاوز الخامسة أو السادسة على جذع شجرةٍ ساقط، والدموع تنحدر على خدّيها المتشققين من البرد.
وفوقها بقليل، كان صبي يكبرها بأعوام قليلة لا أكثر، يتوسّل إليها مسترضيًا: «لا فائدة من البكاء. تعرفين أنك لا تستطيعين العودة إلى البيت».
راحَت بولي تُفتّش في جيب معطفها. أخرجت منديلًا، وسنًّا لصنّارة، وقطعًا من الحلوى. قالت: «أأنتما طفلا آل كاري من ساوث فورك؟».
أومأ الصبي، وعيناه معلّقتان بقطع الحلوى في يد بولي المغطّاة بالقفّاز. امتلأت بولي ابتسامة، فقد كانت وجنتاه حمراوين منفوختين كأنّه خبّأ تفاحتين في فمه، وعيناه الواسعتان شفّافتان بالرغبة.
قالت وهي تمد يدها إليه: «إذًا أنت جوني»
أخذ الحلوى وقال: «شكرًا. من أنتِ؟».
كان سؤالًا بسيطًا، عاديًّا، لكنّه آلم بولي أكثر مما كانت تظن. في زمنٍ مضى، كانت لا تحتاج لمثل هذا السؤال؛ يوم كان كلُّ طفل يعرفها كما كانت تعرفهم جميعًا، تعرف تواريخ ميلادهم، وما يحبّون وما يكرهون. أمّا الآن، بعد غيابٍ دام قرابة ثلاثين عامًا، فلم يبقَ من وجوههم إلا القليل، أشباحًا بعيدةً لأطفالٍ كانت قد رعتهم وأحبّتهم. والباقون، غرباء، كغرابة وارنز نفسها، حيث رحل مئات الصينيين الذين كانوا يغسلون الذهب في مرج وارنز، والمرج نفسه حُفِر بفعل المجارف البخارية، وأصبحت مباني المخيّم كلها جديدة منذ الحريق الذي اندلع عام ١٩٠٣.

وضعت قطعة حلوى في فم غاي. لم تُتِح لها الدهشة أن تحتج، فشرعت تمصّها بصوت مسموع، وتضاءل نشيجها شيئًا فشيئًا. جلست بولي على الجذع إلى جوارها، ومسحت عينيها وأنفها، وعدّلت القبّعة الصوفية على رأسها.

قالت لجوني: «اسمي بولي. قبل خمس سنوات، كنت تعزف الكمان مع زوجي، تشارلي بيميس، في قاعة الرقص التي يملكها. أنا لم أكن هناك، لكنه أخبرني. قال إنك تعزف جيدًا».

وخشية أن يجرّها الصبي إلى أسئلة عن تشارلي، سارعت تتابع: «أهذا أول شتاء لك في المدرسة؟».

قال: «ليس الأول لي، بل لغاي. هي من يشتاق إلى البيت».

انسكبت دموع جديدة على خدّي غاي، ومسحتها بظاهر قفّازها الصوفي.

قالت في حدّة يائسة: «لست أشتاق إلى البيت، أنا فقط أكرهها».

قالت بولي: «من تقصدين؟».

أشار جوني إلى المعلمة التي خرجت إلى الساحة. كانت طويلة، نحيلة ذات مظهر صارم ، دقت الجرس، معلنةً نهاية استراحة الظهيرة.

قال جوني شارحًا: «أنا أنزل عند أم فرانسِس، السيدة رودِن، صاحبة الفندق الكبير. أمّا غاي فتنزل عند المعلمة. إنها فظيعة. لا تحسن حتى غلي الماء، وتقول إننا نثير أعصابها. وغاي المسكينة تضطر إلى أن تنام في سريرها، والمعلمة نفسها تشخر، ورائحة نفسها كالثوم، وتشغل كل السرير».

امتلأت الساحة من جديد بالضجيج، ضحكاتٍ وأحاديث وقرقعة زلاجات، ودقّ الأقدام وهي تُنفض من الثلج. ومع صراخ المعلمة في المتأخرين، شعرت بولي بالطفلة ترتعش إلى جوارها، ورأت شفتيها ترتجفان، كأنهما يحجزان سدًّا هشًّا في وجه فيضانٍ جديد من البكاء.

قرصت بولي خدّها برفق وقالت: «أتخيفكِ المعلمة؟».

شدّ جوني على يدي غاي المغلّفتين بالقفّازين وجذبها قائلًا: «هيا، يجب أن نذهب، وإلا وقعنا في المشاكل».

انزلقت غاي عن الجذع متردّدة، وعيناها معلّقتان ببولي، تجرّ قدميها في الحذاءين العاليين المزرَّرين، تخطو خطوتين لتلحق بكل خطوة من خطوات أخيها. همّت بولي أن تلحق بهما، ولكن قبل أن تبلغ باب المدرسة، أغلقته المعلمة في وجهها.

وفي طريق عودتها إلى المقصورة ذات الغرفة الواحدة التي استأجرها بيت لها، راحت بولي تتساءل إن كان حزنها هي على تشارلي وحياتها السابقة في الوادي هو ما يؤثر على حكمها على الأمور، مما يجعلها ترى في دموع طفلةٍ صغيرة شعورًا بخطر لا وجود له.

منذ أن بُنيت مدرسة وارنز، أخذت الأسرُ في المزارع البعيدة ترسل أبناءها إليها ليتعلّموا، مقيمةً لهم مساكن طوال العام الدراسي. كان الفراق قاسٍ على الآباء والأطفال معًا، ولكن لا مفرّ منه، وغاي ـ شأنها شأن أخيها ـ كانت ستعتاد الأمر لو أنّها فقط لم تُضطر إلى العيش مع تلك المعلمة الكالحة الملامح.

توقّفت بولي فجأة. لماذا ينبغي لغاي أن تبقى مع المعلمة، ما دامت تستطيع الإقامة معها هي؟ صحيح أنّ عليهما أن تتقاسما السرير الوحيد في المقصورة، ولكنها أصغر كثيرًا من المعلّمة، ثم إنها ـ وهمهمت ضاحكة في نفسها ـ تكاد تجزم بأنّ نَفَسها لا تفوح منه رائحة الثوم، وأنّها لا تشخر.

ما إن انتقلت غاي إلى بيت بولي حتى جفّت دموعها. في فسحة الظهيرة وبعد انتهاء الدروس، كانت هي وجوني تلتحقان ببقية الأطفال، ينسلون على الزلاجات منحدرين من السفح، يلعبون لعبة «القاعدة» و«الانسحاب»، وفي أواخر العصر وأوائل المساء، قبل أن يعود جوني إلى فندق السيدة رودِن، وقبل أن تستسلم غاي للنوم، كانت مقصورة بولي تمتلئ بالضحك، وبعبق الذرة المحمّصة المدهون بالزبد، وبحلاوة حلوى التافي اللزجة.

مع الأطفال، وجدت بولي أن أكثر الأعمال عادِيّةً مفعمًا بلونٍ جديد وحياةٍ أخرى. كانوا يصبغون البيض بقشور البصل والجوز، ويقطعون عجينة الكعك على هيئة حيوانات وغيوم. وبينما كانت بولي تنظّف دجاجة للعشاء، كان جوني ينفخ حوصلة الدجاجة المنظَّفة ويقذفها في الهواء كأنّها بالون. وحين تُعدّ بولي الخبز، تقف غاي على كرسي، ووجهها ومريلتها القطنيّة المخطّطة بطول الأكمام مكلّلين بطبقات الدقيق، وتصدر صهيلًا خافتًا بينما تغوص يداها كخيول وهمية في جوف العجين، ثم تعودان تَخْرقان سفحه الصاعد من قاع الإناء إلى حافته مرارًا.

كثيرًا ما كان جوني يقطع ميلاً كاملًا سيرًا إلى سلاتر كريك ليستعير كمانًا من أولاد آل آدامز. كان يضمّ الكمان تحت ذقنه، وملامحه مشدودة في وقار التركيز، وما إن ينطلق القوس راقصًا فوق الأوتار بأنغامٍ مبهجة حتى تجد بولي نفسها عائدةً بالزمن إلى أيام تشارلي.

انقضت الأيام الذهبية كأشعة الشمس، فتحوّلت أسابيع، ثم شهورًا، وأسلم الشتاء وجهه للربيع. خُلعت الملابس الداخلية الصوفية الطويلة، والسراويل المُبطّنة، والجوارب السميكة المضَلَّعة، والأثواب الفلّانية الثقيلة طبقةً بعد طبقة، وتُرك الخَبزُ في الداخل، والحكايات، والغناء، ومشاهدة الصور في المنظار المجسّم، ليفسح المجال للطائرات الورقيّة، وصيد السمك، والنزهات. وفي وقتٍ قصير، غدت أسماك السَلْمون المرّقطة، الصغيرة حدّ أن تؤكل، تسبح في أوانٍ زجاجية على حوافّ النوافذ، إلى جوار علب البذور المستنبتة وطرود الأزهار البريّة التي جمعوها في جولات طويلة. وقريبًا، أقرب ممّا تحتمل بولي، ستنتهي الدراسة، ويعود جوني وغاي إلى بيتهما.
مرّرت أصابعها برفق على الطفلة النائمة إلى جوارها. إذا كانت أيامها ولياليها بعد موت تشارلي قد امتدّت طويلةً ومعتمة قبل أن تأتي غاي فتنيرها، فكيف لها أن تحتملها بعد رحيل غاي؟ نهضت فجأة، ومشت حافية عبر المقصورة نحو الموقد، فتحت صمام التهوية، وهزّت الشبك الحديدي. توهج الجمر لامعًا كالذهبِ الزائف، ثم تفتت في صورة رماد. هكذا بدت لها الشهور القليلة التي قضتها مع هذه الطفلة، بينما تُشعل نارًا جديدة.

وقفت برهة تحدّق في اللهب، تمدّ يديها نحوه لتستدفئ به. ثم استدارت، أشعلت المصباح، وحملته إلى الخزانة ذات الأدراج. كانت علبة «بول درهام» المعدنية القديمة التي أخرجتها من تحت قصاصات القماش، في الدرج السفلي باردة الملمس تحت أناملها. أمسكتها في خفّة، متردّدة في فتحها، مع علمها أنّ لا مفرّ من ذلك. وأخيرًا انتزعت الغطاء.

انبعثت رائحة تبغ تشارلي المفضل، ذات المذاق الحلو والمر، في أنف بولي. استنشَقت بشغف، لكن الرائحة كانت أخفّ من أن تشبعها، وسرعان ما تلاشت. شعرت بالغبن، فأخرجت الأوراق التي كانت قد حشرتها في العلبة بعد وفاة تشارلي. تشقّقت هديرًا يابسًا من فرط القدم وكثرة الطيّ بينما تبسطها أمامها. شهادة زواجها. شهادة الإقامة. صكّ المطالبة بحقّ التعدين في المزرعة. الأوراق التي كان تشارلي مستعدًّا للتضحية بحياته من أجلها. الأوراق التي كانت لتتنازل عنها كلّها عن طيب خاطر لو أنّ في ذلك ما يردّه إليها حيًّا.

غطت الدموع حواف الأوراق، تشوشت الكلمات، وغامت في عينيها صورة الطفلة النائمة على السرير. مسحت دموعها في نفاد صبر. بعد أن تعود غاي إلى بيتها، ستذهب إلى غرينجفيل لتزور بيرثا، وتحصل على نظّارة جديدة.

الفصل الخامس والثلاثون

في الركن البعيد من مطبخ بيرثا لونغ، كانت الببغاء «بولي» تتبختر في قفصها، تقفز إلى المجثم، تنفش ريشها الأخضر الذهبي الباهر، ثم تنقر الطبق الفارغ مطالِبة: «بولي تريد الفطور. ماذا تريد بولي للفطور؟ بولي تريد شيئًا للفطور».

كانت بولي، عند المائدة الواقعة بين الموقد وحوض الغسيل، تقطّع حبّات الكرز، فهزّت السكين في وجه الطائر قائلة: «بولي اصمتي، وإلّا ستصبحين وجبة الفطور».

قهقهت بيرثا وقالت: «أتذكرين يوم تذمّر براون من قهوتك، فاندفعتِ من خلف الموقد، ولوّحتِ بساطورك، وصرختِ: "من لا تعجبه قهوتي؟"».

ضحكت بولي، وراحت تقلب الكرز المقطّع في وعاء عجينة البسكويت. «براون يقول لي قهوتي قوية جدًّا. زوجك يقول ضعيفة جدًّا. بعد أن ألوّح بالسكين، كلاهما يقول إن قهوتي هي الأفضل».

قالت بيرثا وهي لا تزال تضحك: «وجودك هنا يعيد إليّ الأيام الخالية». ثم أخرجت منديلاًمن جيبها ومسحت دموعها. « أكاد أصدّق أن جوني وتشارلي ما زالا على قيد الحياة، وأنني لست امرأة بدينة عجوزًا ذات ركبتين تيبستا من الروماتيزم».

قالت بولي: «وأنا سعيدة أنني جئت. في غرينجفيل أجد أصدقاء قدامى كثيرين، وفي الوقت نفسه أشياء جديدة كثيرة لا أعرفها ولم أجرّبها من قبل».

سألتها بيرثا: «ما أكثر ما راق لك؟».

قالت بولي، وهي تُسقِط ملاعق صغيرة من العجين على صينية البسكويت: «لنرَ». كانت هناك إثارة الرحلة بعربة البريد، تلك العربة الجديدة التي تمشي بلا حصان ولا بغل يجرّها. وحفاوة الأصدقاء القدامى. ولطف الغرباء غير المنتظَر وفضولهم: مثل السيد شافلي، محرّر جريدة «آيداهو فري برس» الذي جاء إلى دار جيني هولمز ليُجري مقابلة معها، ومعلّم المدرسة الذي اصطحب ابنته لرؤيتها، وتلك الطفلة، فيرنا، التي قطعت المدينة على قدميها لتلتقط لها صورة وتطرح عليها أسئلة. ثم كانت هناك المتاجر الأنيقة، حيث أيقظ الأصدقاء الكرماء شيئًا من أنوثتها القديمة فاشتروا لها ثيابًا جديدة. والنظّارة الجديدة ذات الإطار الذهبي التي جعلت التلال وحقول القمح تبدو كأنها غُسلت من جديد، ،وجعلتها هي وصديقاتها تبدون أكبرسناً بمرتين. والرحلات إلى دار السينما ، ثم ما هو أروع: «الصور المتحرّكة».

قالت، وهي تكشط آخر ما في الوعاء من عجين: «ماري بيكفورد. لنذهب لمشاهدة فيلم ضوء الحب مرّة ثانية، حسنًا؟»

قالت بيرثا مازحة: «ظننتك وجدتِ ضوء الحب محرجًا».

قالت بولي: «لا بأس، فأنا أغطي وجهي بيديّ، وأنظر من بين أصابعي».

كانت بيرثا تنثر البذور في طبق الطائر حين غلبتها الضحكة، فتساقطت على أرضية المشمّع. خفقت الببغاء بجناحيها بعنف، وصرخت: «فطور بولي. أين فطور بولي؟».

كنست بولي البذور وسكبتها في طبق الطائر. «هاكِ أيها الطائر الأحمق».

قالت بيرثا: «هل تعنين أنك تفضّلين مشاهدة الفيلم على ركوب القطار؟»
اتّسعت عينا بولي: «قطار؟ هنا؟ قال تشارلي إننا لن نرى السكة الحديد أبدًا».
قالت بيرثا: «ليس في وادي السالمون ربما، لكننا هنا نعرف القطار منذ سنوات».
انتزعت بولي مئزرها بسرعة. «فما الذي ننتظره إذن؟ لنذهب».
حين سمع رجال القطار أن بولي لم ترَ قاطرة ولا عربات من قبل، رفعوها إلى مقصورة القيادة، وفتحوا باب صندوق النار. اندفعت من جوف القاطرة نَفْحة من هواء حارّ، فتناثر السُّخام على ثوبها الأبيض النشِف، لكنها لم تُبَالِ؛ كانت من فرط حماسها لا تكاد تشعر بما حولها. طوال إقامتها في أمريكا وهي تسمع عن «الطريق الحديدي». أخبرها تشارلي أن القضبان ممدودة عبر القارّة كلّها، وكانت تعلم أن كثيرًا من الصينيين في وارنز قد ساهموا في بنائها. الآن، وقد آن لها أن تركب القطار أخيرًا، أرادت أن ترى كل شيء: المصابيح الكبيرة الوحيدة في مقدّمة القاطرة فوق حاجز الأبقار، الجوف المستعر الهادر الذي يغذي المحرّكات، عربات الأمتعة المكدّسة بالحبوب والمحاصيل، عربات المدخّنين، عربات النوم، حتى المراحيض الصغيرة الضيّقة. دقّ الجرس، ومع صرخة صفّارة القطار صرّت العجلات الحديدية على القضبان، وارتمت هي وبيرثا إلى الخلف فوق المقاعد الخضراء ذات القطيفة الخشنة. الأشجار والجبال وحقول القمح والخيول والعربات راحت تنزلق خارج النافذة في خطوطٍ ضبابية.

صرخت بيرثا فوق صوت إيقاع العجلات الإيقاعي: «هكذا تكونين قد جرّبتِ كل شيء».
ردّت بولي صارخة: «أبدًا. إنما أبدأ الآن. بعد أن أعود إلى وارنز، سيأخذني نزيلِي القديم، جاي تشيزِك، وزوجته إلى بوايزي».
كانت بوايزي مدينة رائعة بًناطحات سحاب شاهقة، مزودة بصناديق متحركة تحل محل السلالم، وعربات ترامً، ومصابيح غاز وكهرباء، وحديقة ضخمة تضم عجلة دوارة، ومصنع ألعاب، وسكة حديد مصغرة، ومزرعة نعام، وسينما ،ومسبح داخلي يسبح فيه الرجال والنساء شبه عراة، في حوض سباحة ضخم مغلق ودافئ.لكن، بينما كانت بولي تذرع غرفة فندق إيداهو بسجادتها السميكة، لم تفكر في أي من هذه العجائب. بل عادت إلى ذهنها محادثة سمعتها بالصدفة.

كانت في عربة الترام عائدة من «الحي الصيني» بعد زيارتها لبوب رقم ٢ الذي عمل عند بوب كايتون في وارنز، حين التقطت أذنها صوت خفيض مشحون لرجلين صينيين:
قال الأول: «حين كنت شابًا، لم يكن في قريتي طعام. اضطررتُ للمجيء إلى أمريكا. لكن الصين اليوم غير الصين الأمس. ألا تغيّر رأيك وتعود معي؟»
قال الثاني: «لا يا عمّي. وطني هنا».
قال الأول: «لقد عملت في هذه البلاد أربعين سنة من سنواتي الستين، ومع ذلك لا أُسميها وطنًا».

قال الثاني: «أما أنا فقد وُلدت هنا».

قال الأول: «شيخ مثلي يعود إلى الصين ليموت. أمّا أنت فشاب، تستطيع أن تعود فتبني بلادنا، وتعينها على أن تقوى».

قال الثاني: «بلادي وبيتي هنا».

هَمَسَت بولي لنفسها: «وأين هو بيتي أنا؟».

ليس في الصين، فالصين ذكرى باهتة؛ ولا في وارنز؛ ولا في غرينجفيل؛ ولا في بوايزي. فأين إذن؟

ظلّ السؤال يطرق ذهنها خلال جولتها في متاجر المدينة الكبرى، وفي منتزه «الوايت سيتي»، بل حتى وهي في دار العرض تشاهد فيلمًا للمتجوّل القصير القامة، الغريب الهيئة، المسمّى «تشارلي». كان شاربُه الأسود الصغير وقبّعته الدائرية وحركاته الطريفة يدفعانها إلى الضحك، غير أنّ في داخله حزنًا محمومًا، كأنّه لا يجرؤ على التوقّف.

تمامًا مثلها هي.

أفزعها هذا الخاطر المباغت، فتوقّفت عن المشي. شعرت أن الغرفة، بنارها المتّقدة وستائرها الثقيلة وأثاثها المتراصّ، انغلقت عليها، فرفعت مزلاج النافذة وأطلت. كان الليل قد انتصف، لكن الشارع والمباني مضاءة بقوّة، تمحو النجوم من السماء، ولئن بدا وهجٌ خافت من ضوء القمر، فإنّ علوّ العمائر كان يحجب القرص نفسه. وفجأة، باغتتها حنين جارف إلى البيت. غمرتها موجة عارمة من الشوق اجتثّت جميع مخاوفها.

عندها، عرفت بيقين إلى أين تنتمي.

الفصل السادس والثلاثون

أيقظها تغريد الطيور. كانت قد وصلت في الليلة الماضية متأخرة، لا ترى أكثر من ظلال عميقة ونثار من ضوء النجوم، لكنّ عناق الجدران الصخرية للوادي، وهدير نهر السالمون المرحِّب، أخبراها أنها في البيت، فغفت وهي تحلم بحفيف الريح في سيقان الذرة العالية المعافاة، وبرائحة التبن المحصود تَوًّا، وطعم الخبز المصنوع من قمحها هي، والحليب الدافئٍ من بقرتها هي. والآن، متلهِّفة لأن ترى المزرعة في ضوء النهار، ألقت شالها جانبًا، وتمطّت.

كان مشيُ السبعة عشر ميلًا في الممر الهابط الوعر من وارنز، والليلُ الذي أمضته على أرض القبو الباردة الصلبة، قد استنزفا من قوتها أكثر مما ظنّت. عضلاتها المتيبِّسة المؤلمة تمرّدَت على الحركة. ولكنها لم تجزع، بل استمرأت بعض الشيء ذلك التريّث الموصول بالترقُّب، وأخذت تفكّ العقد من ذراعيها وساقيها رويدًا، ثم نهضت ودَفعت الباب.

في البداية، خُيّل إليها أنّ عينيها، المبهورتين بضوء الصباح الفجائي، تخدعانها. ثم أدركت أنها هي من خدعت نفسها.

لقد رحلت مزرعة بولي شأنها شأن تشارلي، مضت إلى غير رجعة. هوت تنتزع الأعشاب المبتلّة بالندى والعشب اليابس من حولها في غضب.

صاح صوت من فوقها: «بولي! ما الذي تفعلينه هنا».

رفعت رأسها إلى بيت، مذعورة، ناسية أنها في الليلة الماضية قامت بمرح بنشر منديلها الأبيض على شجيرة مطلّة على النهر، إشارةَ أنها عادت.
قال: «لمّا رأيت إشارتك القديمة طلبًا للنجدة لم أصدّق عينيّ، لكني ظننت أنّ عليّ أن أتبيّن الأمر. متى جئتِ؟ هل حدث شيء؟».
أطبقت أصابع بولي على التربة السوداء تحت الأعشاب والأغصان المقتلَعة. شمّت رطوبتها وثقل خصوبتها، وأحسّت بدفء الشمس وهي تنحدر على جدران الوادي المكسوّة بالصنوبر، وبهدير السالمون الهادر في الأعماق.
قالت في هدوءٍ حاسم: «لفترة طويلة... نعم. أمّا الآن، فلا. ليس بعد اليوم».
تمتم بيت: «بولي، كلامك غير مترابط».
ابتسمت. «أتدري، بعد أن مات تشارلي، كان الوجع في داخلي شديدًا حتى ظننت أنّ عليّ أن أفرّ. كنت مخطئة. تشارلي ليس في هذا الوادي فقط، هو في داخلي أنا، وحيثما ذهبتُ سواء إلى وارنز أو غرينجفيل أو بوايزي ، يكون هناك. حاضرًا وغائبًا في آن. وهذا ما يؤلم. لكن لا شيء يغيّر هذه الحقيقة، هذا الوادي هو بيتي. بيتنا. لذلك عدت».
لوّح بيت بذراعيه في مدى واسع، مشيرًا إلى الأسوار التي هدمتها الدببة، والحديقة التي داسها الزمن حتى عادت إلى باطن الأرض، وقنّ الدجاج المتهدّم وقد غطّته عُرشات حَبّات الهوب، ثلاثون عامًا من العمل ابتلعها الوادي في عامٍ واحد.
قال بأسى: «لم يبقَ شيء».
فتحت بولي كفّها، كاشفةً عن التراب الأسود الغني. قالت: «لا يزال عندي الأصل... أنا أملك الأرض».

قال بيت برفق: «أنت تعرفين كم من الجهد استنزفته تلك المزرعة حتى صارت ما كانت عليه».

أتمّت الجملة نيابة عنه: «وتعرف أنّي عجوز لأبدأ من جديد».

قال: «نعم».

قالت: «أدرك أنّي لن أملك مزرعة كبيرة كما في السابق، ولا حاجة لي بها. كل ما أريده بيت صغير، ومساعدة في الأعمال الشاقة».

مدّت يدها إلى جيبها، وأخرجت علبة «بول درهام» المعدنية القديمة الخاصة بتشارلي، فتحت غطائها بعناء، واستلّت منها ورقة مطويّة.

قالت: «هذا صك امتيازات تشارلي بحقّ التنقيب عن المعدن في عشرين فدّانًا. ساعدني في بناء بيت صغير وبستان متواضع، وحين أموت، ادفنّي إلى جوار تشارلي، ثم يكون هذا الصكّ لك، وتستطيع أن تُثبت الأرض باسمك».

قال بيت بخشونةٍ تخفي التأثّر: «لستِ مضطرّة إلى فعل هذا».

ابتسمت بولي وقالت: «أتظنّ أنّي حين أموت أستطيع أن أحمل الأرض معي؟». فردّت الصكّ، ونشرته أمامه. «أتوافق؟».

لبرهةٍ رفرفَت الورقة في نسيم الصباح. ثم مدّ بيت يده إليها، طواها بتأنّ، ووضعها في جيبه.

قال: «أهلا بكِ في بيتك البيت».

الجزء السابع

١٩٣٣

Part Seven



1933

الفصل السابع والثلاثون

قاوت سمكة السلمون بعنف، متشبثة بالخيط الذي حكم عليه بالموت. وفي الوقت نفسه، كانت بولي، المتمركزة باحكام خلف صخرة، تدير بكرة الصيد بسرعة وتُرخِي الخيط أكثر. ثم، في اللحظة المناسبة تمامًا، تشد الخيط حتى يستقيم من جديد. قوامت السمكة بضراوة، مهدِّدة بقطع تلك الشعرة الرفيعة التي علق بها، وعادت أصابع بولي تبرُع في تدوير البَكَرَة لتنفيس التوتّر. ومثل قطةٍ تعبث بفأرها، ظلّت تلاعب السمكة حتى أُنهِكت فلم تَعُد تُبدي مقاومةً، حين بدأت تجمعُ خيطها.

ضحكت حين رأت التفاوت بين سمكة السلمون التي تخيّلتها، والسِّكْوَا الصغيرة ذات العشر بوصات المتدلّية الآن من طرف خيطها. نزعت السمكة عن الخطّ ورمت بها في السلة مع الأسماك الخمس التي اصطادتها من قبل.

قالت مخاطِبة السمكة: لا بأس. أنتِ صغيرة وعظامُك كثيرة، لكنّك مناسبة تمامًا لعجوز مثلي. رمت بما تبقّى من الطُّعم في «جدول بولي»، وحملت السلة والصنّارة، وراحت تصعد المنحدر العشبي نحو الكوخ الذي بناه شِبّ وبيت لها. لم تكن المسافة بعيدة، لكنها صعدت ببطء، تُمعِن النظر في السماق البري، وزهور الحوذان، والصنوبرات الشاهقة، وأشجار الشوح، كما يحدّق المرء في وجه صديقٍ قديم، فالسماء الزرقاء المظلِّلة، وجبهة الصخر، والمنحدرات المُشجَّرة، كانت تختزن عددًا لا يُحصى من الذكريات؛ ذكرياتٍ حاولت الهرب منها، ثم تعلّمت أن تحبّها، تُقلِّبها في أحاديثها أو في وحدتها، كما كانت هي وتشارلي يتصفّحان صور الألبوم الذي التهمته النار.

جلست على عتبة الشرفة لتلتقط أنفاسها. كانت أشعة الشمس تنهمر عليها، تتغلغل عبر ثوبها الصيفي، المبطن بقماشٍ قطنيّ دافئ، الذي خاطته لوقت الحرّ. سرى دفء الشمس في مفاصلها، يخفّف من الروماتيزم الذي استقرّ فيها، فهنّأت نفسها مرة أخرى على اختيار موضعٍ تستقبل نوافِذُه الشمسَ ما إن ترتفع فوق حافة الوادي، وتودّعها من شرفتها في آخر ما تبعث به من ضياءٍ عند الغروب. أغمضت عينيها، تستدفئ كقطة راضية حتى عادت أنفاسها إلى انتظامها. ثم تناولت السلة والصنارة ودخلت.

كان بيت يقول إن الكابينة لا تكاد تزيد على بيتٍ للدمى؛ مساحة الطابق السفلي لا تسع إلا للموقدَ الخشبيَّ الدَّخّان الذي هددت مرارًا باستبداله، وعدة كراسٍ ومائدة صنعها شِبّ، وفي العلّية حيث لا أحد يستطيع الوقوف قائمًا إلا هي، يوجد سوى سريرٍ وخزانة، من صنع شِبّ أيضًا. ولكن مع ستائر الشِّفان الموشّاة بالدانتيل التي خاطتها للنوافذ السُّفلى، وحصير الخِرَق الذي نسجته بيديها، وصورة تشارلي، وحزم الأعشاب والتوابل المعلَّقة، صار المكان بيتًا كاملًا، وقد عاشت فيه راضيةً مطمئنة عشر سنين.

دون أن تنتظر أن تألف عيناها العتمة، تحسّست الهاتف الذي ركّبه شِبّ. رفعت السِّماعة، وأدارت المقبض، وصاحت في البوق:

«شِبّ؟ كم بيضة حصدتَ اليوم؟».

أجابها، فقالت مزهوّة: «ستّ فقط؟ أنا عندي عشر». ثم أردفت: «وكم سمكة اصطدتَ؟».

«ولا واحدة؟ أنت لا تصلح للصيد»، ضحكت. «لا بأس، أنت وبيت تعالوا عندي، أطهو لكم سِكْوَا السمك الذي اصطدتُه اليوم، موافق؟».

«حسنًا، أراكم لاحقًا».

علّقت السِّماعة وعادت إلى الحديقة لتقطف ما تحتاجه من الخضر إلى جانب السمك. مع كل سنة تمضي، كان حجم حديقتها يتضاءل بقدر ما تخور قوّتها. لم تَعُد تزرع اليوم سوى نصف فدّان، ولم يَبقَ في قنّ الدجاج إلا حفنة من الطيور. لكنّ بيت وشِبّ كانا يجلبان لها صيد البرّ، فصار عندها ما يكفيها ويكفي زوّارها، من قدامى الأصحاب والجُدُد. تأمّلت صفوف الشِّمام، والفاصولياء، والذرة، والكرنب التي انحنت تحت قيظ أغسطس. قبل أن تقطف شيئًا، كان لا بد من سقيها.

ولأن جلب الماء من الجدول أصبح مشقّةً متزايدة، لذا صارت تسقي بالتقتير؛ مغرفةً عند أصل كل نبتة، كما علّمها أبوها. وفي آخر كل صف، كانت تستقيم ببطء، تدلّك أسفل ظهرها بقبضتها. ولما بلغت منتصف الحقل، أحسّت برأسها مثقلًا منتفخًا. نقاط سود بدأت ترقص أمام عينيها، لكنها مضت عنادًا، تتكئ على إرادتها. تراجعت النقاط قليلًا ثم اندفعت عائدة، تحولت إلى بقعٍ حمراء وذهبية، ثم إلى سوادٍ خالص.

ثم لم يَعُد هناك إلا السواد.

ثِقَلٌ مخدِّر أطبق على جفنيها حتى لم تَعُد ترى، غير أنّ الطنين المتواصل بدا لها كأزيز إحدى تلك الآلات الطائرة الجديدة التي باتت تحلّق أحيانًا فوق الوادي. خشيت أن تفوتها فرصة النجدة. فقد كان الأزيز يعلو فوق هدير النهر وتصادمه. أدركت أنّ عليها أن تُشير إليها. فتحت فمها لتصيح، لكن صوتًا لم يخرج. حاولت أن تنهض، أبى جسدها الطاعة. علا الأزيزُ، ثم خفت، ثم علا، ثم خفت من جديد، حتى تلاشى تمامًا، ولم يبقَ إلا هدير السالمون المألوف.

ثم سمعت أصوات. صُراخ. أحسّت بنفسها تُرفَع من الأرض، تُشدّ، تُحزَم كما تُعَدّ دجاجةٌ للذهاب إلى السوق. صرخت: «لا، يا أبي، لا». حاولت مقاومة الأذرع التي تُمسك بها. «أرجوك، يا أبي، هناك طريقة أخرى. لا أريد أن أذهب». كان صوتًا دافئًا طيّبًا يهمس بكلمات مطمئنة، لكن القبضة التي أمسكت بها كانت محكمة. عرفت أنها خاسرة، وأنّ قوتها أوهن من أن تنازل قوّته. ومع ذلك ظلّت تقاوم، حتى غمرها السّواد من جديد.

انتابتها هزّةٌ مفاجئةٌ عنيفة أطلقت في جسدها سهامًا متوحشة من نار، حطّمت ظلام المخدِّر الذي كان يغمرها. افتقدت الخدر كما يُفتقد حبيبٌ ضائع. لِمَ هذا العذاب المبرِّح، وقد استَسلمت للصراع منذ زمن بِعيدٍ؟ أرادت أن تسأل. لكن لسانها، المتورّم الثقيل، خانها، فظلت تعاني في صمت، تتوق إلى عودة الظلام ليخمد الألم. كان الألم يأتي ويغيب، كأمواجٍ تنكسر على الشاطئ؛ مرّة سخية، ومرّة شحيحة، ومرّة لا تتجاوز حافّة الوجع، تعد بالراحة وتؤخّرها بشكل قاس.

تألّق نجمٌ في السماء، فضّيًا ساطعًا، فأخذت تبحث بعينيها عن وميض القمر.

همست: «تشارلي؟».

قال صوت: «لقد مات يا بولي. وأنت تعلمين هذا».

جاهدت لتفتح عينيها. فوقها كان وجه رجلٍ أبيض، جلدتْه الرياح، مكسوًّا بلحية كوجوه آلافٍ من قبله، إلا أنها رأت ما لم ترَه في سواهم؛ لمعان من الفضة حاد الحواف يتتلألأ على صدره . كانت نجمة الشريف.

همست بشفاهٍ مشقّقة: «الأوراق... معي أوراقي».

قبض على ذراعها. ومضت الفضة، انغرست في جلدها، وغابت عن الوعي.

الفصل الثامن والثلاثون

ثقلٌ هائل انطبق على صدر بولي وأطرافها، حتى صار تنفسها عسيرًا، بل مستحيلًا. قالت في نفسها: هكذا إذن يكون الموت؛ سجنٌ في صندوق ضيّق لا هواء فيه، تعلوه ستة أقدام من التراب. غير أنّ الشك سرعان ما انبثق في صدرها: لو كانت ميتة حقًّا، أكانت لتشعر بهذا الألم؟ صعد الشكّ من الأعماق كهَبَواتٍ غليظة، وانفجر هلعًا. لا بدّ من خطأ. ظنّوها قد ماتت، فواروها التراب قبل الأوان. راحت ذراعُها تضرب في الهواء، حركات واهنة لا تكاد تمسّ الجدران التي تطبق عليها.

«بولي! بولي! أتسمعينني؟».

كبحت بولي عنان خوفها الهائج بصعوبة لتستطيع أن تفكّر. كانت قد أوصت شِب وبيت أن يدفناها إلى جوار تشارلي، عند ضفة النهر الذي أحبّاه معًا، غير أنّ الصوت الذي يناديها لم يكن صوت أي منهما؛ كان صوتًا مُلحًّا لامرأة.

حثها الصوت بإلحاح: «استيقظي يا بولي. هيا، استيقظي الآن».

استيقظ؟ إذن فهي ليست ميتة، ولا مدفونة تحت التراب. جاهدت لتفتح عينيها. انفتحت الجفون لحظة أمام وهجٍ قاسٍ مؤلم، ثم أطبقت من جديد.

«هكذا، أحسنتِ. هيا، تستطيعين ذلك».

استعانت برموشها لتقي عينيها من قسوة الضوء، وراحت تفتحهما شيئًا فشيئًا. فوقها انحنت امرأة قويّة ضخمة الجسد، شعرها البنيّ مجعّد، تشجّعها قائلة: «هكذا. افتحيهما أكثر قليلًا. هيا».

ببطء فتحت عينيها، لترى جدران شاحبة الزرقة، سقف أبيض، موقد حطب، كرسي، ستائر ترفرف في نسيمٍ بارد، وروائح نفّاذة من المطهّرات والأدوية.
قالت بصوت مبحوح غريب في أذنها كما لو كان صوت شخصٍ آخر: «مستشفى؟».
ابتسمت المرأة وقالت: «أنتِ في مستشفى المقاطعة في غرينفيل. اسمي إيفا ويفر، ممرّضتك».
طفت شظايا من الذاكرة إلى السطح، لامعة حدّ العمى: رجال، خيول، ألم، ظلام، شِريف، خوف، صفّارات. حاولت بولي أن تجمع القطع، لكنها ما إن قبضت على واحدة حتى أفلتت منها أخرى.
همست: «متى جئتُ؟».
سوّت الممرّضة الملاءة فوق جسد بولي، تشدّها حتى تستقيم. «لكِ هنا ثلاثة أيّام، في وقتٍ ما كدنا نفقدك، لكنّك الآن ستصبحين بخير».
ثلاثة أيام! عادت بولي تُصارع ذاكرتها. شذرات تتلألأ وتومض ثم تنطفئ، تجرفها موجاتٌ سوداء لا تزال إلى الآن تهدّد بابتلاعها.
قالت: «لا أتذكر».
أوضحت الممرّضة: «لا بدّ أنّكِ كنتِ تعملين في حديقتك حين ألمّ بك المرض. السيد شِب والسيد كْلينكهايمر وجداكِ هناك مغمًى عليك. حملاك على ظهور الخيل إلى منجم وور إيغل، ولا أدري كيف اجتازا تلك الدروب الوعرة من غير أن يتدحرج أحدكم إلى حتفه. ثم جاء بكِ نائب الشريف والممرّضة في سيارة الإسعاف التي يملكها غلين إيلور».

حرارة، عطش، إجهاد... أهي ذكريات أم واقعٌ ما يزال؟ كان رأسها يَئِنّ من الوخز. تمتمت: «متعبة».

انحنت الممرّضة فوقها، يتهدّل طقمها المنشى بخشخشةٍ حادّة. قالت:«طبيعي عودي إلى النوم واستريحي. لكِ زوّار كثيرون يسألون عنك. السيد كْلينكهايمر، السيد شِبّ، السيدة هولمز، السيدة شولتز، السيد تشيزِك، السيدة لونغ...».

تلاشت الأسماء واحدًا بعد آخر، فيما كانت بولي تهوي إلى نومٍ عميق.

وحين فتحت عينيها من جديد، كانت شمس العصر تصبّ نورها عبر النافذة المفتوحة. وفيما كانت ابنة الممرّضة تسندها، عمدت السيدة ويفر إلى نفش الوسائد خلف ظهرها لتعينها على الجلوس وشرب مرق اللحم الذي أحضرتاه. أمسكت بولي بالوعاء، غير أنّ شهية الطعام كانت غائبة، فعدلت عنه إلى النافذة، تطعم عينيها زرقة السماء الصافية، واتساع السهل الذهبيّ تحيط به التلال الضخمة، والجبال المترامية من ورائها.

هناك، عند ما وراء السور الخشبي الأبيض مباشرة، وقعت عيناها عليهم: ألواح من الغرانيت الرمادي، شواهد قبور، مقبرة. تراجعت كلمات الممرّضة إلى السطح: «أنتِ في مستشفى المقاطعة». مستشفى الفقراء المعدمين، حيث ينتهي المطاف بالرجال والنساء المُسنّين في انتظار الموت.

تذكّرت خبيئة حبيبات الذهب الصغيرة، وأزرار الذهب التي صنعها لها تشارلي، والتي كانت تنقلها من ثوبٍ إلى ثوب. غمست الملعقة في الحساء وشرعت تشرب. ليست معدمة، ولن تموت هنا.

قالت للسيدة ويفر: «ضعي حذائي بجانب السرير».
«أنتِ ما زلتِ أضعف من أن تمشي».
قالت: «اليوم نعم، لكنني أريد الحذاء في مكانه عندما أستطيع».
جاء الطبيب. تتابع الأصدقاء القدامى والغرباء الفضوليون، يبتسمون ويشدّون من أزرها، والأيام تمر حتى تصير أسابيع، والأسابيع تمتدّ حتى تُشبه الشهور. والحذاء عند جانب سرير بولي لا يمسّه أحد.
قالت لها برثا: «ستشفين قريبًا».
نظرت بولي إلى الحذاء عند قدميها، وإلى المقبرة التي غطّاها الثلج خلف النافذة، ثم قالت: «أنا أكبر من أن أشفى».
قالت برثا: «لا تستسلمي الآن».
ربّتت بولي على يد صديقتها قائلة: «بعد أن أُصيب تشارلي بالرصاصة قلتِ لي الكلام نفسه. ساعدتِني يومها كي أُنقذ حياته. أعلم أنّكِ تريدين أن تفعلي الشيء ذاته الآن، لكنّ ذلك لم يَعُد ممكنًا. كنّا يومها شابتين، أمّا اليوم فقد شِخنا. عليّ أن أذهب إلى العالم الآخر لكي أستعيد عافيتي».
اشتدّت قبضتها على يد برثا وأردفت: «عندما أموت، ساعديني في الوصول إلى شِب وبيت. ذكّريهما بأنني أريد أن أُدفن إلى جوار تشارلي».
قالت برثا: «سأفعل».

خاتمة

في السادس من نوفمبر سنة 1933 أُسدِل الستار على حياة بولي بيمِس، فماتت في مستشفى مقاطعة أيداهو في بلدة غرينفيل. وكانت الثلوج يومها قد سَدّت كل الدروب المؤدّية إلى نهر السالمون، حتى استحال الوصول إلى الوادي، وتعذّر العثور على تشارلز شِبّ أو بيت كلِنكَهايمر. وهكذا تولّى أعضاء مجلس مدينة غرينفيل حمل النعش، ودُفنت بولي في المقبرة التي كانت تراها كل يوم من نافذة غرفتها.

أما حبيبات الذهب التي ادّخرتها، وأزرار الذهب التي صاغها لها تشارلي، وسائر ما خلّفته من متاع، فقد تبرّع بها بيت كلِنكَهايمر لمتحف القدّيسة غيرترود في كوتنوود بولاية أيداهو، وهو ما يُعرَف اليوم بـ «المتحف التاريخي في دير القدّيسة غيرترود». وقد قامت شقيقته، التي آلت إليها تركته سنة 1970، بشراء شاهد حجري لقبر بولي.

حين قمتُ بأوّل رحلة بحث إلى هناك، كان جيم كامبِل قد أصبح مالك «مزرعة بولي». وقد أسره ما في سيرة بولي من قوّة وعنادٍ في الحياة، فأخذ يعمل على إعادة رُفاتها إلى الوادي الذي أحبّت، وعلى ترميم مقصورتها الخشبية تمهيدًا لاقتراح تسجيلها في «السجلّ الوطني للأماكن التاريخية». وفي سنة 1987 رأت وزارة الداخليّة في الولايات المتحدة أنّ هذه المقصورة معْلَمٌ مهمّ من معالِم تراث أيداهو، وعند افتتاح المتحف أعلن الحاكم سيسِل أندروس: «إنّ تاريخ بولي بيمِس جزء عظيم من إرث أيداهو الوسطى. إنّها رائدة هذا الإقليم القاسي على ضفاف نهر السالمون».

على بُعد خطوات من مقصورتها ينتصب شاهدٌ يحمل الكلمات الآتية:

POLLY BEMIS

Sept. 11, 1853 – Nov. 6, 1933

وتحت هذا الحجر ترقد بولي، في الضفة المقابلة لتشارلي، يفصل بينهما مجرى النهر الذي جمع مصيرهما.

التنقيب عن الذهب

لم تخلّف لالو ناثوي ـ التي عُرفت لاحقًا باسم بولي بيمس ـ أيَّ أثرٍ مكتوب، ولا فعل ذلك أقرب الناس إليها، تشارلي بيمس. لذلك أخذتُ أفتّش عنهما في مذكّرات الروّاد، والصحف، والصُّوَر الفوتوغرافية، والوثائق. كنتُ، وأنا أنخل ما أعثر عليه، أُعيد النظر في كل شذرة مرارًا، أُقَلِّبها على وجوهها، كمن يغربل الرمل في مقلاة الذهب بحثًا عن ذرة لامعة.

منذ البداية، لمعَت أمامي «شهادة الإقامة» الخاصة ببولي، مع شهادة زواجها، كقطعتين نفيسَتين. فقد نجتا من حريقٍ مدمِّر، فلا بد أنّهما كانتا عزيزتين على بولي وتشارلي. لكن لماذا؟

قانون «غيري» الصادر عام 1892 ألزَمَ كلَّ عاملٍ صينيٍّ مقيمٍ في الولايات المتحدة أن يسجِّل نفسه خلال سنة، ويتقدّم بطلبٍ للحصول على «شهادة إقامة». ومن يتخلّف يُعتبَر، بحكم القانون، مقيمًا بصورةٍ غير مشروعة، فيُعرِّض نفسه للاعتقال والترحيل ـ ما لم يشهد رجلٌ أبيضُ بأنّ تخلّفه كان بسبب مرض أو حادث. احتجاجات الصينيين والطعنات القانونية في هذا القانون فشلت في إسقاطه، لكنها نجحت في تمديد مهلة التسجيل.في الرابع من أيار / مايو 1894، وهو اليوم الأخير للتسجيل، وصل مصوِّر إلى وارنز لالتقاط الصور المطلوبة. غير أنّ الموظّف الرسمي لم يأتِ، وبعد عامين كانت بولي واحدة من خمسين صينيًّا في وارنز تحاكمهم الحكومة الفدرالية بتهمة عدم التسجيل. وقد مثّلهم محامٍ واحد، ودفعوا جميعًا ببراءتهم، محتجّين بأنّ الطرق كانت مسدودة بالثلوج والأمطار.

في القضيّة المعنونة:

United States vs: Polly Bemiss [هكذا في الأصل]

In the Matter of the Arrest and Deportation of said defendant،

شهد شاهدُ حُسنِ سيرةٍ أبيض بأنّ الطرق كانت فعلًا غير سالكة، فحكم القاضي بمنح بولي «شهادة إقامة».

الصورةُ الشخصية المثبَّتة على شهادة بولي مأخوذة من صورة كاملة لها أهدتها إلى «غاي»، الطفلةِ الصغيرة التي كانت تُقيم عندها زمن المدرسة في وارنز. وحين عرضت غاي الصورة عليّ قالت إنّ بولي كانت تسميها «صورتها الزوجيّة»، وبذلك ربطت ـ ربطًا قاطعًا ـ بين زواجها عام 1894 وبين أملها وأمل تشارلي في أن يحميهما الزواج من الاعتقال والترحيل.

لقد حظَر أوّلُ مجلسٍ تشريعيّ إقليمي لأيداهو (1863–1864) زواج البيض من الهنود والصينيين وذوي الأصول الأفريقية، وكذلك سُكناهم المشترك. وبهذا كان ينبغي أن يكون زواج بولي وتشارلي مستحيلاً. غير أنّ القاضي الصُّلحي «إيه. دي. سْميد» الذي أصدر شهادة زواجهما كان هو نفسه متزوّجًا، في خرقٍ للقانون، من «مولي»، وهي امرأة من قبيلة ليهمي شوشون، من فرع «شيبيتر».

أمثلةُ المسؤولين الذين يتحدّون القوانين الجائرة ليست نادرة، وهذا ما يدعم مصداقية الروايات الشفهية والمكتوبة الكثيرة التي تقول إنّ بولي منحت جيرانها «صكًّا» بمزرعة بيمس، مع أنّ «قانون الأراضي للأجانب» كان يحظر على الصينيين امتلاك العقار. ومع ذلك، لم أعثر على أيّ تسجيل رسمي لهذا الصك. ثم حدث أن تحوّل حديثُ مجموعةٍ من الرُّوّاد، كانوا جالسين يستعيدون ذكرياتهم عن بولي، إلى الكلام على التعدين: كيف أنّ «حقّ التعدين» يعطي صاحبه الحقَّ في الأرض ما دام يواصل العمل فيها. وبينما هم يتحدّثون، ومض في ذهني مشهدُ تشارلي وهو يثابر، على غير عادته، في «تعدين» مزرعة بولي كلَّ ربيع، والخوفُ الذي خيّم على البيت إبّان حُمّى «بافالو هَمب». كان لتشارلي عقاراتٌ أخرى، وكان يستطيع بسهولة أن يشتري الأرض، لكنّ الحكومة الأميركية أوضحت، بلهجة لا تقبل اللبس، أنّ زواج بولي من رجلٍ أبيض، ومحبّة الناس وتقديرهم لها، لن يقيها من الذراع الطويلة المتعنّتة لقوانين مناهضة الصينيين.

عندئذٍ قلبتُ وجهي جهة أخرى في الرمل، وبحثتُ عن «حقّ تعدين» باسم تشارلي ـ فكان أن عثرتُ على ذهبيّةٍ حقيقيّة.

الوثائقُ الثلاث التي أشرتُ إليها في هذا المقال، ومعها دليلٌ للمدرّسين، وموادّ تعليمية للفصول، ودليلٌ لمجموعات القراءة، وتحليلٌ كامل لجميع المصادر، منشورةٌ على موقع: www.beacon.org/ThousandPiecesExtras وللاطّلاع على موادَّ أرشيفيةٍ إضافية، يمكن الرجوع إلى: http://www.mccunn.com/TPOG.html

اعتمادات الصور

الجزء الأوّل

فتاة صينية بقدمين مقيّدتين. بإذن من مكتبة بانكروفت.

الجزء الثاني

فتاة صينية مستعبَدة في بيت دعارة في الحيّ الصيني. من كتاب جدائل الشعر وغبار الذهب لألكسندر ماكلويد. بإذن من مطابع كاكستون وغرفة تاريخ سان فرانسيسكو، مكتبة سان فرانسيسكو العامة.

الجزء الثالث

وارنز، أيداهو. بإذن من الجمعية التاريخية لولاية أيداهو.

الجزء الرابع

صورة زفاف لالو/بولي ناثوي. بإذن من الجمعية التاريخية لولاية أيداهو.

الجزء الخامس

منزل بولي بليس، مزرعة بيمِس. بإذن من جون كاري.

الجزء السادس

بولي بيمِس، غرانجفيل، 1923. من كتاب نهر بلا عودة لـ آر. جي. بيلي. بإذن من الجمعية التاريخية لولاية أيداهو.

الجزء السابع

بولي بيمِس. بإذن من الجمعية التاريخية لولاية أيداهو.

حاشية:

بحسب غاي كاري روبي، كانت بولي تشير إلى هذه الصورة الرابعة بوصفها صورة زفافها، ومن هنا جاءت الإحالة أعلاه. غير أنه تبيّن لاحقًا أن هذه هي الصورة ذاتها المثبّتة على شهادة إقامتها، ويرجَّح أنها التُقطت على يد هانسون، مصوّر صحفي توجّه إلى وارنز في 4 مايو 1894 «لتصوير الصينيين لأغراض التسجيل». (صحيفة إيداهو كاونتي فري برس، 4 مايو 1894).

شكر وتقدير

أدينُ بالفضل لكل من قدم لي العون أثناء بحثي وكتابتي لرواية «ألف قطعة من ذهب»: لالو ناثوي / بولي بيمس، على إلهامها؛ ودون مَكّان، الذي لولا إسهاماته في كلِّ مرحلة لبقي هذا الكتاب مجرّد حُلْم؛ والروّاد الذين أحبّوا بولي بما يكفي لأن يُدوِّنوا قصّتَها في الأوراق الخاصّة، والصحف، والمجلاّت، والتواريخ الشفهيّة؛ والأخت ماري ألفريدا إلسِنزون، التي عرّفتني بلالو / بولي، وأرشدتني إلى عددٍ كبير من المصادر؛ وكلِّ من وافق على إجراء مقابلات، وقدّم لي خيوطًا إضافيّة إلى أشخاصٍ آخرين ومصادر أخرى، وظلّ يجيب عن أسئلتي في المراسلات، وبخاصة جيم كامبل، جون كاري، ماري لونغ آيزنهافر، ماريبِل وفول فايلر، دينِس جي. لونغ، فيرنا مَكغرين، غاي كاري روبي، جون ساوْيَر، فيرا ويفر وِيت، وآينز وايلدمان؛ ونيلّي مَكليلاند في جريدة «آيداهو كاونتي فري برس»؛ وبوب وِيت في دائرة تسجيل آيداهو كاونتي؛ وم. غاري بِتِس، وجيم ديفِس، وكارين إي. فورد، وكِنِث ج. سوانسون في «الجمعية التاريخية لولاية آيداهو» لما كشفوه من معلوماتٍ كان لا غنى عنها؛ وبوب هولي في «روس فالي بوكس» الذي عرّفني إلى كتبٍ عن الغرب الحقيقي؛ وأمناء مكتبة الإعارة بين المكتبات في مكتبة سان فرانسيسكو العامّة الذين لم يُخفقوا قطّ في الحصول على الكتب والأوراق التي طلبتُها من مكتباتٍ في أرجاء الولايات المتحدة؛ والأصدقاء العديدين الذين وهبوني من أوقاتهم وخبراتهم في القراءة النقدية لمسودّة الكتاب، لا سيّما بِفرلي بروْن، هوِي لي، إلن يُونغ، وجودي يُونغ، الذين أسهمت بصائرهم ومعرفتهم المتخصّصة إسهامًا كبيرًا في الصيغة النهائيّة لهذا العمل؛ وجون كاري وبوب هولي، اللذين راجعا المخطوط للتحقّق من دقّته التاريخية؛ وليندا دي. برِستون، التي صقلت مهارتُها التحريريّة نثري وأضفت عليه ما كان يحتاجه من تهذيب؛ وجين واكاتسوكي هوستون، وجيمس دي. هوستون، وجوان لِفينسون، ودايان ليفي، وأليس فان سترايلن، على دعمهم المبكّر.

ومنذ ذلك الحين تراكَمَت عليّ ديونٌ كثيرة أخرى ذكرتُها في مواضع مختلفة، لكن سيكون من الجحود ألّا أُعيد، هنا أيضًا، التعبير عن امتناني لدون مَكّان على عونه في أن أجعل أحلامي واقعًا؛ ولتْسوي نوليانغ وهوانغ يوفو، على ما أضافاه من بحثٍ في أصول لالو؛ و«رابطة كُتّاب منغوليا الداخلية» على الزيارة التي سمحت لي بها إلى المراعي، فأعمقتْ فهمي؛ وتيري هافِس، على منحي فرصة العودة إلى مزرعة بولي بيمس؛ ومديري وطاقم «دار بيكون للنشر»، ولا سيّما توم هالوك على دعمهم الذي لم يفتر منذ عام 1988 وللالو ناثوي/ بولي بيمس التي لا تزال إلى اليوم تمسك بيدي.

هذه الرواية مُهداةٌ إلى لالو / بولي، وإلى دون.

عن الكاتبة:

نشرت "روثان لوم مكون" ثمانية كتب عن تجارب الصينيين على جانبي المحيط الهادئ، ومن بين مؤلفاتها: "أغاني السمك الخشبي" (Wooden Fish Songs)، و"الناجي الوحيد: قصة صمود قياسي في عرض البحر" (Sole Survivor)، و"صور أمريكية صينية: تواريخ شخصية 1828-1988" (Chinese American Portraits)، و"لؤلؤة القمر" (The Moon Pearl)، وأحدث أعمالها "يانكي صيني" (Chinese Yankee).
تُرجمت كتبها الحائزة على جوائز إلى ثلاث عشرة لغة، ونُشرت في اثنين وعشرين دولة، كما جرى اقتباسها للمسرح والشاشة. تقيم الكاتبة، التي عملت سابقاً في التدريس، حالياً في سان فرانسيسكو، وتلقي محاضرات مكثفة في الجامعات والمدارس والمنظمات المجتمعية.